

سِلْسِلَةُ الدِّرَاسَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ

جَائِزَةُ دُخَى الدَّوْلَةِ لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

وَحَدَّةُ الْبُحُوثِ وَالدِّرَاسَاتِ



حُكُومَةُ دُبَيِّ
GOVERNMENT OF DUBAI

تَأْمَلَاتُ فِي

سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ

تَفْسِيرٌ بِلَاغِيٌّ تَطْبِيقِيٌّ



تَأَلَّفَ

الدَّكْتُورُ عَادِلُ أَحْمَدُ صَابِرُ الرُّوَيْنِي

تأملات في
سورة إبراهيم
تفسير بلا غي تطبيقي

تَأَلَّفُ
الدَّكْتُورُ عَادِلُ أَحْمَدُ صَابِرُ الرُّوَيْنِي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تأملات في

سورة إبراهيم

تفسير بلاغي تطبيقي

تأملات في سورة إبراهيم

تفسير بلاغي تطبيقي

تأليف : د. عادل أحمد صابر الرويني

الطبعة الأولى : ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م

جميع الحقوق محفوظة لجائزة دبي الدولية للقرآن الكريم ©

طبع بموجب إذن طباعة من المجلس الوطني للإعلام بدولة الإمارات

رقم (رق/١٢/٢٠١٢ / ١٤١٧ تاريخ ٢١/٠٣/٢٠١٢م)

ما ورد في هذا الكتاب يعبر عن رأي صاحبه ولا يعبر بالضرورة عن رأي الجائزة

ص.ب: ٤٢٠٤٢ دبي - الإمارات العربية المتحدة

هاتف: ٩٧١ ٤ ٢٦١٠٦٦٦ +

فاكس: ٩٧١ ٤ ٢٦١٠٠٨٨ +

الموقع على الإنترنت : www.quran.gov.ae

البريد الإلكتروني : Rs@quran.gov.ae

جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم

وحدة البحوث والدراسات

إهداء

إلى أمي رحمها الله، ينبوع الحب والحنان، والصبر والتضحية، محبة العلم والعلماء..

ثم إلى والدي الحنون أطال الله عمره، رمز نقاء الصدر، وصفاء السريرة، وطيبة القلب..

ثم إلى زوجتي الغالية التي ضحت ومازالت من أجل توفير الجو الملائم لي للبحث والعلم..

ثم إلى أولادي الأعزاء (فاطمة - أحمد - الشيماء - عبد الرحمن): حبات قلبي، وفلذات كبدي، الذين ظهرت بصماتهم جلية في كل كتاب ألفته، والذين ضحوا بأوقاتهم وراحتهم من أجل مساعدتي في إخراج كتبي إلى النور.

وأخيراً: إلى كل من شجعني على إخراج تلك الكتب إلى النور ولو بكلمة طيبة، أو بدعوة مخلصة.

الافتتاحية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد، خاتم النبيين وإمام المرسلين، وخير خلق الله أجمعين، ورحمة الله للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد،

فإن كتاب الله عز وجل هو جبل الله المتين، والنور المبين، والصرائط المستقيم، والحجة الباقية إلى يوم الدين، من تمسك به فاز في الدارين، ومن أعرض عنه تبوأ شر المنزلين، لا يشبع منه العلماء، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي لم يته الجن إذ سمعته حتى قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾ [الجن: ١-٢]، الاشتغال به عبادة، تلاوة كان أو تدبراً أو حفظاً أو دراسة أو نظراً أو تعلماً أو تعليماً، وقد تكفل الله سبحانه بحفظه فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، وجعله المعجزة الخالدة لنيبه سيدنا محمد ﷺ إلى يوم الدين، ﴿قُلْ لِّينِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

وقد صرف علماء الأمة - سلفاً وخلفاً - إليه هممهم، ووجهوا إليه عنايتهم، ينهلون من معينه، ويتزودون من علومه، ويغوصون في أسرارهِ، ويستخرجون الالاء من بحره، ويستضيئون بإشاراته إلى الكون والإنسان والحياة، ليقفوا على أوجه إعجازه المختلفة، ليستبين للعالم اليوم أنه الحق من عند الله القائل: ﴿سَرُّيْهِمْ ءَايَتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

ومن منطلق رسالة جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم في نشر الثقافة القرآنية، وتعميمها، يشرفها أن تسهم في خدمة كتاب الله العزيز، وتقدم إلى المكتبة الإسلامية في سلسلة الدراسات القرآنية هذا الكتاب «تأملات في سورة إبراهيم - تفسير بلاغي تطبيقي» الذي نرجو أن يكون لبنة مهمة في المكتبة القرآنية. راجين المولى عز وجل أن يجعل هذا العمل وغيره من إنجازات الجائزة صدقة جارية في صحيفة أعمال صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم، نائب رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة، رئيس مجلس الوزراء، حاكم دبي، راعي الجائزة الذي أنشأ هذه الجائزة لتكون منار خير تنشر ما تجود به القرائح في حقل الدراسات القرآنية، وتخدم القرآن الكريم بسبل شتى، فجزاه الله عن القرآن وأهله خير الجزاء.

ورغبة في إسناد الفضل لأهله، فإن وحدة البحوث والدراسات في الجائزة تتقدم بالشكر والتقدير إلى رئيس اللجنة المنظمة للجائزة سعادة المستشار إبراهيم محمد بوملحه، مستشار صاحب السمو حاكم دبي للشؤون الثقافية والإنسانية الذي ما فتئ يشجع نشر الكتب العلمية القيمة في إطار رسالة الجائزة في خدمة كتاب الله الكريم وسنة رسوله العظيم ﷺ.

وفي الختام نسأل الله أن يجزل الأجر والثوبة لمؤلف هذا الكتاب، ولكل من أسهم في خدمته وتصحيحه وتدقيقه وإخراجه في هذا الثوب القشيب.

وصلّى الله وسلّم على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين والحمد لله رب العالمين.

الدكتور محمد عبد الرحيم سلطان العلماء

رئيس وحدة البحوث والدراسات

تقديم

الحمد لله الواحد الأحد، الفرد الصمد، المنزه عن الشريك والنّد والولد، سبحانه لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي أرسله ربه بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، وأيده بالمعجزة الخالدة التي أعجزت العرب الفصحاء، ووقفت دونها عقول البلغاء، وما استطاعوا إلى معارضته سبيلاً، وعلى آل بيته الأطهار الطيبين، وصحابته الأخيار المتقين، ومن استن بسنته إلى يوم الدين، وبعد...

فالقرآن الكريم هو حبل الله المتين، وصراطه المستقيم، ونوره المبين، وهديّ للمتقين، وهو الذي لا تزيج به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشيع منه العلماء، ولا يملّه الأتقياء، ولا يخلّق على كثرة الرد، من قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه أجر، ومن عمل به هدي إلى صراط مستقيم، ولذلك، فإن أفضل ما يقدمه الباحثون، وأسمى ما يسعى إليه المؤلفون في بحوثهم وتأليفهم، ما كان في خدمة القرآن الكريم وعلومه الجليلة الباهرة، لاسيما علم البلاغة العربية، فإنه من أسمى العلوم قدراً، وأرفعها شأنًا، وأوفاهها أداءً، وأجلها غاية، لأنه بها ينكشف وجوه الإعجاز الكامنة في نظم القرآن، لذا فإن أحق هذه العلوم بالتعلم وأولاها بالفهم والحفظ بعد المعرفة بالله جل ثناؤه علم البلاغة ومعرفة الفصاحة كما قال «الزخشري» في مقدمة تفسيره.

وقد وفق الله الدكتور عادل أحمد صابر الرويني وأعانه على الإسهام في بناء صرح البلاغة القرآنية فأصدر سلسلة من الدراسات القرآنية تتجه إلى الكشف عن الأسرار البلاغية الكامنة في مفردات وتراكيب النظم الحكيم على قدر ما أفاء الله على الباحث من تهيز واستعداد وتوفيق وخلوص نية واستحضار فكر، سعياً وراء المقصد والغاية، وهذا الكتاب هو السادس في سلسلة البلاغة القرآنية بعنوان: «تأملات في سورة إبراهيم: تفسير بلاغي تطبيقي»، وتناول الباحث في هذا الكتاب سورة إبراهيم بالتحليل اللغوي البلاغي الذي يكشف عما يكنّه الأسلوب القرآني من قيم تعبيرية ولمحات فنية، وسهات أسلوبية، وبذل جهداً يذكر له فيشكر عليه في أن يكون بحثه تطبيقاً بلاغياً يكشف للقارئ أسرار إعجاز القرآن، ويجسد أمام عينيه عظمة القرآن ليقن أنه ليس من كلام البشر، وإنما هو من كلام الله رب العالمين، ومنهج الباحث في دراسته لهذا الكتاب هو المنهج التحليلي التكاملي الذي يقوم على تحليل المفردات والتراكيب لغوياً وبلاغياً، فيبين دقة نظم الكلمة في التركيب الذي يضمها، مراعيّاً دلالتها من حيث مادتها مبنياً ومعنى، ومن حيث صيغتها فعلاً أو اسماً، مشتقاً أو جامداً، مفرداً أو مثني أو مجموعاً، معرفاً أو منكراً، ومن حيث ترتيبه في النظم مقدماً ومؤخراً، ومن حيث ذكره أو حذفه، وأبان الباحث عن المعاني والأسرار البلاغية الكامنة في التراكيب وتنوعها إلى خبرية وإنشائية، وما توحى به من أسرار ودقائق تفهم من السياق وفقاً للمقام والغرض المقصود، وعلاقات الجمل وارتباط بعضها ببعض، والتعرف على المعاني والأحداث من خلال تناسق نظم الجمل.

كما وقف الباحث أمام بعض الآيات المتشابهات يتدبر معانيها، ويبين ما اختصت به من الصياغة وفقاً لسياقها والغرض منها، ودحض شبه الطاعنين على أسلوب القرآن الكريم الذين ينظرون إلى صياغته نظراً سطحياً مغرضاً، وأظهر تهافت طعونهم، ويّـن

الباحث أسباب نزول بعض الآيات لتكون عوناً على فهم السياق، كما أشار إلى اختلاف القراءات القرآنية أحياناً وتوجيهها بلاغياً، وربط التفسير البلاغي بالواقع المعاصر المتصل بالقضايا الإنسانية والاجتماعية في حياتنا، ووثق بحثه بالرجوع إلى آراء المفسرين واللغويين والبلاغيين من القدماء والمحدثين الذين كانت لهم دراسات فاحصة ودقيقة في مجال الدراسات البلاغية حول النظم القرآني، وكان يناقشهم أحياناً مرجحاً بعض الآراء على الأخرى، وعطاءات القرآن متجددة لا تقف عند حد ولا تناهي، فهي تتجدد بالمعاودة لقراءة الآيات وتدبر معانيها مرات ومرات، في أوقات متباعدة أو متقاربة وفي أحوال مختلفة، فيبدو للقارئ ما لم يبد له من قبل، وستظل عطاءات القرآن تتجدد لكل الأجيال إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وصدق الله العظيم إذ قال: ﴿قُلْ لَّوْكَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا لَّكَلَّمْتُ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نَنفِدَ كَلِمَتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩].

والله أسأل أن يشيب فضيلة المؤلف على ما بذل من جهد، وأنفق من وقت ومال، وأن ينفع به المسلمين، وأن يجزيه عنهم خير الجزاء، إنه ولي ذلك والقادر عليه، والله من وراء القصد، وهو الهادي إلى سواء السبيل.

أ.د. عبد الله محمد سليمان هنداو

الأستاذ المتفرغ بكلية اللغة العربية

فرع جامعة الأزهر بالقازيق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على خير الكائنات سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم، أرسله ربه هادياً ومبشراً ونذيراً وأيده بمعجزة قاهرة أعيّت الفصحاء وأبهت البلغاء وأخرست أرباب البيان، وقد بهتوا جميعاً عن معارضة القرآن الكريم، فعجزوا على أن يأتوا بمثل أقصر سورة منه.

وبعد،

فإن القرآن الكريم كتاب الله العزيز وحبله المتين والنور المبين الهادي إلى الصراط المستقيم، وإن المتأمل في كتاب ربنا، والمتدبر لبيانه ليجد عجباً لما هو عليه من روعة البيان وإعجاز البلاغة، وستظل عطاءاته البلاغية متجددة، وأسراره البيانية متوهجة لمن يفتح الله تعالى له شيئاً من مغاليق تلك الأسرار، لتبقى معجزة القرآن الكريم إلى يوم الدين، وصدق الله العظيم: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا لَكَلِمَتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نَنْفَذَ كَلِمَتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩].

وتزخر المكتبة البلاغية القرآنية بآلاف الكتب والإسهامات في بيان شيء من أسرار هذا الكتاب المعجز، ولقد كان من توفيق الله تعالى لي وتيسيره أن منّ عليّ بمعايشة ذلك الكتاب المعجز معايشة طويلة امتدت لسنين كثيرة، وكان من ثمرتها (من سلسلة البلاغة القرآنية) وهي سلسلة تعنى بالجانب التحليلي التطبيقي للبلاغة القرآنية.

وكتابي هذا «تأملات في سورة إبراهيم» هو الكتاب السادس في تلك السلسلة المضيئة المباركة.

وأؤثر تناول سورة قرآنية بعينها بالتفسير والتحليل، لأبرز أهم خصائصها البلاغية باعتبارها وحدة واحدة.

ويخطئ كثير من الناس مَنْ يسفه أو يقلل من شأن كتاب معاصر في التفسير بزعم أنه نصوص مقتبسة من كتب التفسير المختلفة، مادام المؤلف قد أضاف جديداً حتى ولو كان قليلاً، واجتهد وناقش آراء سابقه وحاور ورجح، واختط لنفسه نهجاً وأسلوباً وتناولاً يبرز شخصيته العلمية.

وإنك لتعجب عندما تقرأ كثيراً من كتب التفسير القديمة حيث تجد تكراراً ونقلًا من اللاحق لآراء السابق وتفسيره!! وازن مثلاً بين كتابي «إرشاد العقل السليم»، لأبي السعود، و«روح المعاني»، للآلوسي ستجد كثيراً جداً من التشابه.

واقراً «تفسير النسفي» ستجده تلخيصاً لرأي سابقه في كثير من المسائل البلاغية، وغير تلك الكتب كثير جداً، تجد فيها تكراراً ونقلًا، ومع ذلك لا نستطيع أن نغبط جهود هؤلاء العلماء الأفذاذ، أو نقلل من شأن أعمالهم.

أرى أن هذا التنويه كان ضرورياً؛ لأن أصحاب النظرة العجلى يرون أن كثرة الإحالة إلى الآراء وأصحابها، وكثرة النقول عن الآخرين في التفسير مما ينقص من قدر العمل، متناسين طبيعة التفسير التي تقتضي أن تذكر آراء السابقين، وذلك من باب الأمانة العلمية.

وكتابنا يعتمد على المنهج التحليلي التطبيقي، فهو تفسير بلاغي تطبيقي؛ لذا لم نقسمه إلى فصول أو أبواب، ومن الجديد فيه أننا ربطناه ببعض القضايا الاجتماعية المعاصرة بأسلوب سلس يصل إلى القلوب والأفهام في يسر وسهولة.

وقد عنونت كل آية أو مجموعة من الآيات في سورة «إبراهيم» بعناوين مختلفة تندرج تحت غرض معين يجمعها، وقد تعرضت للآيات المتشابهة في السورة مع أخواتها في السور الأخرى وبيّنت أوجه الاتفاق والاختلاف بينها والسرّ في ذلك.

ولم أغفل الوقوف أمام كثير من مسائل النحو والصرف؛ لأبيّن ارتباطها بالبلاغة، ناهيك عن الوقوف عند المفردات، والمترادفات؛ لبيان أوجه الاختلاف في المعنى.

كما أنني وقفت أمام رسم بعض الكلمات القرآنية، وحاولت بيان وجه ارتباطها بالمعنى في سياقها ومقامها، والنية منعقدة إن شاء الله على أفراد ذلك في مبحث مستقل إن شاء الله.

وقد وقفت خاشعاً متدبراً متأملاً الحرف والكلمة والجملة والآية القرآنية، وحاولت استخراج شيء من البلاغة فيها، كما أنني لم أغفل القراءات وتنوعها وبلاغتها. وجاء أسلوبنا خطائياً في بعض الأحيان؛ لدفع الرتبة، وهذا الأسلوب ليس جديداً فهو مبثوث في الكتب في مختلف فروع المعرفة. ومعظم الاستطرادات التي استدعاهما السياق ألحقناها بالهامية.

وقد ختمت الكتاب بملحق بأهم المصطلحات البلاغية التي وردت في الكتاب لتكون عوناً للقارئ غير المتخصص وزاداً له ليتمكن من معايشة الكتاب وفهم ما ورد فيه.

وقد اشتمل الكتاب على مجموعة من الفهارس هي:

١- فهرس المصادر والمراجع.

٢- فهرس الآيات القرآنية.

٣- فهرس القراءات.

٤- فهرس الأحاديث النبوية.

٥- فهرس الأشعار.

٦- فهرس المحتويات.

وأخيراً، فهذا عمل بشري، وجهد شخصي يتجاوز فيه الخطأ والصواب، فالله
أسأل أن يثيبني على هذا العمل، وأن يجعله في ميزان حسناتي، وأن يرزقني فيه إخلاص
النية، وأن يغفر لي زلاتي.

وصلّ اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم

د. عادل بن أحمد صابر الرويني

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى: ﴿الرَّكَتَبُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: ١].

تسمية السورة:

سورة إبراهيم: سورة لا يُعرف لها إلا هذا الاسم، وقيل: سميت سورة إبراهيم، لما فيها من قصص إبراهيم وابنيه إسماعيل وإسحاق عليهم السلام، وسكن إسماعيل وذريته بجوار البيت الحرام^(١)، ولكنني لا أتفق مع هذا الرأي بدليل قوله صاحبه نفسه: «.. ولكن لم يتخذ شخص إبراهيم - عليه السلام - محور السورة كما كان الشأن في سورة يوسف عليه السلام»^(٢).

العلاقة بين اسم السورة ومضمونها:

قال الفراهي في مقدمة كتابه (نظام القرآن وتفسير الفرقان بالفرقان) والتي أسماها (فاتحة نظام القرآن) - وقد جعلها مقدمات متعددة -: «ولما كان اسم شيء عنواناً لمعناه وقد اشتهر من الأسماء ما لا يخبر عن معناها، فاعلم أن أسماء السور على أربعة وجوه:

الأول: تسميتها بلفظ من أوائلها، فمنه فيما نقله السيوطي: سورة الحمد، وبراءة، وسورة سبحان، وطه، وحواميم، ويس، والرحمن، وتبارك، وسأل، وعم،...

(١) انظر: زهرة التفاسير للإمام محمد أبو زهرة ٣٩٧٦/٨.

(٢) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

والثاني: تسميتها بلفظ اختص بها كالزخرف والشعراء والحديد والماعون وغير ذلك، فهذه الأسماء لا تنبئ عن مقصد السورة، ولكنها كالشامة والسمة تتميز بها مسمياتها، وكانت العرب تسمي الرجال والأشياء هكذا كالمتملمس وتأبط شراً، وهكذا المنطقي يميز المعاني بعرض خاص ليس فيه شيء من حقيقة المعنى.

والثالث: تسميتها بلفظ يخبر عن بعض المعاني العظيمة كتسمية سورة النور؛ لاشتغالها على آية النور وتسمية سورة آل عمران وسورة النساء وسورة إبراهيم وسورة يونس، وكثير من الأسماء على هذا الأسلوب.

والرابع: تسمية السورة بما ينبئ عن المقصد الذي بنيت له السورة، فمنها تسمية الفاتحة بسورة الصلاة، وتسمية براءة بسورة بني إسرائيل، وسورة محمد بسورة القتال، وسورة الإخلاص، والمعوذتين.

فهذا الوجه الرابع يخبر عن فهم من سمى السورة به، فلو سموا كل سورة على هذا الوجه لظهر نظام السور لكل متوسم، ولا بأس عندي أن نسمي كل سورة بما يهدي إلى معناها إن لم يمنع الشرع^(١). وقد نقلت النص على طوله لأهميته.

وذهب البقاعي في معرض حديثه عن هذا الموضوع إلى أنه توجد علاقة وثيقة بين اسم كل سورة وبين مقصودها، وإن شئت قلت: إن محور الأمر في تسمية السورة القرآنية إنما يرجع إلى ذلك الاسم الذي سميت به، والمرتبط ارتباطاً متيناً بالمقصود الأعلى أو الغرض العام أو المعنى الكلي المهيمن على السورة كلها^(٢).

(١) نظام القرآن وتفسير الفرقان بالفرقان للفراهي.

(٢) هذا ملخص رأي البقاعي، راجع الرأي مفصلاً في كتابه: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ١٨/١، الناشر مكتبة ابن تيمية.

والراجح عندي رأي الفراهي؛ لأنه أكثر تفصيلاً، وبعداً عن التعسف والتكلف كما في رأي البقاعي.

وإذا أردنا أن نطبق هنا أحد الضوابط التي ذكرها الفراهي على سورة إبراهيم: فإننا نشير إلى أن الغرض العام في السورة هو التوحيد، وأوضح ما فيها من الدلالة على هذا المقصود قصة إبراهيم عليه السلام، كما سنعرف بالتفصيل إن شاء الله.

وسورة إبراهيم سورة مكية باستثناء الآيتين: الثامنة والعشرين والتاسعة والعشرين^(١). وعدد آيات السورة اثنتان وخمسون آية، ونزلت هذه السورة بعد سورة «الشورى»، وقبل سورة «الأنبياء» وهي السورة السبعون في ترتيب السور في النزول^(٢).

ترتيب السورة:

أما عن سر وضعها في المصحف الشريف بعد سورة الرعد فهو أن مطلع سورة إبراهيم مرتبط بقوله - تعالى - في سورة الرعد: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٤٣] على أن المراد بـ(مَنْ) هو الله - تعالى - ، كما أن في الرعد قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آسَفْنَاهُ بِرُسُلِهِمْ مِنْ قَبْلِكَ فَاْمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ [الرعد: ٣٢] وقد أجمل في هذه الآية الحديث عن الرسل، والمستهزئين وصفة الاستهزاء والأخذ، وفي سورة إبراهيم فصل الحديث عن هذه الأربعة في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا بِالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [إبراهيم: ٩].

(١) انظر مثلاً: تفسير البغوي المسمى بـ(معالم التنزيل).

(٢) انظر: التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور.

العلاقة بين خاتمة سورة «الرعد» وفاتحة سورة «إبراهيم»:

المناسبة واضحة بين خاتمة سورة «الرعد» وفاتحة سورة «إبراهيم»؛ ففي كل منهما إشارة إلى القرآن الكريم الكتاب المعجز^(١)، اقرأ قول ربك في خاتمة الرعد: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٤٣]، وبُدئت سورة «إبراهيم» بقوله تعالى: ﴿الرَّكَتَبُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: ١] كما تشابه مطلع سورة «الرعد» مع مطلع هذه السورة في الحديث عن القرآن الكريم، قال تعالى في مطلع سورة «الرعد»: ﴿الْمَرْءُ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الرعد: ١]

الحروف المقطعة:

كما بُدئت كلتا السورتين بالحروف المقطعة التي كثرت فيها أقوال المفسرين وأهل العلم.

وقد تعددت التوجيهات في تفسير تلك الحروف المقطعة، فقليل: إنها أسماء للسور الواقعة هي فيها، وقليل: أقسام أقسم بها لتشريف قدر الكتابة، وتنبيه العرب الأميين إلى فوائد الكتابة لإخراجهم من حالة الأمية، أو إنها حروف مقتضبة من أسماء وصفات لله تعالى المفتحة بحروف مماثلة لهذه الحروف المقطعة، وهذا القول رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وقيل: إنها حروف قصد منها تنبيه السامع مثل النداء المقصود به التنبيه وإيقاظ ذهن السامع، وتشويق القارئ^(٢).

(١) انظر: أسرار ترتيب سور القرآن للسيوطي، ص ٥٨.

(٢) راجع: التحرير والتنوير ١/ ٢٠٦-٢٠٨، وتفسير المنار للسيد محمد رشيد رضا ٨/ ٢٩٩.

أما عن رأي أغلب المفسرين المعبرين فهم يذهبون إلى أن افتتاح بعض السور القرآنية بتلك الحروف الهجائية إنما هو للدلالة على أن هذا القرآن الكريم الذي تحدى به الله تعالى أرباب الفصاحة وفرسان البلاغة من قريش فعجزوا عن الإتيان بأقل سورة من مثله إنما نزل بالحروف التي يعرفونها، ويكتبون بها، فيكون هذا تقريباً لهم وتوبيخاً لإعراضهم عن الإيمان به^(١). وهذا رأي رصين وإليه تميل النفس.

الكتاب العظيم:

وتستهل السورة ببيان رسالة النبي ﷺ وهي إخراج الناس من ظلمات الكفر والضلال إلى نور الهداية والإيمان بإذن الله تعالى، قال سبحانه: ﴿كَتَبُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: ١] والمعنى: هذا القرآن كتاب أنزلناه إليك يا محمد لتخرج الناس من ظلمات الجهل والكفر إلى نور العلم والإيمان والهداية بما أذن لك من تعليمهم ودعائهم إلى الإيمان، أو بتوفيقه إياهم ولطفه بهم إلى طريقة الله الواضحة التي شرعها لعباده وأمرهم بالالتزام بها، والمصير إليها، والدخول فيها^(٢).

وقيل: المقصود بالكتاب سورة إبراهيم، ولكن الصواب أن المقصود به القرآن الكريم. والله أعلم

إعراب قوله سبحانه ﴿الرَّكَتَبُ﴾:

تعددت الآراء^(٣) في إعراب قوله - سبحانه -: ﴿الرَّكَتَبُ﴾ فقيل: ﴿الرَّكَتَبُ﴾

(١) ينظر: الكشف للزمخشري ١٦/١.

(٢) انظر: فتح القدير لمحمد بن علي الشوكاني ٩٧/٣ وزبدة التفسير بهامش مصحف المدينة المنورة د. محمد سليمان عبد الله الأشقر، ص ٢٥٥.

(٣) راجع مثلاً: البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي ١٧/١.

إما مبتدأ خبره ﴿كَتَبَ﴾، أو خبر مبتدأ محذوف، ويكون ﴿كَتَبَ﴾ خبر المحذوف مقدراً، أو خبراً ثانياً لهذا المبتدأ. أو ﴿كَتَبَ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي: هذا كتاب، وقوله: ﴿أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ﴾ في موضع رفع صفة.

والتنكير في ﴿كَتَبَ﴾ للتفخيم والتعظيم، والمعنى: كتاب عظيم الشأن أنزلناه إليك. وجاز الابتداء بالنكرة؛ لأنها موصوفة بقوله تعالى: ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾، ونون العظمة في ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ بيان لوجه عظمة هذا الكتاب المبين.

والفعل «أنزل» يتعدى بـ«إلى» و«على»، ومن شواهد في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ [الكهف: ١] وقوله: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [النحل: ٢] وقوله: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣-١٩٤] وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَكَيْ فَلَنْفْسِهِ * وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [الزمر: ٤١].

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ﴾ [الزمر: ٢] وقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَبَكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِبِينَ خَصِيماً﴾ [النساء: ١٠٥]، وقوله تعالى: ﴿وَأِنْ أَحْكَمُ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩].

وهنا نتساءل عن سر اختلاف هذه التعدية، وقد كفانا الإسكافي مؤونة البحث، حيث رأى أن كل موضع عُدِّي فيه الإنزال بـ«على» فإنها تدل على الشريف، وكل موضع عُدِّي فيه الإنزال بـ«إلى» فإنها تدل على التشديد في التبليغ^(١)، ولكن الإسكافي

(١) انظر: درة التنزيل وغرة التأويل في بيان الآيات المشابهات في كتاب الله العزيز، لمحمد بن عبد الله الخطيب الإسكافي ص ٤٠٣-٤٠٤.

رحمه الله لم يُعلل لهذا التوجيه، وأحسب - والله أعلم - أن الإشعار بالتشريف جاء مع «على» - في المواضع التي تعدّى فعل الإنزال بها - من خلال الإشارة إلى عظمة المنزل والمنزل عليه القرآن، والمعنى المراد في هذه المواضع: أن الله تعالى شرفك يا محمد لتؤدي ما عليك من الإنذار والتبشير.

أما حرف الانتهاء المعدّى به فعل الانتهاء فدلالته على التشديد في التبليغ والعمل بالمنزل فإننا نلمسها من خلال أداء أمانة التبليغ نفسها؛ لأنها أمانة السماء فلا بد أن تُسلم إلى أهلها في الأرض، والأمانة فيها من التشديد في الأداء، والتفاني في سبيل إبلاغها ما فيها. والله أعلم.

الداعي والهادي:

وأسند فعل الإخراج إلى الرسول ﷺ ﴿لُخْرِجَ﴾؛ لأنه ﷺ هو الداعي والمنذر والهادي^(١)، والتعريف في ﴿النَّاسَ﴾ للجنس المفيد للعموم والشمول.

وتعليل الإنزال بالإخراج من الظلمات في قوله تعالى: ﴿لُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ﴾ دلّ على أن «الهداية هي مراد الله تعالى من الناس، وأنه لم يتركهم في ضلالهم، فمن اهتدى فإرشاد الله، ومن ضلّ فبيّثار الضال هو نفسة على دلائل الإرشاد، وأمر الله لا يكون إلا لحكم ومصالح بعضها أكبر من بعض»^(٢).

وشبه الانتقال أو التحول من حال إلى حال بالخروج، وعليه ففي قوله ﴿لُخْرِجَ﴾ استعارة تصريحية تبعية.

الظلمات والنور:

واللام في قوله تعالى: ﴿لُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ للتعليل، واستعيرت

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي.

(٢) التحرير والتنوير ٧ / ١٨٠.

الظلمات للضلال والكفر بجامع التخطي والحيرة وعدم الاهتداء في كل، كما استعير النور للهداية بجامع الإرشاد والوصول إلى الغاية في كل، والاستعارتان تصرّحان أصليتان. وجمعت «الظلمات»؛ للإشارة إلى كثرة سبل الضلال والفساد، وأفرد «النور»؛ للإشارة إلى وحدة الحق، ووحدة الولاية لله الواحد الحق، ووحدة المنهج الموصل إلى الحق.

ومما لحظناه أن «الظلمات» جمعت وأفرد «النور» في اثني عشر موضعاً في القرآن الكريم، وكل هذه المواضع اقترن فيها النور بالظلمات، وكان جُلّها يرمز بالنور إلى الهداية أو الإيمان النابع من مصدر واحد، ويرمز بالظلمات إلى سبل الغواية، وطرق الضلال، ومتاهات الشرك، ومن شواهد قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ نَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾ [الرعد: ١٦] وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [الأحزاب: ٤٣].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ * وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ * وَلَا الظُّلُ وَلَا الْحُرُورُ * وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ [فاطر: ١٩-٢٢].

والباء في قوله تعالى: ﴿يَا ذِينَ رَبِّهِمْ﴾ متعلقة بفعل الإخراج ﴿لِيُخْرِجَ﴾.

وقيل: إن الباء في ﴿يَا ذِينَ﴾ للسببية^(١)؛ لأن الله تعالى هو الذي أذن لنبيه ﷺ بإبلاغ الناس ما فيه هدايتهم وإخراجهم من الضلال إلى الهداية.

وأرى - والله أعلم - أن الباء هنا للملابسة؛ للإشارة إلى أن الهداية لا يملكها بشر ولو كان رسول الله ﷺ، وإنما هو ﷺ سبب في الهداية، يؤكد هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦] وهذه

(١) انظر: التحرير والتنوير ٧/ ١٨١.

إشارة إلى بشريته ﷺ، وذلك دفعاً لما يفهم من ظاهر قوله سبحانه: ﴿لُخْرِجَ النَّاسُ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾، ولذلك فإن قوله: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ احتراص لدفع ما يتبادر إلى الذهن من أن الرسول محمداً ﷺ بيده هداية الناس من الضلال إلى الهداية، وإنما كما قلنا: إنه ﷺ سبب في تلك الهداية.

إرادة مطلقة:

والتعبير بوصف الربوبية للإشعار بالترية واللفظ والفضل، وبأن الهداية لطف محض، كما أن فيه إشعاراً بأن الكتاب والرسول ﷺ والدعوة لا تجدي دون إذن الله تعالى، كما ينبى عنه قوله تعالى: ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ [الرعد: ٢٧]، كما أن في الوصف بالربوبية، وإضافته إلى ضمير الناس دلالة على تبليغ الشيء إلى كماله المتوجه إليه، وشمول الإذن بذلك المعنى لكل الناس واضح، وعليه يدور كون الإنزال لإخراجهم جميعاً من الظلمات إلى النور، وهذا ما قاله الآلوسي^(١).

وقد يقول قائل: إن حال كثير من الناس من عدم الهداية ينافي هذا العموم المفهوم من قوله تعالى: ﴿لُخْرِجَ النَّاسُ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ ويرد على هذا بأن سوء اختيارهم وفساد طويتهم سبب عدم هداية هؤلاء، ولكن عدم هدايتهم لا يخل بهذا العموم، ولعل هذا الواقع المذكور يبطل قول من رأى أن اللام في قوله تعالى: ﴿لُخْرِجَ النَّاسُ﴾ لام الغرض وليست لام التعليل، لأنه يلزم على هذا التأويل أن يكون جميع الناس مؤمنين، والواقع ينافي ذلك.

«العزیز الحمید»:

وقوله تعالى: ﴿إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ بدل من قوله: ﴿إِلَى النُّورِ﴾، وأعيد

(١) ينظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للآلوسي ١٣/ ١٨١، ١٨٢.

العامل - حرف الجر - «إلى» وكرر لفظاً؛ للدلالة على البدلية، أو لزيادة بيان المبدل منه «النور» وإيضاحه كما في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾ حيث كرر حرف الجر اللام وهو العامل، ويجوز أن يكون قوله سبحانه: ﴿إِلَى صِرَاطٍ﴾ استئنافاً بيانياً، وكأن سائلاً سأل: إلى أي نور؟ ف قيل: ﴿إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ وإضافة الصراط إليه سبحانه؛ لأنه مقصده، أو المبين له.

والعزيز: هو القاهر لكل من سواه، والغالب لكل من عاداه، والحמיד هو المحمود في جميع أفعاله وأقواله وشرعه وأمره^(١)، والمحمود في ذاته.

واختير هذان الوصفان من صفاته سبحانه؛ لمناسبتها للمقام، فإنه لما ذكر في بداية الآية إنزاله تعالى لهذا الكتاب وإخراج الناس من الظلمات إلى النور، ناسب ذلك ذكر صفة العزة المتضمنة للقدرة والغلبة لإنزاله مثل هذا الكتاب المعجز الذي لا يقدر عليه سواه سبحانه؛ لذا كان من الملائم أيضاً تقدم تلك الصفة لتتلاءم مع هذا الإنزال المعجز.

كما تواءم ذكر وتقديم صفة العزة مع التأكيد أنه سبحانه هو الهادي الحقيقي إلى سواء السبيل وأن الرسول ﷺ ما هو إلا مبلغ لرسالة ربه، وأنه لا يملك تصريف القلوب.

ولا شك أن معنى الغلبة والتصرف المطلق يناسبه ذكر صفة العزيز، وتقديمها لتأكيد هذا المعنى، أما صفة الحمد فوجه مناسبتها أن إنزال الكتاب لإخراج الناس من الظلمات إلى النور نعمة من أعظم النعم^(٢)، وهي نعمة ترشد إلى حمده سبحانه. والمراد بالصراط طريقة الله تعالى ومنهجه الذي أمر الناس باتباعه والسير عليه والعمل به.

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٤/ ١٠٧، ١٠٨.

(٢) انظر: البحر المحيط لأبي حيان ٢/ ١٥٤.

من مشتبه النظم:

ومن مشتبه النظم مع هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [سبأ: ٦] وقوله تعالى: ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطٍ الْحَمِيدِ﴾ [الحج: ٢٤].

فمن الملحوظ ورود كلمة الصراط مضافة في سورتي إبراهيم وسبأ إلى اسمه «العزیز»، ثم أردفت باسمه تعالى «الحميد»، واقتصرت في سورة الحج على إضافة الصراط إلى اسمه سبحانه «الحميد»، فما السر في ذلك؟

والجواب عنه: أن المقام هو الذي استدعى ذكر اسم «الحميد» في سورتي إبراهيم وسبأ، كما أن مقام سورة الحج استدعى الاقتصار على ذكر اسم «الحميد»، وبيان ذلك في سورة إبراهيم: أنه لما خاطب النبي محمد ﷺ بقوله تعالى: ﴿لُخْرِجَ النَّاسُ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ دل مفهوم هذا على أن ذلك الأمر - (أي إخراج الناس من ظلمات الكفر إلى نور الهداية) - بيده ﷺ، وهذا ما استدعى ذكر صفة العزة أو اسم العزيز إشارة إلى قدرته سبحانه وغلبته وقهره سبحانه، وأنه لا يملك أحد من عباده حتى ولو كان أفضل الخلق محمداً ﷺ أن يهدي أحداً إلا بإرادته سبحانه، وألا يكون في ملكه تعالى ما لا يريده سبحانه، وذلك تأكيد لمعنى مطلق تصرفه سبحانه في ملكه، ولقد أكد القرآن الكريم نفي استطاعته ﷺ هداية الناس في عدة آيات كريمة منها قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْكَ إِلَّا أَلْبَلَعُ﴾ [الشورى: ٤٨] وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَئِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦] وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى﴾ [السجدة: ١٣].

المهم أن الوصف بالعزة في آية إبراهيم أكد هذا المعنى - وقد بينت هذا من قبل -.

ولكن قبل أن أترك هذه النقطة ألا تتفق معي على أن القرآن الكريم يريد التأكيد من خلال هذه الآيات ونظيراتها وهي كثيرة على نقاء عقيدة المسلمين في نبيهم محمد ﷺ، حتى لا تزيع عن الحق وتميل إلى الباطل كما هو الشأن في عقيدة من ادعى الألوهية لنبيه؟

صفة العزة:

ولنعد إلى آية سبأ حيث إن مقام الآية المذكورة فيها كمقام آية إبراهيم بلا فرق، وبيان ذلك أن الرؤية في الآية علمية، أي: بمعنى العلم، ومحال أن يرى من وُصف بالعلم حكم الله جاريًا في خلقه إلا على ما يشاؤه ويريده سبحانه، وأنه لو شاء لجمعهم على الهدى، فوصفه سبحانه - بالعزة تمام لمقصودها، وليس للمدعويين إلا ما سبقت به إرادته تعالى، ولا بيد نبيه ﷺ إخراجهم ولا هداهم، ولم يرد في هاتين الآيتين (في إبراهيم وسبأ) أن الإخراج من الظلمات إلى النور والهداية مما وقع وانقضى، وإنما مقتضى الآيتين - أي مضمونهما - رجاء إجابتهم وهدايتهم عند دعائه، عليه السلام، ثم الرجاء راجع إلينا، وربنا المنزه المتعالي عن الاتصاف به، وقد أحاط علمه سبحانه بما يكون منهم وإنما خوطبنا على ما نتعارف^(١).

أما آية سورة الحج فلم يكن في مقامها ما يستدعي ذكر صفة العزة بما تفيده من القهر والغلبة، وإنما كان من الملائم ذكر صفة الحمد أو اسمه تعالى «الحميد» لأن الآية إخبار منه سبحانه بما أراده لأهل الإيمان من الفوز بالجنة وبالفلاح، اقرأ قوله تعالى قبل آية الحج المذكورة مباشرة ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا

(١) انظر: ملاك التأويل، لأحمد بن الزبير الغرناطي ٢ / ٥٧٥، ٥٧٦.

حَرِيرٌ ﴿[الحج: ٢٣]﴾ ثم يأتي بعدها مباشرة قوله تعالى: ﴿وَهْدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهْدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾ وهذا المقام في آية سورة الحج فيه إخبار بالتفضل والإنعام والفوز، لذا كان من الملائم ذكر صفة الحمد أو اسم الحميد والاقتصار عليه، لأن ذلك الإنعام العظيم جدير بأن يغري هؤلاء الفائزين - ندعو الله أن نكون منهم - بالحمد والثناء على ربهم، والحميد هو المحمود المُثنى عليه، وهو سبحانه محمود أزلاً بحمده تعالى لنفسه، وبحمد عباده له وثنائهم عليه أبداً.

أعتقد الآن أنك تتفق معي على أن ذكر «العزیز» في هذا الموضع ينبو به المقام ويلفظه المعنى.

ولم يتبق إلا أن نشير إلى أن الإخبار الوارد في آية الحج وما قبلها بما شاء الله تعالى هؤلاء من فوزهم وصلاح أحوالهم وفلاحهم إخبار قد تم حكمه وانقضى، ولذلك أيضاً كان من الملائم ذكر صفة العزة التي تفيد القهر - كما قلنا - والله أعلم بمراده.

منهج الوسطية:

إننا نؤكد أن منهج الله تعالى المتمثل في كتابه العزيز، وسنة نبيه الكريم هو سبيل الفوز والفلاح والنجاح والنجاة، لأنه منهج الوسطية الملائم لطبيعة الفطرة البشرية، وأن منهجاً بتلك السمات العظيمة لحري بأن يقدم على غيره من المناهج البشرية في مناحي الحياة كافة، وأنه من الظلم البين أن نحبس هذا المنهج الكامل ونقصره على مجرد عبادات أو صلوات في المساجد، وأن ينحى عن حياة الناس السياسية والاقتصادية والاجتماعية... إلخ.

ألا فلنعد إلى ما فيه سعادتنا وفلاحنا في الدارين إلى منهج الله تعالى إلى كتابه القويم وسنة رسوله ﷺ.

السلطان المطلق:

﴿اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ * الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ [إبراهيم: ٢-٣].

القراءات في اسم الجلالة:

نتدبر قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ فقد قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر برفع اسم الجلالة «الله» على الاستئناف، أي: على أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره: «هو» أي: هو الله الموصوف بالذي له ما في السموات وما في الأرض، واسم الموصول بناء على هذا التقدير صفة الخبر.

وقراءة الرفع على الاستئناف فيها دلالة على التفخيم المناسب لاسم الجلالة، والمناسب كذلك مع دلالة صدر الآية الكريمة على كمال ملكيته سبحانه ﴿الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾.

وموضع الاستئناف من المواضع التي يكثر فيها حذف المبتدأ «المسند إليه»، وذلك عندما يذكر موصوف ببعض صفاته ثم يدعى الكلام الأول، ويستأنف كلام آخر أعظم مما تقدم ذكره، ليكسب ذلك الاستئناف تقريراً للغرض، ومن شواهد قول عمرو بن معد يكرب:

رَأَيْتُ عَلَى مَا بِي عُمَيْلَةً فَاشْتَكَيْتُ إِلَى مَالِهِ حَالِي أَسْرَ كَمَا جَهَرَ
غَلَامَ رَمَاهُ اللَّهُ بِالْخَيْرِ مَقْبَلًا لَهُ سَيْمِيَاءُ لَا تَشُقُّ عَلَى الْبَصَرِ

التقدير: هو غلام، والسيمياء: الخلقة.

كلام عبد القاهر الجرجاني رحمه الله عن الحذف:

ومما قاله عبد القاهر الجرجاني رحمه الله عن الحذف: «هو باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت على الإفادة أزيد للإفادة، وتجذك أنطق ما تكون إذ لم تنطق، وأتمّ ما تكون بياناً إذ لم تبين»^(١).

ونعود إلى الآية الكريمة حيث قرأ الباقون «إلا رويساً» «الله» بالجر على البدل أو عطف البيان من قوله تعالى: ﴿الْعَزِيزُ الْحَمِيدُ﴾، وعلى كُلِّ فكلتا الطريقتين تفيد أن المنتقل إليه أجدر بالذكر عقب ما تقدمه، فإن اسم الجلالة أعظم من بقية الصفات، لأنه علم الذات الذي لا يشاركه موجود في إطلاقه ولا في معناه الأصلي المنقول منه إلى العلمية^(٢).

ورأى أبو السعود رحمه الله أن القراءتين - الرفع والجر - بيان «لكمال فخامة شأن الصراط» وإظهار لتحتم سلوكه على الناس قاطبة.

وتجوز الرفع على الابتداء بجعل الموصول خبراً مبناه الغفول عن هذه النكتة^(٣)، ولم يبين لنا أبو السعود وجه أو علة تفويت اللطيفة التي أشار إليها - كمال فخامة شأن الصراط - في قراءة الرفع.

المهابة الإلهية:

وأما حكم الوقف على قوله تعالى - في نهاية الآية الأولى - ﴿الرَّكَتَبُ﴾

(١) دلائل الإعجاز للشيخ عبد القاهر الجرجاني ص ١٤٦.

(٢) انظر: التحرير والتنوير م ٧، ج ١٣ / ١٨٢.

(٣) انظر: إرشاد العقل السليم لأبي السعود محمد بن أحمد العمادي ٥ / ٥.

أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾، فالوقف تام لمن قرأ اسم الجلالة «الله» بالرفع. أي تقف على قوله تعالى: ﴿الْحَمِيدِ﴾، ثم تبدأ بقوله «الله»، والوقف التام هو الوقف على كلام يحسن الوقف عليه والابتداء بها بعده.

ولا وقف على قوله «الحميد» لمن قرأ لفظ الجلالة «الله» بالجر لتعلقه بها قبله^(١). ولتنظر في صدر الآية ﴿اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ حيث صدرت بلفظ الجلالة، لقذف المهابة في نفس القارئ، كما أن في ذلك تناغماً مع مضمون الآية - كما أشرت آنفاً - الدال على كمال سلطان الله تعالى.

وقد تسألني عن سر آخر لإيثار لفظ الجلالة في هذه الآية الكريمة ويمكن أن يقال في سر إيثار اسم الجلالة: إنه سبحانه لما أضاف طريق النجاة إلى وصفين ﴿الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ وهما مما «يجوز إطلاق كل منهما على الخلق بينهما باسمه الشريف العلم...، لأنه جرى مجرى الأسماء الأعلام، لاختصاصه بالمعبود بحق، ووصفه بما اقتضى توحيده فقال: ﴿اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾»^(٢).

ووصف لفظ الجلالة باسم الموصول إنما كان من أجل زيادة المهابة والفخامة، وليس من أجل التعريف؛ لأن ملكه سبحانه المطلق لما في السماوات والأرض صفة لا ينازعه فيها أحد من خلقه ولا يدعيها، فهو سبحانه معروف بها عند المخاطبين.

دلالة صلة الموصول:

ونشم في صلة الموصول ﴿اللَّهُ، مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ رائحة التقريع

(١) انظر: منار الهدى في بيان الوقف والابتداء لأحمد بن محمد عبد الكريم الأشموني ص ٤١٤، والوقف الاختياري لجمال بن إبراهيم القرشي ص ٤٠.

(٢) نظم الدرر للبقاعي ١٦٦/٤ - دار الكتب العلمية، بتصرف يسير.

والتوبيخ والتعريض بالمشركين الذين اتخذوا من دون الله أنداداً لا يملكون لأنفسهم ولا لعبادتهم نفعا ولا ضراً وتركوا عبادة ملك الملوك الذي له ملك الوجود كله بما فيه من أجرام وأحياء عاقلة وغير عاقلة، وبما فيه من أنداد، وهذا يدل على أنها - الأنداد - وعُبادها تحت سطوة ملكه سبحانه وأنها في قبضته، وفي ذلك برهان ساطع على أنها غير جديرة بالعبادة.

وهذا هو وجه التسفيه والتفريع لهؤلاء المشركين، وأنت ترى أن تلك الإشارة لم ينص عليها في الآية، وإنما لمح التعريض من خلال سياق الدلالة على كمال ملكه سبحانه - وهذا ما يسمى في البلاغة بالإدماج - ، وللتأكيد على عموم ملكه سبحانه لسائر الوجود أعيد الموصول مع صلته فقول: ﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾.

تهديد صريح:

وتختتم الآية الكريمة بتهديد مباشر، ووعد صريح لمن أشرك بالله تعالى شيئاً من السماوات والأرض أو فيهما فقول: ﴿وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾.

ونشير أولاً إلى الارتباط المحكم بين خاتمة الآية الكريمة وصدرها - وهذا عهد القرآن الكريم كله - فبداية الآية يشير إلى سلطان الله تعالى المطلق في الوجود كله، وفي خاتمة الآية ذكر بعض مقتضيات هذا السلطان، وهو الحكم بكفر من عبد ما ليس له السماوات والأرض وتهديده ووعيده.

والويل مصدر بمعنى الهلاك، وهو لا فعل له، ويعامل معاملة المصادر ويرفع رفعها، ويفيد في الآية الكريمة بأن الهلاك ثابت للكافرين.

وهذا دعاء من المولى سبحانه بالعذاب والهلكة على الكفار الذين لم يهتدوا بما أنزله على رسوله فبقوا منغمسين في ظلمات الكفر، ولم ينتفعوا بنعمة إرسال الرسول

إليهم بالكتاب المين ليخرجهم من الظلمات إلى النور، فهنا تهديد بالويل والثبور لكل من لم ينتفع بتلك النعمة الكبرى والمنة العظمى.

والعطف في جملة ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ﴾ من باب عطف الإنشاء - لأنه في معنى الدعاء - على الخبر وقوله ﴿مِّنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ المراد به عذاب جهنم، والجملة في موضوع الصفة لـ «ويل»، و«من» بيانية، فهي بيان لصفة العذاب وشدته.

وأشار الزمخشري في كشافه إلى أن وجه اتصال قوله ﴿مِّنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ بالويل (أنهم يولولون من العذاب ويقولون: يا ويلاه)^(١).

وكلام الزمخشري فيه إشارة إلى أن الاتصال بين القولين معنوي، حيث جعل تلفظهم بكلمة التلهف من شدة العذاب.

والتعبير باسم الفاعل ﴿لِّلْكَافِرِينَ﴾ فيه إشارة إلى رسوخهم في الكفر وتمكنه منهم، لأنهم لم ينتفعوا ببعثة النبي محمد ﷺ ولا برسالاته، ولا بالكتاب الذي أنزل عليه لإخراجهم من الظلمات إلى النور.

من صفات الكفار:

وفي الآية التالية للآية السابقة بيان لصفات الكفار الذين تُوعدوا بالعذاب الشديد، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ [إبراهيم: ٣] فقد وصف الله تعالى هؤلاء بأنهم ﴿يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾ أي: أنهم يقدمون الدنيا ويعملون من أجلها ويفضلونها على الآخرة التي نسوها وتركوها وراء ظهورهم نتيجة انغماسهم في الدنيا. والمذموم ألا يكون الانشغال بالدنيا مسخراً من أجل الآخرة، كما أن «استحباب

(١) الكشف للزمخشري ٢/ ٢٩٢ - طبعة دار الكتب العلمية، بيروت.

الحياة الدنيا على الآخرة يصطدم بتكاليف الإيمان، ويتعارض مع الاستقامة على الصراط. وليس الأمر كذلك حيث تستحب الآخرة، لأنه عندئذ تصلح الدنيا، ويصبح المتاع بها معتدلاً، ويراعى فيه وجه الله، فلا يقع التعارض بين استحباب الآخرة ومتاع هذه الحياة. إن الذين يوجهون قلوبهم للآخرة لا يخسرون متاع الحياة الدنيا.. فصلاح الآخرة في الإسلام يقتضي صلاح هذه الدنيا، والإيمان بالله يقتضي حسن الخلافة في الأرض، وحسن الخلافة في الأرض هو استعمارها والتمتع بطيباتها. إنه لا تعطيل للحياة في الإسلام انتظاراً للآخرة، ولكن تعمير للحياة بالحق والعدل والاستقامة ابتغاء رضوان الله، وتمهيداً للآخرة، هذا هو الإسلام»^(١).

هذا كلام مهم جداً في سياقه؛ لأن أعداء الإسلام وأصحاب الأفق الضيق، والفكر العطن، يظنون أن الإسلام يدفع أبناءه إلى الجمود والانزواء وعدم التمتع بالطيبات، وكأن المسلم ما خلق إلا ليبقى بجوار مقبرته ليستعد للموت، والقرآن الكريم يدفع تلك الفرية في آيات كثيرة، اقرأ منها قول ربك: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ كَذَلِكَ نَفَصَّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٢]، وما أكثر الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة التي تحث على العمل والسعي في الأرض، وخير شاهد على هذا من الأحاديث الشريفة قوله ﷺ: «إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة، فإن استطاع أن يغرسها فليفعل»^(٢).

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٠٨٦.

(٢) رواه عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ. قال الألباني في «السلسلة الصحيحة» ١/ ١١: رواه الإمام أحمد (٣ / ١٨٣، ١٨٤، ١٩١) وكذا الطيالسي (رقم ٢٠٦٨)، والبخاري في «الأدب المفرد» (رقم ٤٧٩). وهذا سند صحيح على شرط مسلم، وتابعه يحيى بن سعيد عن أنس. وأورده الهيثمي في «المجمع» (٦٣ / ٤) مختصراً، وقال: «رواه البزار ورجاله أثبات ثقات».

و﴿يَسْتَحِبُّونَ﴾ بمعنى «يحبون» والسين والتاء للطلب، لأن المؤثر للشيء على غيره كأنه يطلب من نفسه أن يكون ذلك الشيء عنده أحب من الآخر^(١)، إذن يمكن القول إن طلب حب الدنيا يكون بالرغبة الشديدة فيها، والإلحاح في طلبها، والحرص عليها. وفي التعبير بالفعل المضارع «يستحبون» دلالة على استمرار انغماسهم في الدنيا الفانية وإيثارها على الآخرة الباقية.

وقوله: ﴿يَسْتَحِبُّونَ﴾ مجاز مرسل عن الاختيار والتفضيل بعلاقة اللزوم.

ولم يكتف تعالى بذكر استحبابهم الحياة الدنيا بل جمع بينها وبين إيثارهم إياها على الآخرة، ليبين بذلك أن الاستحباب للدنيا وحده لا يكون مذموماً إلا أن يضاف إليه إيثارها على الآخرة، وأما من أحبها ليتوصل بها من خلال أعماله الصالحة إلى نعيم الآخرة فذلك غير مذموم^(٢).

أما الصفة الثانية من صفات الكافرين: ﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾، أي: يقفون حائلاً أمام من يرغب في الإيمان بالله وبرسوله محمد ﷺ، فهم لا يكتفون بعدم هدايتهم وإعراضهم عن سبيل الهدى بل يمنعون غيرهم عن سلوك الطريق المستقيم. والتعبير بالمضارع فيه إشارة إلى تكرار صدهم عن سبيل الله.

قراءة الحسن البصري:

وقرأ الحسن البصري «ويُصدون» (بضم الياء وكسر الصاد). والمعنى أنهم أعرضوا عن سبيل الله، وحضوا غيرهم على الإعراض عن سبيل الله، وذلك بالجمع بين

(١) انظر: الكشف ٢ / ٢٩٢، وانظر: حاشية النيسابوري على تفسير الطبري ١٣ / ١٠٤.

(٢) انظر: اللباب في علوم الكتاب لعمر بن علي الدمشقي ١١ / ٣٣٤.

القراءتين. وقد كان أبو لهب وغيره يذهبون إلى مجتمع الرسول ﷺ مع القبائل يكذبون النبي ﷺ، ويدعون أبناء هذه القبائل إلى الإعراض أو عدم الاستماع.

من أشد أنواع الصد عن سبيل الله:

وأشد أنواع الصد عن سبيل الله إيذاء المتبعين لسبيل الله وتعذيبهم ليحملوهم على الردة عن دينهم.

ومن أشد أنواع الصد عن سبيل الله أيضاً ما نراه اليوم من بعض المسلمين من سلوك مشين، وأفعال فاضحة، وأخلاق معوجة، وعادات غريبة، وهؤلاء المحسوبون على الإسلام يعطون صورة مشوهة عن المسلمين، وقد يكونون سبباً في صد كثير من غير المسلمين الذين يفكرون في الدخول إلى الإسلام بهذه العيوب التي يتصفون بها.

ألا فليكن المسلم وكذلك المسلمة خير سفير لدينه، وخير داعية لإسلامه بسلوكه المستقيم، وأخلاقه النبيلة، وتعاملاته الحسنة حتى مع غير المسلمين، لعل الله يهدي على يديه من يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

وإضافة السبيل إلى الله في قوله: ﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾، لإظهار بشاعة الجرم وفظاعته؛ لذا أوتر التعبير بلفظ الجلالة، وإفراد السبيل، للدلالة على أن سبيل الهداية، وطريق النجاة ومنهج الحق واحد، وبَيِّنْ لا تشعب فيه ولا اختلاط.

«ويبغونها عوجاً»:

أما الصفة الثالثة المذمومة من صفات الكافرين المذكورة في الآية الكريمة فهي: ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي: يحبون أن تكون سبيل الله مائلة، لموافقة أهوائهم وأغراضهم، وسبيل الله مستقيمة في نفسها لا يضرها من خالفها ولا من خذلها^(١).

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٤ / ١٠٨.

وقيل: المعنى: أنهم يلمسون الدنيا من غير وجهها، لأن نعمة الله لا تستمد إلا بطاعته دون معصيته^(١).

والضمير في قوله: ﴿وَيَبْغُونَهَا﴾ عائد إلى ﴿سَبِيلَ اللَّهِ﴾؛ لأن السبيل يذكر ويؤنث. ومن شواهد تأنيثه أيضاً قوله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي﴾ [يوسف: ١٠٨] ومن شواهد تذكيره قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: ١٤٦].

تأمل معي سر إثارة الفعل (بغى) في قوله تعالى: ﴿وَيَبْغُونَهَا﴾ ولماذا أوثر على الفعل (أحب) أو (طلب) أو (أراد) أو أي فعل آخر مناسب للمعنى؟ إن مادة الفعل (بغى) تدور حول مجاوزة الحد، يقال: بَغَى الجرح: إذا تجاوز الحد في فساد، وبغت المرأة إذا فَجَرَتْ، وذلك لتجاوزها إلى ما ليس لها. وَبَغَت السماء: تجاوزت في المطر حد المحتاج إليه.

وَبَغَى: تكبر، وذلك لتجاوزته منزلته إلى ما ليس له.

والبَغْي ضربان: محمود وهو تجاوز شيء إلى شيء أفضل منه، كتجاوز العدل إلى الإحسان مثلاً.

والضرب الثاني من البغي مذموم، كتجاوز الحق إلى الباطل، والخير إلى الشر. ولأن البغي قد يكون محموداً ومذموماً، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الشورى: ٤٢]، فخص سبحانه العقوبة بالبغي بغير حق، ولكن البغي في أكثر المواضع مذموم ومن شواهد قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾، ﴿ثُمَّ بَغَى عَلَيْهِ لِيَنْصُرَّهُ اللَّهُ﴾ [الحج: ٦٠]، ﴿إِنَّ قَرُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ﴾ [القصص: ٧٦]، ﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغَى﴾ [الحجرات: ٩].

(١) انظر: مجمع البيان في تفسير القرآن، للفضل بن الحسن الطبرسي ٥٥/٦.

هؤلاء يشوهون صورة الإسلام:

لعلك عرفت الآن سر إثارة الفعل (بغى) في الآية ألا وهو ملاءمته بدلالته على تجاوز الحد في أصل معناه لسياق التهديد والوعيد وتقديم الأدلة المادية لإدانة هؤلاء الكافرين الذين استحقوا العذاب الشديد.

إن هؤلاء الذين يشوهون الإسلام ويرمون بالتطرف، ويصفونه بأنه دين الإرهاب، وينعتون رسوله ﷺ بأقذع النعوت ظلماً وبهتاناً ويصرون على نشر الرسوم المسيئة له غير مراعيين حرمة نبي مُرسَل ولا مشاعر أكثر من مليار مسلم، إن هؤلاء يصدون عن سبيل الله، ويطلبون لهذه السبيل زيغاً وميلاً لموافقة أهوائهم وقضاء حاجاتهم وشهواتهم.

نقول لهؤلاء ولن سار على دربهم من بني جلدتنا ممن يتسمى بأسمائنا ويتكلم بلساننا، ويسير على درب أعدائنا، نقول لهؤلاء جميعاً: خستتم فنور الإسلام لن ينطفئ أبداً بإذن الله، وصدق الله العظيم القائل: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف: ٨-٩].

الرسوخ في الكفر:

ولنعد إلى بيان الآية الكريمة ﴿وَبَغَّوْهَا عِوَجًا﴾ والعوج ضد الاستقامة، والعوج (بفتح العين) يقال فيما يدرك بالبصر سهلاً أي في الأجسام، كالخشب المنتصب ونحوه، والعوج (بكسر العين) يقال فيما يدرك بالفكر والبصيرة أي في المعاني، كالدين والمعاش، ومن شواهد أيضاً قوله تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ [الزمر: ٢٨]^(١).

(١) انظر: مادة (عوج) معجم مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني ص ٣٦٣.

والإخبار عن السبيل بالمصدر ﴿عَوَجًا﴾؛ للمبالغة في اختلاق النقائص التي تنفر الناس من اتباع سبيل الله والدخول إلى الإسلام.

وتأمل معي التعبير عن الكافرين باسم الفاعل في قوله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [إبراهيم: ٢٢]، والتعبير عن صفاتهم الثلاث بالفعل المضارع ﴿يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾، ﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾، ﴿وَيَبْغَوْنَهَا عَوَجًا﴾.

ولعل السر في ذلك هو أن التعبير عنهم باسم الفاعل أو بالجملة الاسمية للدلالة كما قلنا على ثبات الكفر فيهم ورسوخهم فيه وتمكنه منهم، فالكفر من الاعتقادات العقلية التي لا يناسبها التكرار؛ لأنه ليس من الأفعال ولكنه من الانفعالات، فلذلك خولف بينه وبين وصفهم باستحباب الحياة الدنيا على الآخرة، وبالصد عن سبيل الله وبغى إظهار العوج، لأن تلك من الأفعال القابلة للتكرار^(١).

وختمت الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾، واسم الإشارة في محل رفع مبتدأ، و﴿فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ في محل رفع خبر، ووصف ضلالهم بالبعد؛ لأن اجتماع الصفات المذكورة فيهم نهاية الضلال وغايته، وإذا كانت جملة الصلة وما عطف عليها قد بينت علة وعيدهم وتهديدهم بالعذاب الشديد، فإن الإشارة في قوله: ﴿أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾؛ للتنبيه على أنهم جديرون بما وصفوا به من الضلال.

ودل حرف الظرفية (في) على المبالغة في كثرة ضلال الموصوفين بالأوصاف السابقة، فهو لاء غارقون في الضلال وفي الاتصاف به^(٢)، والتمكن منه.

والظرفية هنا مجازية؛ لأن الضلال معنوي لا حسي، والتجوز في مدخول الحرف

(١) انظر: التحرير والتنوير م ٥٠، ج ٩ / ١٤٠.

(٢) المصدر السابق م ٧، ج ١٣ / ١٨٤.

على حسب رأي الزمخشري، وفي الحرف ذاته كما يفهم من كلام العز بن عبد السلام^(١). وفي وصف الضلال بالبعد مجاز عقلي بعلاقة المصدرية، فالبعيد حقيقة هم أهل الضلال بميلهم عن الآخرة إلى الدنيا، وبطلبهم العوج فيما قومه الله تعالى وأقامه.

وبلاغة المجاز هنا الدلالة على المبالغة في الاتصاف بالضلال، ويجوز أن يكون البعد وصفاً للضلال، بمعنى أن هؤلاء الكافرين قد أوغلوا في الضلال إغلالاً شديداً، حتى بعدوا عن الطريق السوي بعداً لا يرجى منه هدايتهم. والغرض بيان غاية التباعد والتنافر والتضاد، وأنه بعد عن الحق لا يوازن.

وعلى كلا التقديرين فإن المراد الإشارة إلى التمايز بين الحق والباطل أو ما بين أهلها، فأهل الحق لهم سماتهم التي تميزهم عن أهل الباطل، فلهم ما يميزهم في تعاملاتهم وسلوكهم ومناهجهم وتصوراتهم ومبادئهم، ولهم ما يميزهم في أخلاقهم، وتشريعاتهم ونظمهم وقوانينهم المستمدة من شريعتهم الغراء، ومن العجب أن ترى انطماس الفوارق بين أهل الحق وأهل الباطل في كثير من البلاد الإسلامية، حيث ترى ذوبان تلك الفوارق في إعلامها إلا ما رحم ربي، الذي ينشر رذائل أهل الباطل، وترى انمحاق تلك الهوية الإسلامية في مجون كثير من شبابنا المسلم، وخلاعة بعض بناتنا، وترى ذلك جلياً أيضاً في الأخذ بعادات أهل الباطل، والهرولة وراء كل ناعق منهم يأتي ببدعة جديدة.

إن شخصية أهل الحق يجب أن تكون شخصية رزينة وقورة يشع منها نور الحق والهداية المستمد من صراط الله المستقيم.

(١) انظر: الإشارة إلى الإيجاز للعز بن عبد السلام ص ٢٢، والبلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري للدكتور محمد محمد أبو موسى ص ٤١٩-٤٢٠.

بقي لنا في هذه الآية الكريمة أن نشير إلى أن قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ «فيه تأكيد لما أشعر به بناء الحكم بالكفر على الموصول، والمراد أنهم قد ضلوا عن الحق ووقعوا عنه بمراحل»^(١).

ندعو الله أن يجعلنا من أهل صراطه المستقيم وأن يبصرنا بالحق ويثبتنا عليه.

أشرف اللغات:

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلَّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [إبراهيم: ٤].

لما من الله تعالى على الناس بإنزال القرآن وهدايته وأثره بين لهم أن من كمال النعمة أن يرسل كل رسول إلى قومه بلغتهم؛ ليعين لهم شرعه ويوضحه بلسانهم فتكمل الغاية من الرسالة، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾.

وهنا يتبادر إلى الذهن اعتراض مهم جداً مفاده: أن مفهوم الآية الكريمة أو مدلولها ينطبق على الرسل السابقين على النبي ﷺ؛ لأن غيره أرسل إلى قومه خاصة بلسانهم؛ ليفقهوا عنه رسالته، ولا تبقى لهم حجة على الله بأنهم لم يفهموا رسالة من أرسل إليهم، أما الرسول ﷺ فكما هو معلوم فإنه بعث إلى الناس كافة كما يفهم من قوله تعالى في أول السورة: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ فلفظ الناس يدل على العموم، وكما يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨] وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ﴾ [سبا: ٢٨]، بل إنه قد بعث إلى الإنس والجن.

اعتراض:

فإن قيل: كانت رسالته ﷺ بلغة قومه لقطع حجة العرب، فالحجة باقية لغيرهم من الأمم لاختلاف لغاتهم، كما لو أرسل ﷺ بلسان غير العرب وأنزل القرآن الكريم بغير لغتهم لكانت لهم الحجة، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ [فصلت: ٤٤].

دور الترجمة:

والإجابة على هذا الاعتراض من وجوه منها:

أولاً: أن القرآن الكريم لا يخلو إما أن ينزل بلغة واحدة أو بجميع اللغات، ولا حاجة لنزوله بجميع اللغات، أي الألسنة؛ لأن ترجمة معانيه لأهل بقية الأجناس واللغات تغني عن نزوله بجميع الألسن، وتكفي مؤونة التطويل وما دام نزول القرآن بلسان واحد يكفي عن نزوله بجميع الألسن فإن أولى الألسنة بنزول القرآن الكريم به لسان العرب قومه ﷺ؛ لأنهم ألصق به، وأقرب إليه؛ ولأنهم هم الذين سيحملون دعوته، و يبلغون رسالته ﷺ إلى كافة البشر بعد أن يتبينوها منه، ويفهموها عنه، ويتدارسوا القرآن الكريم على يديه ﷺ ثم يسيحوا في شتى بقاع الأرض يحملون مشاعل النور والهداية، وهذا ما حدث بتوفيق الله تعالى بالفعل، وقد تنوّل عنهم تفسير القرآن وبيان أحكامه، وانتشرت التراجم التي قامت ببيانه وتفسيره وتفهمه كما ينطق الواقع، وتشهد الحال من نيابة تراجم معانيه في أمة أعجمية عن نزول القرآن بألسنتها جميعاً^(١). ولندلّل على ذلك أيضاً بأن الرسول ﷺ ركز في دعوته على قومه أولاً حتى تخلص الجزيرة

(١) ينظر: الكشف ٢ / ٢٩٣.

العربية للإسلام، ولتكون مركز انطلاق الدعوة، ومهد انتشار الرسالة المحمدية بكتابها الخالد إلى سائر أصقاع الأرض.

ومن حفظ الله لهذه الرسالة أن هيأ الله عز وجل لرسوله الكريم ﷺ أصحاباً كراماً وأتباعاً مخلصين انطلقوا بعد وفاته ﷺ إلى أنحاء المعمورة لينشروا رسالة نبيهم العالمية بعد أن فهموها ووعوها ودرسوها على يديه ﷺ، وبعد أن أحسن ﷺ إعدادهم وتأهيلهم؛ ليكونوا أهلاً لتبليغ دعوة الله تعالى عنه.

فلا تعارض إذن بين كون رسالته ﷺ للناس كافة، ورسالته بلسان قومه. وما زال دعاة الرسالة المحمدية جيلاً وراء جيل يقومون بأداء رسالتهم في تبليغ رسالة محمد ﷺ إلى شتى بقاع الأرض.

وقال القرطبي في تفسيره: «ولا حجة للعجم وغيرهم في هذه الآية؛ لأن كل من ترجم له ما جاء به النبي ﷺ ترجمة يفهمها لزمته الحجة، وقد قال الله عز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾»^(١).

ثانياً: إن نزول القرآن الكريم بجميع اللغات أدعى إلى التنازع والاختلاف والتفرق واختلاف الكلمة وبروز العصبية وتطرق أيدي التحريف، فكان نزوله بلسان واحد أسلم من التنازع والعصبية، وأبعد عن التحريف والتبديل، «مع ما في ذلك من اتفاق أهل البلاد المتباعدة والأقطار المتنازحة، والأمم المختلفة والأجيال المتفاوتة على كتاب واحد، واجتهادهم في تعلم لفظه ومعانيه، وما يتشعب من ذلك من جلائل الفوائد، وما يتكاثر في إتياب النفوس، وكدّ القرائح فيه من القرب والطاعات المفضية إلى جزيل الثواب»^(٢).

(١) الجامع لأحكام القرآن ٩ / ٣٤٠.

(٢) الكشف ٢ / ٢٩٣.

ثالثاً: لو نزل القرآن الكريم باللسنة كل الناس، وكان متصفاً بالإعجاز في كل لغة نزل بها، ولو كلم الرسول محمد ﷺ كل أمة بلسانها كما كلم أمته العربية لكان ذلك أمراً قريباً من القسر والإلجاء، وبعثة الرسل لم تُبْنِ على ذلك، بل على التمكين من الاختيار.

رابعاً: إنما أرسل الرسول ﷺ بلسان قومه إلى الناس كافة؛ لأن اللسان العربي أسهل الألسنة وأفصحها وأبينها، وهذا دليل شرف هذا اللسان، فكان غاية العدالة أن يرسل الرسول ﷺ بلسان قومه؛ لصلاحيته لجميع الأمم وخفته عليهم.

تلك كانت إجابات على الإشكال في فهم الآية، فاحفظها وافهمها جيداً^(١).

(١) لنا عدة وقفات أمام مدلول الجملة القرآنية السابقة بعد أن عرفت تفسيرها، ومن هذه الوقفات المهمة ما تدل عليه هذه الآية الكريمة من وجوب الاهتمام باللغة العربية وعلومها؛ لأنها توصل إلى بيان مراد الله تعالى وكلام رسوله ﷺ. وقد قال ابن تيمية مؤكداً هذا المعنى: «إن اللغة العربية من الدين، ومعرفة فرض واجب، فإن فهم الكتاب والسنة فرض، ولا يفهم إلا باللغة العربية، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب». (اقتضاء الصراط المستقيم ١ / ٥٢٧).

تأمل قوله: «ومعرفة فرض واجب»، حيث جعل تعلم هذه اللغة التي أعتبرها لغة مقدسة فرضاً واجباً. وهذا الشعار (تَعَلَّمْ اللغة فرض واجب) دائماً ما نرفعه ونردده ونحث طلابنا على الالتزام به وتطبيقه.

إن لغتنا العربية الشريفة التي اصطفاه الله تعالى لغة لكتابه الخالد، وأرسل خير رسله ﷺ بها، وفضلها على سائر اللغات لغة حُرِّي بنا - نحن العرب خصوصاً والمسلمين عامة - أن نفتخر بها، وأن نكتب على دراسة علومها.

إن تلك اللغة ستظل خالدة بخلود القرآن الكريم، وستبقى محفوظة بحفظه؛ لأن الذي أنزل القرآن سبحانه هو الذي تكفل بحفظه، حيث قال سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

= إن تلك اللغة الخالدة التي تجمع مليار مسلم على النطق بها حين قراءة القرآن الكريم وفي الصلوات تعاني الإهمال من أبنائها، وتشكو الازدراء من قومها، والسخرية من أهلها، وانظر مثلاً كيف يُصَوِّرون من ينطق بها في كثير من الأعمال الفنية التي تعرضها بعض قنواتنا التلفازية حيث يظهر في صورة تثير السخرية والتندر والضحك.

وقد أثَّرت تلك الصورة المغلوطة في تشويه اللغة في نفوس الناشئة، وتجذ الطالب الذي يحاول التحدث باللغة العربية الفصحى مثار ضحك وسخرية زملائه، بل وتعجبهم.

هجر عجيب:

فيا قوم لِمَ العجب ممن يتحدث بلغته الأصيلة؟! فهل تعجبون من أي أجنبي يتحدث بلغته؟ وَلِمَ تبجح بنطق أولادنا بلغة أجنبية وهم صغار؟ وَلِمَ نُصِرْ على إلحاقهم بالمدارس الأجنبية التي تعلمهم لغات مختلفة ونفتخر بذلك، ونهمل تعليمهم لغة قرآنهم، ولسان رسولهم ﷺ؟! وَلِمَ نُفَحِّم بعض الكلمات الأجنبية أثناء تحدثنا بالعربية كدليل على الواجهة والثقافة؟ نحن لا نحارب تلك اللغات بل علينا أن نشجع دائماً على إتقان أكثر من لغة أجنبية، فإن من تعلم لغة قوم آمن مكرمهم، ولكن لا يجب أن يكون هذا على حساب لغتنا العربية.

عَلِّمُوا أولادكم لغة أو أكثر كما شئتم، وأتقنوا من اللغات ما استطعتم ولكن بعد أن تتعلموا لغتكم التي فضلها الله على شتى لغات الأرض. وكم يكون حزني وألمي عندما أجد كثيراً من أبنائنا في المدارس الأجنبية لا يكادون يعرفون شيئاً عن لغتهم، بل لا يكادون يتكلمون بلهجتهم المحلية، حيث هجروا اللغة هجراً عجيباً وبتشجيع من آبائهم. قل لي بربك كيف يفهم هؤلاء وأضرابهم الذين أعرضوا عن تعلم اللغة العربية القرآن الكريم؟ بل كيف يقرؤونه؟ نحن في محافلنا العلمية، وفي قاعات الدراسة نعاني من ضعف أولادنا البين في لغة القرآن الكريم، ومن عدم رغبتهم في تعلم اللغة، ومن كرههم لمادتها!!

إن الحملات المسعورة على لغتنا العربية مازالت مستمرة منذ تلك الدعوة الخبيثة التي أطلقها أحد أعدائها - وهو للأسف الشديد من بني جلدتنا وعلى غير ملتنا - بوجوب ترجمة القرآن الكريم إلى اللهجة المصرية حتى يفهمه العوام! تأملوا تلك الدعوة التي أطلقها غير مسلم، وكأن هذا المأفون غيور على القرآن الكريم - الذي لا يؤمن به - وحزين لعدم فهم الناس له لأنه باللغة العربية الفصحى.

= لقد امتهنت اللغة العربية وصارت غريبة في عقر دارها! إن لغتنا العربية وعاء الحضارة والعلوم الإسلامية، ومن العجب أن تجد من أعلامها وروادها الأوائل أعاجم كان لهم دور بارز في تأصيل قواعد اللغة والنحو، ومن ينسى فضل سيبويه وهو فارسي وأبي علي الفارسي والزمخشري والخوارزمي وغيرهم الكثير والكثير من الأعلام الأفاضال الذين علّموا العربية لأهلها من خلال تأصيل قواعدها؟ وهذا إنما يدل على سهولة هذه اللغة الخالدة وخفتها وجريانها على الألسنة. إننا جميعاً مطالبون بالمحافظة على لغتنا رمز تواصلنا وحضارتنا ووحدتنا الفكرية واللغوية ومطالبون بأن نعيد لها هيبتها وكرامتها، وبأن نصونها من التشويه والركاكة والعجمة.

نداء من القلب:

أما الوقفة الثانية فهي نداء من القلب إلى حملة الرسالة المحمدية من الدعاة المخلصين والعلماء الأجلاء، أقول لهم: إن مسؤوليتكم جسيمة، ومهمتكم عظيمة في نشر رسالة الإسلام السمحة في شتى بقاع الأرض.

إن تبليغ تلك الرسالة وإيضاحها وتبيينها للناس، فرض كفاية على علماء الأمة ودعاتها، وليس أمراً اختيارياً لأن رسالة محمد - ﷺ - رسالة عالمية لكل الناس، والمسؤولية يوم القيامة في رقابكم أنتم إن لم تبلغوا رسالة إسلامكم.

لقد انتقل محمد ﷺ إلى الرفيق الأعلى بعد أن بلغ رسالته وأدى أمانته على الوجه الأكمل، وما زالت قوافل الدعاة والمصلحين والعلماء تتواصل وتتلاحق في سبيل نشر هدي الإسلام. فيا علماء عصرنا، ويا دعاة زماننا كونوا خير خلف لخير سلف، سيروا على نهج نبيكم ﷺ، لا تهادنوا، ولا تماثلوا ولا تجاملوا ذوي جاه، انشروا رسالة محمد ﷺ دون تعصب أو تطرف، وبنوا وسطية دينكم واعتداله، وكونوا خير سفراء للإسلام وإياكم والتناقض فيما بينكم، وإياكم والتملق، وإياكم والجبن في إعلاء كلمة الله تعالى، ورفع راية التوحيد.

أما الوقفة الثالثة قبل الأخيرة فهي دعوة إلى الاهتمام بالترجمة، لأنها من السبل الفعالة في نشر الإسلام وتعاليمه، وهنا العيب لا يقع على العرب وحدهم بل على الأمة الإسلامية بأسرها، فالترجمة حلقة التواصل بين الشعوب. ولو قامت كل دولة إسلامية بترجمة ما عرفته وتعلمته من أمور دينها إلى بعض اللغات الأخرى التي يتقنها أبناءنا لانتشر التعريف بالإسلام. =

الإرسال والبعث:

تبدأ الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا﴾ وهنا نقف متأملين ونسأل: لماذا أوثرت مادة الإرسال على مادة البعث، أي لماذا لم يُقَلْ مثلاً: (وما بعثنا)؟

والحقيقة أن كل التفاسير التي عدت إليها، والمعاجم اللغوية التي قرأتها لا تكاد تفرق بين المادتين، بل يفسرون إحدى المادتين بالأخرى!! كما لم يُثَر أحد من المفسرين القدامى أو الجدد هذا السؤال أصلاً!!

ولا بد من وجود فرق بين الإرسال والبعث بدليل استخدام لغة القرآن الكريم لكلا المادتين، ولو لم يكن هناك فرق في المعنى بينهما لاستخدم القرآن الكريم مادة واحدة منهما فقط.

ومن شواهد استخدام مادة الإرسال قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]. وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [سبأ: ٣٤].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ [نوح: ١].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الفتح: ٨].

= أما الوقفة الأخيرة فهي موجهة إلى إعلامنا الإسلامي الذي يقع عليه العبء الأكبر في نشر نور الإسلام - نظراً للأهمية العظمى للإعلام - وعليه فيجب أن يكون إعلامنا إعلاماً نظيفاً هادفاً يتحمل مسؤوليته الدينية والأخلاقية في التعريف بالدين.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [غافر: ٢٣].

ومن شواهد مادة «بعث» قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة: ٢].

وقوله تعالى: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِى سَوَاءَ أَخِيهِ﴾ [المائدة: ٣١].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [النحل: ٨٩].
فلو كان هناك ترادف في اللغة، فلم استعملت لغة القرآن الإرسال في مواضع، والبعث في مواطن أخر؟

الحقيقة أنني بعد تفكير عميق، وجهد مضن، وتفتيش في أمهات المعاجم اللغوية اهتديت بفضل الله تعالى إلى أن مادة الإرسال تدور حول اليسر والسهولة والرفق والتؤدة، يقال: ناقة رِسْلة، أي سهلة السير، وإبل مراسيل أي منبعثة انبعاثاً سهلاً، ويقال: على رسلك إذا أمرت مخاطبك بالرفق. أما مادة البعث فتدور حول الإثارة والتهميج والإيقاظ، يقال: بعثت البعير، إذا أثرته وسيرته، وبعث الموتى إيقاظهم وإخراجهم وتسييرهم إلى القيامة، قال تعالى: ﴿وَالْمَوْتُ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ٣٦].

ومن خلال الموازنة بين أصل المادتين كما رأيت تجد أن الملائم لمقام الآية هو مادة الإرسال، فإرسال الرسل عليه السلام إلى أقوامهم بلغاتهم فيه تخفيف وتيسير على أقوام الرسل حتى لا يجدوا مشقة ولا عتاً في فهم الرسائل التي بلغت إليهم، وهذا المعنى يتوافق مع مدلول مادة الإرسال بما فيه من تخفيف وسهولة. والله أعلم.

الرسول والنبى:

وقد تعددت أقوال العلماء^(١) في بيان تعريف الرسول والنبى، والفرق بينهما، ومن أشهر هذه التعريفات: أن الرسول هو الذي أوحى إليه بشرع أو برسالة وأمر بتبليغها، والنبى: هو الذي أوحى إليه ولم يؤمر بالبلاغ. وعلى هذا فالرسول أعم من النبى، فكل رسول نبى، وليس كل نبى رسولاً.

وهذا التعريف على الرغم من شيوعه عند العلماء إلا أنه بعيد لأسباب من أهمها:

أن ترك البلاغ كتمان لوحى الله تعالى، وما الفائدة في أن يرسل الله تعالى نبياً ليكتم وحيه، ويبقى في صدره إلى أن يموت، وينتهي هذا الوحي بموت النبى؟ وماذا استفاد الناس الذين بعث فيهم ذاك النبى عندئذ؟

وهل يعقل أن يرسل الله وحيه إلى رجل واحد فقط ولا يؤمر بتبليغه؟

والأمر الثانى الذى ينقض هذا الرأى الشائع قول النبى ﷺ: «عرضت على الأمم فرأيت النبى ومعه الرهط، والنبى ومعه الرجل والرجلان، والنبى وليس معه أحد..»^(٢) فهذا دليل دامغ على أن الأنبياء مأمورون بالبلاغ كالرسل.

(١) انظر مثلاً: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي - ١٢/ ٥٤. مجموع فتاوى ابن تيمية ١٠/ ٢٩٠.

(٢) حديث ابن عباس رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «عرضت على الأمم. فرأيت النبى ومعه الرهط. والنبى ومعه الرجل والرجلان. والنبى ليس معه أحد. إذ رفع لي سواد عظيم، فظننت أنهم أمتي، فقيل لي: هذا موسى عليه السلام وقومه، ولكن انظر إلى الأفق، فظنرت، فإذا سواد عظيم. فقيل لي: انظر إلى الأفق الآخر فإذا سواد عظيم، فقيل لي: هذه أمتك ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب». أخرجه البخارى في صحيحه: كتاب الطب، باب =

ومن أقوى الأقوال قبولاً إلى نفسي في الفرق بين الرسول والنبى قول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «فالنبى هو الذى ينبئه الله، وهو ينبئ بما نبأه الله، فإن أرسل مع ذلك إلى من خالف أمر الله ليبلغه رسالة من الله إليه فهو رسول، وأما إذا كان يعمل بالشرعة قبله ولم يرسل هو إلى أحد يبلغه عن الله رسالة فهو نبى وليس برسول، فقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى﴾ [الحج: ٥٢] دليل على أن النبى مرسل، ولا يسمى رسولاً عند الإطلاق، لأنه لم يرسل إلى قوم بما لا يعرفونه بل كان يأمر المؤمنين بما يعرفونه»^(١).

ويكاد يتفق الشنقيطي رحمه الله مع رأى ابن تيمية السابق، وإليك نص كلامه: «وآية الحج - يعنى قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى﴾ [الحج: ٥٢] - تبين أن ما اشتهر على ألسنة أهل العلم من أن النبى هو من أوحى إليه وحي ولم يؤمر بتبليغه، وأن الرسول هو النبى الذى أوحى إليه، وأمر بتبليغ ما أوحى إليه، غير صحيح، لأن قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ يدل على أن كلا منهما مرسل وأنها مع ذلك بينهما تغاير.

واستظهر بعضهم أن النبى الذى هو رسول أنزل إليه كتاب وشرع مستقل مع المعجزة التى تثبت بها نبوته، وأن النبى المرسل هو من لم ينزل عليه كتاب، وإنما أوحى إليه أن يدعو الناس إلى شريعة رسول قبله كأنباء بني إسرائيل الذين كانوا يرسلون ويؤمرون بالعمل بما فى التوراة»^(٢).

= من اكتوى أو كوى غيره، حديث (٥٧٠٥)، ومسلم فى صحيحه: كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب، حديث (٢٢٠).

(١) النبوات ص ١٨٤، ١٨٥.

(٢) تفسير الشنقيطي ٧٣٥/٥.

ويفهم من النصين السابقين أن الفرق بين الرسول والنبي في الرسالة، فمن أوحى إليه بشريعة مستقلة فهو رسول، ومن كان تابعاً لشرع من قبله ومقرراً له فهو نبي.

وهذا الرأي المختار عندي، وهو رأي البيضاوي أيضاً في تفسيره حيث قال: «الرسول من بعثه الله بشريعة مجددة يدعو الناس إليها، والنبي يعمّه، ومن بعثه لتقرير شرع سابق كأنبيا بني إسرائيل الذين كانوا بين موسى وعيسى عليهم السلام»^(١).

والمقصود باللسان في قوله تعالى: ﴿بِلِسَانٍ قَوِّمِهِ﴾ اللغة أي: بلغة قومه. وليس المقصود العضو المعروف باللسان، لأنه يوجد عند الأبكم ولا يبين مقصوده، وعليه ففي التعبير عن اللغة أو البيان باللسان مجاز مرسل علاقته الآلية، وبلاغة المجاز هنا تبدو في أن اللسان آلة حسية يدركها كل إنسان يوجه إليه الخطاب.

منهج القرآن الكريم في استخدام كلمة (اللسان):

وقد تتبعت كلمة «اللسان» في القرآن الكريم فوجدت أنه يراد بها غالباً اللغة أو البيان وأحياناً السيرة الحسنة والذكر الحسن، ومن شواهد قوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام: ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنْ أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ [القصص: ٣٤]. فليس المقصود باللسان الفصيح هو ذلك العضو المعروف بل البيان المؤلف الذي يعين على التصديق.

وقوله: ﴿هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي﴾ أي: أظهر منطقاً وأوضح بياناً، وأبين قولاً.

وقوله تعالى: ﴿وَأَحْلَلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي * يَقْفَهُوا قَوْلِي﴾ [طه: ٢٧-٢٨] فليس المقصود

(١) تفسير البيضاوي المسمى بأنوار التنزيل وأسرار التأويل لعبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي ٩٢/٢، للاستزادة راجع السلسلة الصحيحة للألباني ٣٦٤/٦.

أن لسانه الذي في فمه به عقدة، بل المراد أن العقدة في بيانه. وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ﴾ [مريم: ٩٧] يعني أنه أطلق اللسان وأراد اللغة والبيان.

وقوله تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥] المقصود به اللغة والبيان العربي.

وفي قوله تعالى: ﴿وَأَخْلَفْتُ الْأَسِنَّةَ لَكُمْ وَالْوَيْكُمُ﴾ [الروم: ٢٢] يقصد بالأسنة اللغات، وفي قوله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَأَجْعَلْ لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤] المقصود من اللسان السيرة الحسنة والذكرى العطرة، بدليل قوله: «في الآخرين»، وهم من يأتون بعده. إذن لا وجه لأن يبقى اللسان بمعنى العضو المعروف في الآيات السابقة.

ونعود إلى تأمل صياغة الآية الكريمة حيث أكدت حقيقة إرسال الله تعالى رسله عليهم السلام بلغات أقوامهم بصياغتها في أسلوب قصر، وأوثر النفي والاستثناء وهو أقوى طرقها لمزيد من التوكيد.

والقصر في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ﴾ حقيقي، لأن النفي عام تحقيقي، لمطابقته الواقع الخارجي. وذكر ﴿مِنْ﴾ في قوله: ﴿مِنْ رَّسُولٍ﴾ لتأكيد عراقة النفي وعمومه لكل زمن من الأزمان.

والتعبير بنون العظمة في ﴿أَرْسَلْنَا﴾ لتفخيم الإرسال.

والباء في ﴿بِلِسَانٍ﴾ للملابسة أي: متلبساً بلسان قومه، أي: متكلماً بلغة من أرسل إليهم. والقوم: مشتقة من القيام، وهم الذين يقومون للحرب، ومن هنا فإنها تطلق على جماعة الرجال في الأصل دون النساء، وعلى هذا جاء قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرُونَ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءِ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ﴾

[الحجرات: ١١]، وقول الشاعر:

ولست أدري ولا أخال لا أدري أقوم آل حصن أم نساء
ولكن يمكن أن تدخل (النساء) في القوم عن طريق التبعية.
وقوم كل رسول: أمته المبعوث إليهم أو فيهم.

ويبين سبحانه وتعالى علة إرسال كل رسول بلسان قومه بقوله تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ
لَهُمْ﴾ أي: ليبين ذلك الرسول لأولئك القوم الذين أرسل إليهم ما كلفوا به من أوامر
ونواهٍ فيفهموها ويتلقوها منه بسهولة وسرعة.

وقد بينت سابقاً أسباب نزول القرآن الكريم بلغة العرب، وسبب اختيار الأمة
العربية لتلقي الكتاب المبين. واللام في ﴿لِيُبَيِّنَ﴾ للتعليل.

وفي التعليل إشارة إلى سر إثارة لسان العرب لنزول القرآن الكريم به، لأن المقصود
من التشريع البيان، وأقرب اللغات إلى التبيين من بين لغات الأمم المرسل إليهم هي اللغة
التي نزل بها القرآن الكريم، لأنها أصلح اللغات جَمَعَ معاني، وكثرة ألفاظ، ودقة تصوير،
وسهولة جري على الألسن، وسرعة حفظ، وشدة تأثير، وجمال وقع في الأسماع^(١).

الإضلال والهداية:

وقوله سبحانه: ﴿فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ احتج به الأشاعرة
على أن الله تعالى خالق الخير والشر، وأن الهداية والضلال من الله تعالى واستدل المعتزلة
بذكر صفة الحكمة في ختام الآية في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ على أن
الله تعالى لا يخلق الشر أو الكفر والقبائح؛ لأن الحكمة الإلهية تنافي ذلك. وتلك مسألة
عقديّة قديمة احتدم فيها الخلاف بين المعتزلة والأشاعرة، وليس هنا مجال تفصيلها^(٢).

(١) انظر: التحرير والتنوير م ٧، ج ١٣ / ١٨٧.

(٢) راجع في هذه القضية: مفاتيح الغيب (التفسير الكبير) للفخر الرازي ٩ / ٢٨٣ - ٢٨٥ - طبعة: =

ونشير فقط إلى أننا نعتقد معتقد أهل السنة والجماعة في أن الله تعالى خلق الشر والخير والضر والنفع.

ومعنى قوله: ﴿فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: يضل الله من يعلم أنه لا يؤمن، أو يخلق فيه الضلال لوجود أسبابه المؤدية إليه فيه.

وقيل: يخذله فلا يلطف به لما يعلم أنه لا يجدي معه الإلطف، ويهدي سبحانه من يعلم أنه يؤمن، أو يخلق الهداية أو يمنح الألفاف لمن يشاء هدايته؛ لما فيه من الأسباب المؤدية إلى ذلك.

فالمراد بالاضلال إجمالاً: التخلية ومنع الإلطف، وبالهداية التوفيق واللطف، وهما كنياتان عن موصوفين هما الكفر والإيمان^(١).

والفاء في ﴿فَيُضِلُّ﴾ إما أن تكون فاء الفصيحة، وهي التي تدخل على جملة مسببة عن جملة غير مذكورة نحو قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ﴾ [البقرة: ٦٠] أي: ضرب فانفجرت، والتقدير: فبينوه لهم فأضل الله تعالى من شاء إضلاله وهدى من شاء هدايته. والحذف؛ للإيدان بأن مسارعة كل رسول إلى ما أمر به، وجريان كل من الفعلين على سنته أمر محقق غني عن الذكر والبيان.

ويمكن أن تكون الفاء تفصيلية، والتقدير: أرسلنا الكتاب للتبيين، فمنهم من نفعناه بذلك البيان، ومنهم من جعلناه حجة عليه.

والالتفات من المتكلم إلى الغيبة بإسناد الفعلين «يضل ويهدي» إلى الاسم الجليل، لتفخيم شأنهما.

= دار الغد العربي - ط: دار الكتب العلمية - طهران - ٢، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م، واللباب في علوم الكتاب ١١ / ٣٣٧ - ٣٤٠.

(١) انظر: الكشف ٢ / ٢٩٣، وروح المعاني ١٣ / ١٨٦.

والعدول عن الماضي إلى المضارع في الفعلين السابقين؛ لاستحضار الصورة الماضية، أو للإشارة إلى تجدد الضلال والهداية منه سبحانه حسب تجدد البلاغ والبيان من الرسل عليهم السلام.

وقدم الإضلال على الهداية؛ للإشارة إلى أن مهمة كل رسول تنتهي عند البيان، وأما ما يترتب على ذلك من الهداية والضلال فلا قدرة له عليه، وليس خاضعاً لإرادته ورغبته، إنما يخضع لإرادة الله تعالى وسلطانه ومشئته المطلقة، فهو سبحانه المصل الهادي حقيقة، أما الرسل «فهم مبينون ملزمون للحجة تمييزاً للضلال من المهتدي»^(١).

وختمت الآية الكريمة بقوله: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي: هو وحده الذي لا ينازعه أحد في مشيئته فيضل من يشاء إضلاله، ويهدي من يشاء هدايته، وهذا المعنى بما فيه من الغلبة والإرادة المطلقة تناسبه صفة العزة، أما ذكر صفة الحكمة في الآية الكريمة فللإشارة إلى أن ما يريده سبحانه من الإضلال والهداية لا يكون إلا عن حكمة بالغة وتدبير محكم.

الصَّبَارُ الشُّكُورُ:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ * وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُدَّبُّوهُنَّ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ فِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿[إبراهيم: ٥-٦].

لما بين سبحانه أن المقصود من بعثة نبينا محمد ﷺ هو إخراج الناس من ظلمات

(١) نظم الدرر للبقاعي ٤/ ١٦٨.

الكفر والضلال إلى نور الهداية والرشاد أراد سبحانه وتعالى أن يبين أن الغرض العام من إرسال جميع الرسل والأنبياء لم يكن إلا ذلك، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ وفي هذا أيضاً تفصيل ما أجمل في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤].

وخص موسى عليه السلام؛ لأن «أتمه أكثر الأمم المتقدمة على هذه الأمة المحمدية»^(١)، وقيل: ابتداء بذكر موسى عليه السلام لأن كتابه الذي أنزل إليه أجل كتاب بعد القرآن هدى للناس، وتسلياً للنبي ﷺ وتثبيتاً وتصبيراً على أذى قومه^(٢). وأرى أن السياق والمقام ليس فيهما إشارة إلى تلك التسليّة، كما صرح البقاعي صاحب الرأي السابق. وأكد الإرسال باللام وقد، ف قيل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾. والتعبير بنون العظمة في ﴿أَرْسَلْنَا﴾ و﴿بِآيَاتِنَا﴾ للتفخيم والتعظيم.

والباء للملابسة، أي متلبساً بها. وقيل: إن الباء للمصاحبة، والتقدير: مصحوباً بآياتنا ومعززاً بها^(٣).

وأحسب أن اعتبار الباء للملابسة أقوى في الدلالة على ارتباط هذه الآيات بموسى عليه السلام وجريانها على يديه. والله أعلم.

قوم موسى:

والمراد بالآيات المعجزات الدالة على صدق موسى عليه السلام وهي: الأخذ

(١) فتح القدير للشوكاني ٩٨/٣.

(٢) انظر: نظم الدرر للبقاعي ١٧٠/٤.

(٣) انظر: التحرير والتنوير ١٨٩/١٣، وإعراب القرآن وبيانه لمحيي الدين الدرويش ١٢٧/٤.

بالسنين والنقص من الثمرات والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والعصا واليد وفلق البحر وانفجار العيون من الحجر وإزالة الجبل وإنزال المن والسلوى^(١). وقيل المراد بالآيات التوراة.

و﴿أَنْتَ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَنْتَ أَخْرِجْ﴾ تفسير بمعنى «أي»؛ لأن الإرسال فيه معنى القول كأنه قيل: أرسلناه وقلنا له أخرج^(٢) على غرار قوله تعالى: ﴿وَأَنْطَلَقْنَا لَمَلَأْ مِنْهُمْ أَنْ آمَشُوا﴾ [ص: ٦]^(٣).

ولنا وقفة أمام قوله تعالى: ﴿أَنْتَ أَخْرِجْ قَوْمَكَ﴾ فالتبادر إلى الذهن أن المراد بقومه بنو إسرائيل، ولكن موسى عليه السلام لم يرسل إليهم وحدهم وإنما أرسل إلى أهل مصر جميعاً بمن فيهم بنو إسرائيل قومه، والدليل على ذلك قوله تعالى في أمر موسى وهارون: ﴿أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ۖ فَقُولَا لَهُ، قَوْلًا لِّئَلَّا نَعْلَهُ، يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٣-٤٤] فهذا دليل على أن موسى عليه السلام أرسل إلى أهل مصر كلها وفيهم فرعون لابني إسرائيل وحدهم. وإنما خص قومه بإرساله إليهم؛ لأنهم هم الذين لازموا، ولأن فضائل الرسالة عادت عليهم بالنعمة والإنقاذ ابتداءً، وإن كانت الهداية للجميع كانت هي المقصد في نهاية الرسالة وغايتها^(٤).

والمراد من قوله ﴿مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: من ظلمات الشرك والجهالة التي كان فيها

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٩ / ٣٤١.

(٢) وجوزوا أن تكون أن الناصبة على غرار قوله تعالى: ﴿وَأَنْطَلَقْنَا لَمَلَأْ مِنْهُمْ أَنْ آمَشُوا﴾ [ص: ٦].

(٣) وجوزوا أن تكون (أن) الناصبة للفعل المضارع المصدرية، وإنما صلح أن توصل بالفعل الأمر لأن الغرض وصلها بما تكون معه في تأويل المصدر وهو الفعل، والأمر وغيره سواء في الفعلية وتكون مع مدخولها منصوبة بنزع الخافض والتقدير: بأن أخرج قومك. الكشف ٢ / ٢٩٤.

(٤) انظر: زهرة التفاسير ٨ / ٣٩٩٠.

بنو إسرائيل، والتي أوصلتهم إلى أن يقولوا: ﴿يَمُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨] عندما رأوا قوماً يعكفون على أصنام لهم بعد نجاتهم من فرعون، ومهلكه.

والمراد من قوله: ﴿إِلَى التَّوْرِ﴾ نور التوحيد والهداية والإيمان بالله تعالى والامتثال إلى كل ما أمروا به، ففي اللفظين استعارتان تصرّحيتان.

أيام الله:

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ ثلاثة أقوال:

أولها: وهو قول ابن عباس: بنعمائه وبلائه. والمعنى: ذكرهم بنعم الله تعالى عليهم من إنجائهم من فرعون وتظليل الغمام وإنزال المن والسلوى، وببلائه: أي بالأيام التي كانوا فيها تحت سطوة فرعون وتسخيره، أي بما كان في أيام الله من النعمة والمحنة^(١).

ثانيها: الوقائع التي وقعت على الأمم قبلهم مثل قوم نوح وعاد وثمود^(٢)، والمعنى: أنذرهم بمهلك من سبقهم من الأمم الخالية.

ثالثها: تفسير الأيام بالانتصارات كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، ومن ثم كانوا يقولون: (أيام العرب في الجاهلية والإسلام) يريدون بذلك حروبهم التي انتصروا فيها.

أما النقم والمصائب فالقرآن يعبر عنها بالسنين نحو قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقَّصْنَا مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٠] يريد سنين القحط والجذب، فإذا كان الخير والرخاء عبر القرآن بالعام كما قال سبحانه: ﴿ثُمَّ

(١) ينظر: جامع البيان للطبري ١٣/ ١٢٢.

(٢) الكشف ٢/ ٢٩٤.

يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصُرُونَ ﴿٤٩﴾ [يوسف: ٤٩]، فأيام الله هي التي تجلّ فيها على عباده بالنصر والتأييد لهم على أعدائهم.

والأرجح عندي - والله أعلم - الرأي الأول، يؤكد ذلك ما تصدى له الرسول ﷺ من التذكير بكل من السراء والضراء مما جرى عليهم وعلى غيرهم، والمعنى بناء عليه: ذكّرهم وعظّمهم بنعم الله تعالى وبلائه عليهم وعلى من سبقهم من الأمم، أي: عظّمهم بما فيه الترغيب والترهيب، والوعد والوعيد^(١). والله أعلم.

وأيام الله تعالى في حق قوم موسى عليه السلام منها: ما أيام محنة وشدة وبلاء، وهي الأيام كانوا فيها تحت سطوة فرعون وبطشه وقهره.

ومنها: ما كانت راحة ونعمة ورخاء كأيام إهلاك فرعون، وإنزال المن والسلوى وفلق البحر وتظليل الغمام.

وعبر عنها بالأيام؛ لقلتها، ومن ثم كان يقول الناس: (كانت لنا أيام).

وفي الآية الكريمة التفات من المتكلم في ﴿أَرْسَلْنَا﴾ و﴿بَنَيْنَا﴾ إلى الغائب في ﴿بِأَيِّسِمِ اللَّهِ﴾ حيث كان الظاهر أن يقال: وذكرهم بآياتي.

وفي الالتفات إيدان بفخامة شأن الأيام، والإشعار بعدم اختصاص ما فيها من المعاملة بموسى عليه السلام وقومه كما توهمه الإضافة إلى ضمير المتكلم في قوله: ﴿أَنْتَ أَخْرِجْ قَوْمَكَ﴾^(٢).

(١) يراجع: إرشاد العقل السليم ٣٣/٥، ويراجع في تفسير قوله تعالى: ﴿أَيَّامَ اللَّهِ﴾ وترجيح ما اخترناه كتاب اللباب في علوم الكتاب ١١/٣٤٠-٣٤١، وزهرة التفاسير للإمام محمد أبي زهرة ٨/٣٩٩٠-٣٩٩١، وإعراب القرآن وبيانه لمحيي الدين الدرويش ٤/١٢٨.

(٢) انظر: إرشاد العقل السليم ٣٣/٥.

واكتفى بذكر الأيام عن النعمة والمحنة ووقائع الله تعالى في الأمم السالفة؛ لأنها كانت معلومة عند بني إسرائيل، وفي هذا إيجاز تطلبه علم السامع بالمراد.

والواقع أن الأيام كلها أيام الله، ولكن المقصود هنا تذكيرهم بالأيام التي يظهر فيها للناس أو لجماعة منهم أمر بارز أو خارق بالنعمة والنعمة، والعرب يعبرون عن الشدة باليوم، فيذكرون الحدث وينسبونه إلى زمانه، كقولهم: «نهاره صائم، وليله قائم، ومكر الليل»، وهذا من باب المجاز العقلي بعلاقته الزمانية.

الموعظة الحسنة:

ويستدل من الآية الكريمة على استحباب الوعظ بالحسن المرقق للقلوب، الخالص من كل بدعة، والمنزه عن كل شبهة. وكم نرى من دعاة لا يحسنون توصيل دعوتهم إلى الناس؛ لأنهم لا يملكون وسائل التأثير المناسبة لاجتذاب القلوب، ولا أساليب التوصيل المؤدية إلى اتعاظ النفوس، بل إنك ترى بعضهم يلتزمون أسلوب التهيب غالباً أو دائماً، والله عز وجل عندما أمر كليمة موسى عليه السلام وأخاه هارون عليهما السلام بتبليغ فرعون دعوة التوحيد قال لهما: ﴿أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ۖ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئَلَّا نَعْلَهُ، يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٣-٤٤].

تأمل كيف ذكر الله تعالى لهما طغيان فرعون، وعلى الرغم من ذلك أمرهما بأن يقولوا له قولاً لئلا نعرفه!!

دخل رجل على المأمون يعظه، فأغلظ له القول، فقال المأمون معاتباً: لقد أمر الله موسى وهو خير منك أن يذهب إلى فرعون وهو شر مني يدعوه ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئَلَّا نَعْلَهُ، يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾^(١)، فانقلب الواعظ موعوظاً والموعوظ واعظاً.

(١) تراجع القصة في كتاب (إحياء علوم الدين - كتاب: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - باب: آداب المحتسب) ٢/ ٤٥٥ طبعة دار الفجر للتراث، القاهرة.

فالتلطف في الدعوة من أقوى الأساليب لإنجاحها، وهكذا كان أسلوب رسول الله ﷺ والمصلحين من أصحابه والدعاة إلى يومنا هذا، فالله مدح نبيه ﷺ بالرحمة والطف واللين، فقال سبحانه: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَأْتِ بِدَلِيلٍ لَأَنفَضُنَّ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، فعلى الدعاة الكرام ألا يقتصروا على أسلوب واحد، وألا يجنحوا إلى طريقة بعينها في الدعوة حتى لا يملهم الناس، ولثلا يفقدوا التأثير فيهم.

عالمية الإسلام:

ودع عنك هذا، وعد معي سريعاً إلى الآية الكريمة حيث تجد تشابهاً في نسق التعبير بين صيغة الأمر الإلهي الصادرة لرسولنا محمد ﷺ وبين صيغة الأمر الإلهي الصادرة لموسى عليه السلام ففي الآية الأولى خوطب النبي محمد ﷺ بقول ربه: ﴿لَنُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾، وفي الآية الخامسة خوطب موسى عليه السلام بقوله تعالى: ﴿أَنْ أَخْرِجَ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾، فالأمر الإلهي الواقع بإخراج الناس كلهم من الظلمات إلى النور دليل - كما قلنا من قبل - على عالمية الرسالة المحمدية.

والأمر في الموضع الثاني لإخراج قوم موسى من الظلمات إلى النور، وهذا دليل على خصوصية الدعوة، ولكن تبقى غاية الرسالات كلها واحدة وهي إخراج الناس من برائن الشرك والكفر والجهل والضلال إلى نور التوحيد والإيمان والهدى؛ لذا تكرر قوله تعالى: ﴿مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ تأكيداً على هذا المعنى.

وفي الآية الأولى ذكر القيد: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ بعد أن أسند الإخراج من الظلمات إلى النور إلى الرسول ﷺ، ولم يذكر هذا في خطاب موسى عليه السلام اكتفاء بما ذكر في الآية الأولى، بيان ذلك أنه إذا كان النبي ﷺ لا يملك هداية قلوب الناس وهو خير

خلق الله تعالى قاطبة، وخيرة رسله الكرام عليهم السلام، فمن باب أولى ألا يملكها موسى عليه السلام؛ لذا لم يذكر قوله تعالى: ﴿يَا ذِينَ رَبِّهِمْ﴾ في الموضع الثاني. والله أعلم.

والمراد باسم الإشارة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾، «التذكير بآيات الله وأيامه أو التذكير بنعمه وبلائه أو بمجموع الأمرين»^(١).

ومعنى قوله: ﴿لَا يَنْتَ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي: في التذكير بما ذكر لدلالات عظيمة دالة على التوحيد وكمال القدرة الإلهية لكل صَبَّارٍ في الضراء والعسر والضيق، شَكُورٍ على السراء والنعمة وأيام الرخاء.

وخص الصَبَّارَ الشكور بالذكر؛ لأن فائدة الانتفاع بالتذكير بما ذكر من آيات الله ونعمه وبلائه إنما تعود على من اتصفوا بهذين الوصفين أكثر من غيرهما.

وُحِصَّ هذان الوصفان أيضاً؛ للإشارة إلى أنها ملاك الإيمان وعنوان المؤمن الدال على ما في باطنه.

وقدم الصَبَّارَ على الشكور، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾؛ لكون الشكر عاقبة الصبر، ولأن الصبر مفتاح الفرج المقتضي للشكر^(٢).

أنواع الصابرين على بلاء الله تعالى:

وقيل: الصابرون على بلاء الله ثلاثة أنواع: متصبر، وصابر، وصَبَّار.

(١) ومعنى كون التذكير ظرفاً لأيام الله تعالى أو في الأيام نفسها كونه مناطاً لظهورها، كما قال الآلوسي.

انظر: روح المعاني ١٣/ ١٨٨.

(٢) انظر: فتح القدير ٣/ ٩٨، وروح المعاني ١٣/ ١٨٣-١٨٤.

ومن الفروق اللغوية بين تلك الألفاظ:

أن (المتصبر) يطلق على من يتكلف الصبر.

و(الصبور) للقوي على الصبر.

و(الصابر) للمتلبس بالصبر.

التعبير بصيغتي المبالغة «فَعَّالٌ وفَعُولٌ»:

وفي التعبير بصيغتي المبالغة «فَعَّالٌ وفَعُولٌ» في قوله تعالى: ﴿صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ إشارة إلى أن سته سبحانه جرت بأنه إنما ينصر أوليائه بعد طول الامتحان بعظيم البلاء؛ ليتبين الصادق من الكاذب، وذلك أنه لا شيء أشق على النفوس من مفارقة المألوف لاسيما أن كان ديناً درج عليه الأسلاف^(١).

وقد دلت صيغة فَعَّالٌ في (صَبَّارٍ) على تكرار الفعل أي الصبر، وعلى هذا جاءت المهن، فقيل: نَجَّارٌ وحدَّادٌ ونَحَّاسٌ؛ لتكرر الأفعال فيها يومياً.

أما صيغة فَعُولٌ في (شكور) فتفيد القوة على الفعل أي الشكر. والله أعلم

والشكر ثلاثة أضرب: شكر اللسان، وشكر القلب، وشكر الجوارح، والمتصفون بالشكر على الوجه الأكمل قليل، لذلك قال سبحانه: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣] ولم يصف الله تعالى أحداً من رسله وأنبيائه الكرام بالشكر إلا نوحاً عليه السلام حيث قال سبحانه فيه ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ وإبراهيم عليه السلام حيث وصفه بقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ أَجْبَنَهُ وَهَدَّاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ١٢٠-١٢١]. وإن كان الأنبياء بالضرورة

شاكرين - ولنعد إلى قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي: لكل كثير الصبر على امتحان الله له وبلائه ولكل كثير الشكر لنعمه سبحانه.

والوصفان بناء على هذا المعنى لموصوفين. وقيل: المراد أن في ذلك لآيات لكل مؤمن كثير الصبر، كثير الشكر، وعليه فالجملة كناية عن موصوف وهو المؤمن. ولتحقيق المعنى في الجملة السابقة كان التأكيد بـ«إن» و«اللام».

سر ترادف الصفتين ﴿صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ من غير الواو:

وجاء ترادف الصفتين ﴿صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ من غير الواو، حيث لم يقل: لكل صبار وشكور، للإشارة إلى اجتماع هاتين الصفتين في كل مؤمن يتنفع بالتذكير بآيات الله ونعمه وبلائه، وكأنهما صفة واحدة. تأمل تتابع الصفات وترادفها في آية أخرى في قوله تعالى: ﴿التَّائِبُونَ الْعَمِيدُونَ الْحَمِيدُونَ الْمُخْلِصُونَ الْمَحْفُوظُونَ الْإِحْسَانُونَ﴾ [التوبة: ١١٢] فسقوط الواو من بين الصفات الخمس الأولى إشارة إلى أنها أي تلك الصفات مجتمعة فيهم وكأنها صفة واحدة، أي للإشارة إلى أنهم كاملون في كل صفة منها على حدة، كما أن المسوغ للعطف بين قوله تعالى: ﴿الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّكَاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَبِشْرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ هو التضاد بين الصفتين؛ لذا وجب فيها العطف بالواو الذي يقتضي المغايرة^(١).

ما ذكرته لك الآن هو بيان للمعنى عند ترادف الصفات من دون العطف بالواو، وعند إثباتها فتأمل ذلك.

(١) راجع: الكشف ١/ ٢٦٣، ودلالات التراكيب، للدكتور محمد أبو موسى ص ٢٨١.

ابتلاء عظيم:

وتبين الآية الثانية امثال موسى عليه السلام لأمر ربه حيث أخذ يذكر قومه بنعم الله عليهم، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾.

﴿وَإِذْ﴾ ظرف منصوب على المفعولية، والتقدير: واذكر لقومك يا محمد إذ قال موسى لقومه.... يذكر موسى عليه السلام قومه بنعمة عظيمة من نعم الله عليهم وهي نعمة النجاة من بطش آل فرعون وظلمهم وطغيانهم وعتتهم فقد لاقى بنو إسرائيل أشد أنواع العذاب وأقساه على يد فرعون وآله، وموسى عليه السلام يذكر قومه بنعمة الله عليهم بخلصهم من هذا الابتلاء العظيم، ويقول لهم:

اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من فرعون وآله، فقد كانوا يسومونكم أشد العذاب، أي: يوالون به ويتابعونه فلا ينقطع عنكم، ويكلفونكم من الأعمال الشاقة ما لا تطيقون مع الاستعباد والقهر والإذلال، واذكروا إذ كانوا يذبحون أبناءكم خوفاً من ظهور ولد يطيح بملك فرعون، وكانوا يتركون نساءكم أحياء ذليلات ويذبحون أولادكم خوفاً من زيادة عددكم، وتعاضم قوتكم.

إن إنجاء الله لكم من ذلك القهر والاستعباد والذل والهوان، أو إن المحنة العظيمة والمشقة الشديدة من العذاب المتقدم، أو هما معاً، ابتلاء عظيم واختبار شديد من ربكم لكم لينظر هل تعتبرون أم لا؟ هذا هو معنى الآية الكريمة.

إن الابتلاء لا يكون بالنقمة فقط، وإنما يكون بالنعمة أو النقمة أو بهما معاً، ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿وَنَبَلَّوْكُمْ بِالْشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥] فالنعمة تحتاج إلى صبر وهي اختبار، وكذلك النقمة، والمهم أن التذكير بذلك واجب الدعاة دائماً لئلا يقنط

المبتلون بالنعمة، ولئلا يطغى المبتلون بالنعمة. إن المُبتلي هو الله تعالى، وهو سبحانه يجازي عباده الصابرين خير الجزاء.

و﴿إِذْ﴾ ظرف منصوب بفعل محذوف تقديره: اذكر إذ قال موسى... والمخاطب النبي محمد ﷺ، الذي أمر بأن يذكر لقومه شاهداً من شواهد ابتلاء المظلومين أو نعمة الله عليهم بإنقاذهم من الظالمين، فأمر ﷺ أن يحكي لقومه قول موسى عليه السلام لقومه.

وقوله المذكور لقومه كان بعد أن أنجاهم الله من فرعون وآله، وأضيفت النعمة إلى لفظ الجلالة لتفخيمها وتعظيمها، و﴿إِذْ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ ظرف للنعمة والتقدير: اذكروا إنعامه عليكم وقت إنجائكم من آل فرعون، هذا إن جُعِلَت النعمة مصدراً، أما إذا جعلت اسماً فالظرف ﴿إِذْ﴾ متعلق بمحذوف وقع حالاً، والتقدير: اذكروا نعمة الله مستقرة عليكم وقت إنجائه إياكم من آل فرعون.

ويجوز أيضاً أن يكون الظرف بدل اشتغال من قوله تعالى: ﴿نِعْمَةً اللَّهُ﴾، والتقدير: اذكروا وقت إنجائكم^(١). وعلى كل فالمراد بالنعمة الإنعام، «وعبر بالنعمة عن الإنعام حثاً على الاستدلال بالأثر على المؤثر»^(٢).

جزء الأعوان:

والمراد بآل فرعون أشياعه وأتباعه ونصراؤه ومستشاروه ومعاونوه على الشر، وقد لاحظنا أن فرعون عندما يذكر في كثير من الآيات التي تنبئ عن ظلمه وطغيانه فإنه يذكر معه ملؤه أو آله أو ما يدل على المشايعين له، إنها بطانة السوء التي تزين للحاكم

(١) انظر: الكشاف ٢ / ٢٩٤.

(٢) ((نظم الدرر ٤ / ١٧١.

الفساد، وتعينه على الظلم، وتشوه له الحقائق، وتقلب الحق باطلاً، والباطل حقاً؛ لذا فإن هؤلاء مشاركون له في الإثم، مشتركون معه يوم القيامة في العذاب.

اقرأ قول ربك: ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ * النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٥-٤٦] هذا هو جزاء الأعوان والأذناب وأصحاب الأبواق الذين يخللون الحرام، ويحرمون الحلال للحاكم، جزاؤهم ﴿أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ والعياذ بالله، فإذا كان هذا هو جزاء الآل والملا، فما بالك بجزاء فرعون؟!!

إن من توفيق الله للحاكم أن يهيئ له بطانة صالحة تبصره بالحق وتعينه على الحكم بالعدل بين الرعية، ويجب على كل حاكم أن يتخير من يساعده على ذلك.

تعذيب جسدي ونفسي:

ولنعد إلى الآية الكريمة ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ فأصل السَّوْم - كما قال الراغب الأصفهاني -: الذهاب في ابتغاء الشيء، فهو لفظ بمعنى مركب من الذهاب والابتغاء^(١)، ومن شواهد استعماله في معنى الذهاب قولهم: سامت الإبل فهي سائمة، ومن شواهد استعماله في معنى الابتغاء قوله تعالى: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أي: يغيونكم، أي: يولونكم على سبيل الاستهانة والذلة والقهر سوء العذاب.

والسوء مصدر (ساء)، والمراد به استعباد بني إسرائيل، أو استعماهم في الأعمال الشاقة التي لا يطيقونها، أو المراد به جنس العذاب الشديد من تعذيب جسدي أو نفسي أو هما معاً.

وقوله تعالى: ﴿وَيَذَّخَّرُكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾ أي: أبناءكم المولودين، فهذا لون آخر من

(١) انظر: مادة (رغب) معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم للراغب الأصفهاني.

ألوان العذاب، وإنما فعل فرعون وآله ذلك ببني إسرائيل؛ لأن فرعون رأى في المنام أو نبأه الكهنة بأنه سيولد من بني إسرائيل من يطيح بملكه، فأعملوا سيوفهم في رقاب أبناء بني إسرائيل اجتهداً منهم في عدم حصول ذلك، ولكن هيهات هيهات لهم، فهذا هو ذا موسى عليه السلام يُرى في بيت فرعون، وتحت رعايته، وأمام عينيه ويشب ويكبر حتى يدعو إلى عبادة الله الواحد الأحد.

فقد سَخَّرَ الله فرعون عدو موسى وقومه ليرعاه، ثم يكون بعد ذلك هلاكه على يد موسى بإذن الله تعالى، واقرأ قول فرعون لموسى كما حكاه القرآن: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ * وَفَعَلْتَ فَعَلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [الشعراء ١٨-١٩].

إنها عناية الله التي تحفظ عباده الصالحين، وصدق قول الشاعر:

وإذا العناية لاحظتك عيونها ثم، فالمخاوف كلهن أمان

وأومات صيغة التكثير أو التضعيف في ﴿يُذَبِّحُونَ﴾ إلى المبالغة في التذبيح والإكثار منه، وكان من الممكن أن يقال: (ويذبحون أبناءكم) بالتخفيف لولا إرادة هذا المعنى. والله أعلم بمراده.

وقال: ﴿أَبْنَاءُكُمْ﴾ ولم يقل: «أولادكم»؛ لأن لفظ الأبناء يطلق على الأولاد الذكور، أما لفظ الأولاد فيطلق على الذكور والإناث معاً، ولو قيل: (ويذبحون أولادكم) لكان مناقضاً للواقع، ولقوله بعده: ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ أي: ييقونهن في الحياة، وهذا يدل على دقة التعبير القرآني.

وعُبر عن قتل الأبناء هنا بالذبح؛ «للاشارة إلى أنهم فعلوا ذلك - أي: آل فرعون - وهم - أي بني إسرائيل - آمنون سالمون غير ثائرين ولا ناقمين، فهم في غير اندفاع

ثورة، ولكن في أمن ودعة، يأتون إلى الطفل في حجر أمه أو بين لداته ويذبحونه ذبحاً، وحسبك أن تعلم أن أم موسى رضيت - بإلهام من الله - أن تلقيه في اليم مع رجاء الله تعالى عن أن يُذبح بين يديها^(١).

وقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾، أي: يطلبون حياة نساءكم وبقاءهن، فالصيغة للطلب، وآل فرعون لم يطلبوا حياة نساء بني إسرائيل إلا ليتخذوهن إماء، وليستمتعوا بهن، وهذا عذاب نفسي ما بعده عذاب للرجال ذوي النخوة والمروءة.

استحضار الماضي:

ولنتأمل ثانية كيف عُبر عن تلك المشاهد والأحداث الماضية بصيغة المضارع في قوله: ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ و﴿يَذَبْحُونَ﴾ و﴿يَسْتَحْيُونَ﴾، فتلك الأحداث قد وقعت وانتهت بدلالة قول موسى عليه السلام ﴿أَذْكُرُوا﴾ أي: تذكروا، فمقولته أو تذكيره قومه كان - كما قلنا - بعد إنجاء الله تعالى لهم من فرعون وآله، والتعبير بالأفعال المضارعة - التي وقعت أحوالاً من قوله: ﴿عَالٍ فِرْعَوْنَ﴾ أو من ضمير المخاطبين ﴿أَنْجَحَكُمْ﴾ أو منها جميعاً - فيه استحضار للأحداث الماضية ولتلك الابتلاءات التي وقعت لبني إسرائيل وإبرازها لهم، وكأنها تحدث وقت قول موسى لهم لشناعتها ولفظاعتها وقسوتها؛ وفي هذا أيضاً تذكير لهم بالمنة الكبرى عليهم من الله تعالى بإنجائهم مما ابتلوا به، إذن في التعبير بالمضارع استجاشة لمشاعر قومه، وتحريك لدوافع شكر الله، والله أعلم.

دلالة اسم الإشارة للبعيد:

واسم الإشارة في قوله تعالى ﴿وَفِي ذَلِكَكُمْ﴾ يقصد به ألوان العذاب المتقدم في الآية، أو الإنجاء من هذا العذاب، أو هما معاً، واستخدم اسم الإشارة للبعيد للدلالة

(١) زهرة التفاسير ٨ / ٣٩٩٣.

على شدة العذاب أو عظمة الإنجاء، وأكَّد هذا بوصف البلاء بأنه عظيم، والمقصود بالبلاء أي الابتلاء والاختبار في قوله تعالى: ﴿بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ العذاب الذي لاقاه بنو إسرائيل، وبناء عليه فالابتلاء هنا ابتلاء بالمحنة، أو المقصود الإنجاء من ذلكم العذاب، أي التذكير بنعمة الأمن، وعليه فالابتلاء هو ابتلاء بالنعمة.

وقلنا من قبل: إن الابتلاء يكون بالنعمة كما يكون بالنقمة، ومن شواهد قوله تعالى: ﴿وَيَلَوْنَهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨] والمراد بالחסنات والسيئات: الرخاء والشدة، والعافية والبلاء. والأنسب لمقام الآية وصدرها المعنى الأول، أي: الإنجاء من العذاب وتذبيح الأطفال الأبناء واستحياء النساء. والله أعلم.

كيف تنسب أفعال آل فرعون الفظيعة إلى الله تعالى؟

وقد يسأل سائل فيقول: كيف تنسب أفعال آل فرعون الفظيعة إلى الله تعالى؟ والإجابة: أنه جاز هذا باعتبار أنه سبحانه خالق البلاء، فنسبته إليه سبحانه من حيث الخلق، أو باعتبار إقداره سبحانه وتمكينه فرعون وآله من قوم موسى ليفعلوا بهم ما فعلوا من صنوف العذاب والتنكيل، فكان كالصادر من الله تعالى، وقد تقاطعني وتعرض على الشق الثاني من الإجابة وتقول لي: وكيف يُحِلُّ الله تعالى آل فرعون لفعل ذلك، ولم يمنعهم - وهم أفسد أهل الأرض حينئذ - من فعل ما فعلوا بقوم موسى الذين آمنوا به؟! ولماذا لم يلطف الله ببني إسرائيل ابتداء فيمنع إلحاق ذلكم العذاب العظيم بهم؟

ابتلاء المؤمنين:

وأردُّ على سؤالك بسؤال: لماذا مكَّن الله المشركين من إيذاء النبي ﷺ وهو خير خلق الله قاطبة؟ أو لم تكسر رباعيته؟ أو لم تسلب الدماء الشريفة منه ﷺ؟ أو لم يوضع سلا الجزور فوق ظهره وهو ساجد؟ أو لم توضع الأشواك أمام بيته؟! أو لم يكذب يخنقه

أحد المشركين بثوبه حتى جاء أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وخلّصه؟! ألم يُسب؟!
ألم يعذب أصحابه في بداية الدعوة بشتى صنوف العذاب؟

ثم أسأل معك: ولماذا هذا التمكين الآن لأفسد أهل الأرض في زماننا؟ ولماذا
يخلى الله تعالى لهم ليعيشوا في الأرض فساداً، قتلاً وتذبيحاً وطرذاً وسجناً وتعذيباً لعباده
الموحدين المؤمنين!!؟

أرد على هذا كله فأقول: إن هذا من باب سُنَّةِ الله تعالى في خلقه، إنه إمهال للظالم
وليس إهمالاً له، حتى إذا أخذه أخذاً شديداً لم يفلته. وفيه أيضاً تسجيل على الظالم بأفعاله
التي يستحق عليها ما أعد له من سوء العذاب، وشدة الحساب، ومن جانب آخر فإن
إمهال الظالم أو التمكين المؤقت له فيه تمحيص لجماعة المؤمنين، وصقل لنفوس قافلة
الإيمان، وتنقية لصفوفهم من المنافقين، ليميز الله الخبيث من الطيب، وليكون
استحقاقهم الأجر العظيم على الابتلاء بالنقمة عن جدارة، والله تعالى هو القائل:
﴿الْم * أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت ١-٣].

وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ
مَسْتَهْمُؤُا أَلْبَاسًا وَأَضْرَآءَ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ ؕ إِنَّا نَنْصُرُ
اللَّهَ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]، وقال تعالى: ﴿تَتَّبَلُّوكَ فِيْ أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ
وَلَسَّمْعُكُم مِّنَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى
كَثِيراً وَإِنْ تَصَرُّوْا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦]، وقال
سبحانه: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْصَرَمَتْهُمْ وَلَكِنْ لَّبَطَلُوا بَعْضَكُمْ بَعْضٌ﴾ [محمد: ٤]، تلك إذن
حكمة الابتلاء بالنقمة، فليس الابتلاء تخلياً من الله تعالى عن أوليائه، وتمكيناً دائماً
لأعدائه، ولذلك كان من الملائم جداً ذكر وصف الربوبية في قوله تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكُمْ

بَلَاءٌ مِّن رَّيْبِكُمْ عَظِيمٌ ﴿١﴾، لأن هذا الوصف بما يدل عليه من معاني التربية والإصلاح والرعاية والعناية والتدبير يومئذ إلى تلك الحكمة، ألا وهي أن ابتلاء المؤمن خير له ^(١).

(١) وأضيف وجهاً آخر إلى حكمة ابتلاء الله المستضعفين بالظالمين، وهو وجوب السعي للخلاص من الظلم، وبذل الجهد لإزالة الظلم ورفع الضرر، والسعي لتوفير الكرامة التي جعلها الله للإنسان الذي خلقه الله وكرمه، ولنيل هذه الغاية السامية لا بد من بذل الغالي والنفس في سبيل تحقيق الحرية والرفاه، ودفع القهر والإذلال الذي قد يسعى لفرضه أعداء الإنسانية والقيم والأخلاق، فطريق الخلاص ليس مفروضاً بالورود، ولا بد من إصلاح الذات والنفس أولاً كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا يَقْوِمُ حَتَّىٰ يَغْيُرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١] وثمن الخلاص من الذل، وكسر القيود باهظ، ولم تنل أمة حريتها وكرامتها إلا بعد تضحيات جسام، ونضال طويل.

وليس من الصبر في شيء الاستسلام للذل والهوان والطغيان، ولا يرضى عاقل بالرضوخ لمن سلب أرضه وعرضه وسفك دمه وقهره؟ وأن يحتمل الهوان والنكال بزعم أن ذلك من الصبر؟! كلا إن هذا الصبر مذموم، بل لا يسمى صبراً، إنه ذل واستكانة؛ فالصبر المأجور الممدوح والمشكور هو احتمال العذاب، وتحمل المشاق بلا تضعضع، ولا هزيمة روحية، واستمرار العزم على الخلاص، والتصميم على المقاومة، والاستعداد للوقوف في وجه الظلم والطغيان إنه صبر لا يقهره سوط الجلاد، ولا يهزم إرادته معتد، والصبر المشكور على البلاء والعذاب يزيد صاحبه إرادة فولاذية وعزماً على المقاومة، ويزيد صاحبه شموخاً وعظمة وكبرياء حتى وهو في أقسى حالات العذاب البدني، فهذا العذاب إن نال من جسده فإنه أبداً لا ينال من روحه وعزيمته وتماسكه، وما مواقف بلال وسمية رضي الله عنهما وغيرهما من الصحابة الكرام إلا خير شاهد على ما نقول. وما زالت قوافل الشاخين الصابرين تتلأأ وتتواصل إلى يومنا هذا. ندعو الله أن يجعلنا من الصابرين الشاكرين.

فلا تيأسوا فالنصر قادم بإذن الله، ولا بد بعد طول الليل من انبلاج الفجر، وانبثاق النور، فالؤمن عزيز لأن عزته مستمدة من إسلامه ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُسْتَفْعِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨] وإن كان للباطل جولة فإن للحق وأهله صولات وجولات بإذن الله ﴿وَلَنَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١].

وبقي أن أشير إلى أن الابتلاء أو الاختبار من الله تعالى لعباده إنما هو لإقامة الحجة لهم أو عليهم؛ لأن هذا الابتلاء أو الكشف به لن يزيد أو يضيف إلى علمه سبحانه شيئاً؛ لأنه هو السميع البصير، العليم بخفايا النفوس ودقائق الأمور، والله أعلم بمراده والحمد لله رب العالمين.

موازنة بين آيات متشابهات:

ويبقى لي هنا بيان أوجه التشابه والاختلاف بين هذه الآية وبين آيتي البقرة والأعراف، وإليك الآيات الكريبات حسب ترتيبها المصحفي:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَاكُمْ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِّنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٤٩].

﴿وَإِذْ أَخَذْنَاكُمْ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِّنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٤١].

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَخَذْنَاكُمْ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِّنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٦].

والملاحظ في الآيات الثلاث وحدة الموضوع، وهو الامتنان على بني إسرائيل بنعمة الإنجاء من بطش آل فرعون، ولكن تطرح هنا ثلاثة تساؤلات:

أولها: لماذا قيل في البقرة بالتضعيف: ﴿أَخَذْنَاكُمْ﴾ وفي الأعراف وإبراهيم من دون تضعيف في قوله ﴿أَخَذْنَاكُمْ﴾ و﴿أَخَذْنَاكُمْ﴾؟

ثانيها: لماذا قيل في البقرة وإبراهيم ﴿يُذَبِّحُونَ﴾ وفي الأعراف ﴿يَقَتِّلُونَ﴾؟

ثالثها: لماذا قيل: ﴿يَذِبحُونَ﴾ في البقرة و﴿يَقُولُونَ﴾ في الأعراف بسقوط حرف العطف الواو، وثبوته في إبراهيم حيث قيل: ﴿وَيَذِبحُونَ﴾ على الرغم من أن القصة واحدة؟

والإجابة عن السؤال الأول: نجد أن سياق الآية في سورة البقرة سياق تعداد لنعم الله تعالى وآلائه على بني إسرائيل، حيث ذكر نجاتهم من آل فرعون، وفرق البحر بهم، ونجاتهم وهلاك فرعون وآله بالغرق، قال تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٠]، ثم ذكر سبحانه عفوهم عنهم في عبادة العجل كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ أَخَذْنَا مِنَ الْعِجْلِ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ * ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٥١-٥٢]، وذكر توبته عليهم وبعثهم من بعد موتهم عند مطلبهم الرؤية وتظليلهم بالغمام، وإنزال المن والسلوى، وهذا يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَىٰ لَنْ نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ﴾ * ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ * وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥٥-٥٧]. إذن تلحظ في البقرة تعدد التذكير بالنعم؛ ليرتدع القوم عن المخالفة والعناد، وهذا التعدد يناسبه التضعيف الدال على الكثرة. ولو قيل هنا: ﴿وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ﴾ لما أنبأ عن تلك الكثرة، ولا ناسب المقصود مما ذكر، كما كان في إثارة التضعيف في ﴿بَجَيْنَاكُمْ﴾ مناسبة، أي تشاكل لفظي مع التضعيف في قوله بعده: ﴿يَذِبحُونَ﴾، بجانب مناسبة المعنى في دلالة التضعيف في ﴿يَذِبحُونَ﴾ على التكرار والكثرة، ولو قيل هنا: ﴿أَنْجَيْنَاكُمْ﴾ لما ناسب ما بعده لفظاً. والله أعلم.

إذن نوجز لك علة التضعيف في ﴿بَجَيْنَاكُمْ﴾ في البقرة فنقول: إنه لما كان

المقصود في سورة البقرة تعداد وجوه المنّ والإنعام على قوم موسى وتواليه؛ لبيان فظاعة جحودهم، وشنيع مرتكبهم بما فعلوه من مخالفات مهلكة في مقابلة ذلك الإنعام بالكفر والنكران والجحود كان تضعيف الفعل هو الملائم لهذا المعنى. ولا تجد هذا التفصيل والتعداد في سورتي الأعراف وإبراهيم؛ لذا كان من المناسب ذكر الفعل فيهما غير مُضَعَّف العين. وقيل في بيان العلة السابقة: إنه لم يذكر في سورة البقرة شيء من أحوال بني إسرائيل مع فرعون وآله إلا الآية المذكورة؛ لذا كان من الملائم ذكر «نَجَّى» بتضعيف العين في الفعل لما فيه مكث وتمهل، أو بعبارة أخرى: أنه لم يوجد في سياق سورة البقرة تفصيل لمعاناة قوم موسى وأحوالهم مع فرعون وآله والمجتمع الذي يعيشون فيه، وهذا لا يستدعي الإسراع في إنجائهم؛ لذا كان من الملائم ذكر صيغة التضعيف التي تدل على التريث والتمهل في الإنجاء، ولما كان سياق آية سورة الأعراف فيه إطالة وتفصيل لمعاناة قوم موسى ابتداءً من الآية الرابعة بعد المئة إلى الآية الحادية والأربعين بعد المئة. فقد وصلت معاناة قوم موسى إلى ذروتها حتى قالوا لموسى عليه السلام: ﴿قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩] فتلك المعاناة الطويلة، والحال المتوترة، ورجاء موسى عليه السلام بالنصر والاستخلاف في الأرض كما يدل عليه ﴿عَسَىٰ﴾ هذا كله اقتضى استعمال الصيغة التي تدل على الإسراع في إنجائهم فقال: «أنجى»، لأن الوقت وحالة القوم النفسية لم يعودا يتحملان إرجاء النجاة.

ولما جُعِلَ العذاب في سورة إبراهيم لونا آخر من ألوان العذاب، فزاد بذلك على العذاب المذكور في سورة البقرة، حيث عُطِفَ تذبيح الأبناء على سوء العذاب في آية إبراهيم بخلافه في سورة البقرة، فكان ذلك دلالة على الزيادة في العذاب مما اقتضى الإسراع في الإنجاء كما ذكر في آية الأعراف.

وهذا رأي وجيه جداً يعتمد على استقراء سياق استعمال الفعلين «نَجَّى» و«أنجى» في القرآن الكريم حيث استخلص أن لغة القرآن كثيراً ما تستعمل «نَجَّى» للترث والتمهل في التنجية، وتستعمل «أنجى» للإسراع في الإنقاذ والإغاثة والتخليص من الشدة والكرب.

ومما ذكره صاحب هذا الرأي للتدليل على صحة استنتاجه - وهو صحيح إن شاء الله - قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ * وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ﴾ [البقرة: ٤٩-٥٠] فإنه لما كانت النجاة من البحر لم تستغرق وقتاً طويلاً ولا مكثاً استعمل «أنجى». بخلاف البقاء مع آل فرعون فإنه استغرق وقتاً طويلاً ومكثاً فاستعمل له «نَجَّى»^(١).

وأضيف وجهاً ثالثاً لتضعيف الفعل «نَجَّى» في البقرة، وهو أنه سبحانه لما ذكر فيها عدداً من جنایات بني إسرائيل ناسبه الإبطاء أو التمهّل في إنجائهم من بطش آل فرعون عقاباً لهم، وهذا المعنى يناسبه التضعيف، أما في سياق آية سورة الأعراف فلم تذكر تفاصيل جرائم بني إسرائيل وجنایاتهم كما ذكرت في سورة البقرة، كما خلت سورة إبراهيم من ذلك؛ لذا كان من الملائم الإسراع في إنجائهم مما ابتلوا به، والله اعلم بمراده، وأعوذ به من الزلل.

والإجابة عن السؤال الثاني: أنه قيل أولاً في سورة البقرة: ﴿يُذَبِّحُونَ﴾؛ لأن الذبح منبئ عن القتل وصفته، وأصله شقُّ حلق الحيوانات، وأما القتل فيدل على إعدام الحياة على العموم، وأصله: إزالة الروح عن الجسد، كالموت، لكن إذا اعتُبر بفعل المتولي، أي

(١) انظر: بلاغة الكلمة في التعبير القرآني للدكتور فاضل صالح السامرائي ص ٧٠-٧٧.

المباشر لذلك يقال: «قَتَلَ»، وإذا اعتُبر بِقَوْتِ الحياة يقال: «مَوْتُ» قال تعالى: ﴿أَفَأَيْنَ مَاتَ أَوْ قُتِلَ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، المهم أنه عُبِّرَ أولاً في آية سورة البقرة بما يوفي المقصود من الإخبار بالقتل وصفته، فقيل: ﴿يُذَيِّحُونَ﴾، وفي هذا إحرار للإيجاز؛ إذ لو ذُكِرَ القتل وأتبع بصفته لما كان إيجازاً، فعدل عن ذلك إلى ما يحصل به المقصود. وعُبِّرَ في آية سورة الأعراف بالقتل؛ لسبق التعبير عنه وعن صفته في سورة «البقرة»، فكما أحرز الإيجاز أولاً في البقرة بذكر ما ينبئ عن الذبح وصفته، أحرزه في الأعراف ثانياً بذكر ما يدل على عموم مفارقة الحياة^(١).

وأضيف وجهاً آخر في دلالة التعبير بالقتل دون الذبح في الأعراف فأقول: إذا كان في التعبير عن قتل الأبناء بالذبح في آيتي البقرة وإبراهيم إيهاء إلى أن قوم موسى فُعلَ بهم ذلك وهم سالمون غير ثائرين، وفي غير اندفاع ثورة، فإن التعبير بالتقتيل في سورة الأعراف فيه إلماح وإشارة إلى ظهور حركة تمرد وشغب من القوم، بدلالة سياق الآية نفسها في سورة الأعراف كما شرحنا من قبل، ففيها تفصيل وإطالة في بيان أحوالهم المتردية مع فرعون وقومه، ولعل هذا ما دفعهم إلى التمرد والاحتجاج مما دفع آل فرعون إلى الإسراع بإزهاق أرواح أبنائهم المولودين، فلذا كان من الملائم التعبير بالقتل، وكأنك تلمح في التعبير بالفعل إشارة إلى الحركة الخبيثة، والسعي الدؤوب من آل فرعون لزهق أرواح أبناء المتمردين لو أد الفتنة في مهدها، ومما يؤيد كلامي التعبير في الأعراف بـ ﴿أَبْجَسْتُمْ﴾ الذي يدل على الإسراع في الإنجاء والتخليص من المحنة؛ لأن حالتهم قد بلغت الذروة في السوء، فلم يعد الوقت يحتمل الإرجاء بعد أن اشتد طيش عقول آل فرعون، ولعل هذا سر استعمال الفعل «أنجى» أيضاً. إذن أستطيع القول بأن التعبير بالتذبيح في البقرة وإبراهيم أعطانا صورة لإمعان آل فرعون في أعمال

(١) انظر: ملاك التأويل للغرناطي ص ٥٥.

سيوفهم في رقاب قوم موسى، أما التعبير بالقتل فأعطانا أو أرانا صورة أخرى من المشهد وهو الإزهاق السريع لأرواح أبناء بني إسرائيل، بل ولبعض آبائهم. والله أعلى وأعلم بمراده.

كمال الاتصال:

أما الإجابة عن السؤال الثالث فإننا نقول: إن حذف الواو قبل ﴿يُذَيِّحُونَ﴾ و﴿يَقْتُلُونَ﴾ في البقرة والأعراف أشار إلى أن التذبيح والتقتيل تفسير للعذاب وبيان له في قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنْ سُوءِ الْعَذَابِ﴾، كما تقول: زارني الضيوف محمد وعلي وسعد فلا تحتاج إلى العطف بالواو في «محمد». ونظيره قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلَقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ﴾ [الفرقان: ٦٨-٦٩].

الفصل فيما سبق إنما كان بسبب تواصل الجمل من داخلها، فالجمله وقعت في المواضع المذكورة مبينة لما قبلها، لذا فهي لا تحتاج إلى رابط أي عطف بالواو.

أما إثبات الواو قبل التذبيح في سورة إبراهيم ففيه دلالة على تنوع العذاب وشدته، وكأن المعنى: يعذبونكم بالتذبيح وبغير الذبيح، فقوله تعالى: ﴿وَيُذَيِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ جعل التذبيح لفظاعته وشدته وكثرته وتكرره كأنه جنس آخر من العذاب يفوق في تلك الأوصاف العذاب قبله، ففي قوله سبحانه: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنْ سُوءِ الْعَذَابِ﴾ إجمال لما أمتحن به القوم من فرعون وآله من حيث إذلالهم بالأعمال الشاقة وامتھانهم، واستحياء نسائهم، وذبح الذكور.

ذكر الخاص بعد العام:

وجيء بالتذبيح معطوفاً؛ للدلالة على مغايته لما قبله لأن العطف يقتضي المغايرة في الشدة والفظاعة، وقد أُجمل التذبيح في قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنْ سُوءِ الْعَذَابِ﴾، فمما

لا شك فيه أن التذبيح من جنس العذاب، ثم أفرد التذبيح وخصّ بالذكر والنص والتعين لليلة المشار إليها آنفاً، كما ورد في قوله تعالى: ﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ [البقرة: ٢٣٨]. فالصلاة الوسطى من الصلوات، وداخله فيها ومندرجة تحتها، ثم خصت بالذكر وأفردت دلالة على مكانتها وأهميتها، ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٩٨] فجبريل وميكايل من الملائكة، ولكنهما خصا بالذكر وأفردا بعد قوله: ﴿وَمَلَائِكَتِهِ﴾، للإشارة إلى مكانتهما العظيمة، وكأنهما صارا من جنس آخر يفوق الملائكة. وهذا يسمى في البلاغة ذكر الخاص بعد العام. المهم أنك عرفت الآن أنه حيث أسقطت الواو من التذبيح جعل ذلك بياناً وتفسيراً للعذاب، وحيث أثبتت جعل التذبيح كأنه جنس آخر من العذاب يفوق ما قبله، وذلك لأن الشيء لا يعطف على نفسه، فالعطف يقتضي المغايرة دائماً. والله أعلم بمراده.

إشارات:

ولم يتبق لي في تأمل تلك الآيات المتشابهات إلا الإشارة إلى ما يأتي:

- قيل: إن اسم فرعون يطلق على كل من ولي القبط ومصر. وقيل: إنه اسم ذلك الملك بعينه الذي ادعى الألوهية، فقال: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾، وقيل: إنه اسم كل ملك من ملوك العمالة مثل كسرى للفرس، وقيصر للروم، والنجاشي للحبشة.

- عبّر عن البنات باسم النساء في قوله تعالى: ﴿وَسَتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾؛ لأن جنس النساء يشملهن، أو باعتبار المآل أو ما سيكون، وفيه مجاز مرسل بعلاقة ما سيكون بناء على المعنى الأخير.

- نسب الله تعالى الفعل إلى آل فرعون، وهم إنما كانوا مأمورين بأمر فرعون؛

«لتوليهم ذلك بأنفسهم، وليعلم أن المباشر «أي للفعل» مأخوذ بفعله»^(١).

- قرأ الجمهور: ﴿يَذْبَحُونَ﴾ بالتشديد، وهذه القراءة تدل على المبالغة في التذبيح وكثرته وتكرره. وقرأ ابن محيصة: «يَذْبَحُونَ» بالتخفيف، وفي ذلك إشارة إلى سهولة مباشرتهم لذلك الفعل الشنيع بما كانوا يملكون من جند وأعوان. والله أعلى وأعلم بمراده. ندعو الله ألا يجرمنا أجرة الاجتهاد، وأن يمن علينا بفهم مراده في كتابه.

الغني الحميد:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ * وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرًا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَفِيٌّ حَمِيدٌ ﴿[إبراهيم: ٧-٨].

بعد أن ذكر موسى عليه السلام قومه بنعمة الإنجاء أو بنعمة الابتلاء كما في قوله تعالى - حكاية عنه -: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بين لهم الغاية من الاختبار بالنعمة أو بالنقمة أو بهما معاً، ألا وهي الصبر على الضراء والشكر في السراء، ثم أخبرهم بما أعد الله من جزاء على الشكر والكفران فقال: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ وهذا الكلام مندرج تحت كلام موسى عليه السلام مع قومه وتذكيره لهم، وليس كلاماً مستأنفاً. وهو معطوف على قوله: ﴿نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ وتقدير الكلام: وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم، واذكروا حين تأذن ربكم. و«إذ» بناءً على هذا التقدير منصوبة على المفعولية وليست ظرفاً. ويجوز أن يكون قوله: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ﴾ معطوفاً على قوله: ﴿وَإِذْ أَنْجَحَكُمْ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾، والتقدير: واذكروا نعمة الله عليكم في هذين الوقتين، أي: في وقت الإنجاء وفي وقت التأذن. و«إذ» بناءً على هذا التأويل ظرفية.

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١ / ٣٨٦.

دلالة (تأذن):

ومعنى ﴿تَأْذَنَ رَبُّكُمْ﴾ أي: آذن إيذاناً بليغاً وأعلم إعلماً كاملاً يتتفي عنه الشك.

ولفظ ﴿تَأْذَنَ﴾ بصيغته التي عليها التفعّل يدل على المبالغة في الإعلام، أي الكمال فيه، وتكرره وقتاً بعد وقت، وتلك المبالغة في المعنى لا تجدها لو قيل: (وإذ آذن ربكم)، لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى. والمعنى: وإذ تأذن ربكم فقال: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾.. وإنما كان هذا التأذن نعمة من الله تعالى على قوم موسى عليه السلام، «لما فيه من الترغيب والترهيب الباعثين إلى ما ينالون به خيري الدنيا والآخرة»^(١)، وأوثر التعبير بوصف الربوبية، لما فيه من معنى الإحسان المناسب لمقام الامتنان على بني إسرائيل.

سر حذف مفعولي ﴿شَكَرْتُمْ﴾ و﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾:

وجملة ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ﴾ موطئة للقسم، والقسم مستعمل في التأكيد، والمُخاطب قوم موسى. والمعنى: لئن شكرتم إنعامي عليكم لأزيدنكم من نعمي، والشكر مؤذن بالنعمة، فالمراد شكر نعمة الإنجاء من آل فرعون وغيرها، ومن أجل عدم النص على شكر نعمة بعينها دون سواها حُذف مفعولا ﴿شَكَرْتُمْ﴾ و﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ للحث على تعميم الشكر لكل النعم^(٢). وأكد هذا المعنى، لما للأنفس من الجهل والتكذيب والحدود بمثل ذلك، لاعتقادها الخاطيء أن الزيادة بالسعي في الرزق وبذل مزيد من الجهد في سبيل تحصيلها - أي الزيادة - وأن النقص منها يكون بسبب التهاون فيه. وهذا ليس صحيحاً على إطلاقه، لأن الرازق والمنعم هو الله - سبحانه -.

(١) روح المعاني ج ١٣ / ١٩٠.

(٢) التحرير والتنوير ١٣ / ١٩٤.

وقيل: «إن حقيقة الشكر: الاعتراف بنعمة المنعم مع تعظيمه، والنعم منها روحانية ومنها جسمانية (أي محسوسة)، والشاكر يكون أبداً في مطالعة أقسام نعم الله تعالى، وأنواع فضله وكرمه، وذلك يوجب تأكيد محبة الله تعالى المحسن عليه بذلك، ومقام المحبة أعلى مقامات الصديقين، ثم قد يرتقي العبد من تلك الحالة إلى أن يكون حبه للمُنعم شاغلاً له عن الالتفات إلى النعمة، وهذه أعلى وأغلى، فثبت من هذا أن الاشتغال بالشكر يوجب زيادة النعم الروحانية، وكونه موجباً لزيادة الجسمانية، فكل من كان اشتغاله بالشكر أكثر كان وصول النعم إليه أكثر»^(١).

كيفية شكر النعمة:

وشكر النعمة يكون بتصريفها فيما خلقت له، فشكر نعمة العقل مثلاً ألا يُغَيِّبه صاحبه بتناول المسكرات والمخدرات، وبألا يجحد الحق، وألا يستخدم في الاحتيال على عباد الله، والإيقاع بهم، وسلب ما يملكون.

كما أن لكل جارحة شكرها، فالإنسان يتقلب في نعم الله عليه، والنعمة الواحدة من نعمه سبحانه تشتمل على الكثير والكثير من النعم، لذلك جاء التعبير بإفراد النعمة في قوله سبحانه: ﴿وَأِنْ نَعَدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصَوْهَا﴾ [النحل: ١٨]، إن كل جارحة من جوارحك، وكل نعمة مادية أو معنوية يجب أن تسخرها فيما يرضي واهبها سبحانه، فاللسان نعمة وشكرها أن ينطق بالحق، وألا يتفوه بها يؤذي الآخرين.

واليد نعمة، وشكرها ألا تمتد إلى حرام، وألا تبطش بالآخرين، والأذن نعمة وشكرها أن يُسمع بها الحق، وألا تصغي إلى الباطل.

والإسلام أعظم النعم، وشكرها بالعمل على نشره والالتزام بأخلاقه ومبادئه.

والمال نعمة وشكرها بإنفاقه فيما يرضي الله، وبعدم التبذير والإسراف أو التقدير، وبأداء حق الفقراء فيه. والصحة نعمة وشكرها بتجنب ما يدمرها.

والوقت نعمة وشكرها باغتنامه فيما يعود على الفرد والمجتمع بالفائدة.

والعلم نعمة، وشكرها بإزالة غشاوة الجهل عن الذين لم تنهياً أمامهم سبل تحصيله، وهكذا فإن شكر النعمة دليل على استقامة المقاييس في النفس البشرية، فالخير يُشكر، لأن الشكر هو جزاؤه الطبيعي في الفطرة المستقيمة.. هذه واحدة، والأخرى أن النفس التي تشكر الله على نعمته تراقبه في التصرف بهذه النعمة بلا بطر، وبلا استعلاء على الخلق، وبلا استخدام للنعمة في الأذى والشر والدنس والفساد.

وهذه وتلك مما يزكي النفس ويدفعها للعمل الصالح، وللتصرف الصالح في النعمة بما يُنميها ويبارك فيها، ويرضي الناس عنها وعن صاحبها، فيكونون له عوناً، ويصلح روابط المجتمع فتنمو فيه الثروات في أمان إلى آخر الأسباب الطبيعية الظاهرة لنا في الحياة، وإن كان وعد الله بذاته يكفي لاطمئنان المؤمن، أدرك الأسباب أو لم يدركها، فهو حق واقع، لأنه وعد الله^(١).

الكفر بالنعمة وصور جحودها:

والمراد بالكفر في قوله: ﴿وَلَيْنَ كَفَرْتُمْ﴾ كفر النعمة، والمعنى: ولئن كفرتم نعمتي عليكم وجحدتموها لأزيلنها عنكم وأسلبنها منكم ولأعذبنكم لجحودكم نِعَمِي. فالنعمة تُقيد بالشكر، وتزول بالكفر، أي جحودها وعدم شكرها.

إذن الكفر بنعمة الله تعالى يكون بعدم شكرها وعدم أداء حقها، أو إنكار أن

(١) انظر: في ظلال القرآن ٤/ ٢٠٨٩.

الواهب الحقيقي لها والمنعم هو الله، وكم نرى من أناس يجحدون نعم الله عليهم، حيث ينسبون ما جباهم الله به من نعم إلى كدحهم أو علمهم أو خبرتهم. وقد جهل هؤلاء أن الطاقات ليست إلا نعمة من نعم الله.

ومن صور جحود نعمة الله كذلك تصريفها في غير ما خلقت له، وبالتعالى على الآخرين، وباستغلالها في الفساد والشهوات.. وهذا كله من صور الكفر بنعمة الله. وقارون من أكبر الناذج على الكفر بالنعمة، وقد كان من قوم موسى، وقرأ هذا الحوار بينه وبين عقلاء قومه كما حكاه القرآن الكريم: ﴿إِنَّ قُرُونَكُمْ كَاتٍ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَاهُ مِنَ الْكُتُبِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ * وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ * قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٦-٧٨].

إذن فإن هذا الإعلام أو البيان الإلهي يبين أن الشكر يُبقي النعم ويزيدها، وجحود النعمة يزيلها أو يمحى البركة منها.

وجاء قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ معطوفاً على قوله: ﴿لَكِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾، والشرط في كلتا الجملتين مؤكد بالقسم، وجملة القسم في الجملة الأولى قوله: ﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ وجواب الشرط محذوف دل عليه جواب القسم.. أما جواب القسم في الجملة الثانية فمحذوف، ولكنه مدلول عليه ضمناً بقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾، أي: لأعذبكم عذاباً شديداً.

التصريح بالوعد والتعريض بالوعيد:

ولم يصرح بهذا الجواب هنا كما صرح به في مقام الشكر، لأن من «عادة الكرام

غالباً التصريح بالوعد والتعريض بالوعيد، فما ظنك بأكرم الأكرمين^(١). والآية من الاحتباك.

واعلم أخي القارئ أن هذا الإعلام الإلهي بزيادة نِعَم مَنْ شكره، وتعذيب مَنْ جحد نعمه ليس خاصاً بقوم موسى، بل يشمل جميع البشر، لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، كما يقول أهل الأصول.

المقابلة البديعة:

وتأمل تلك المقابلة البديعة بين قوله تعالى: ﴿لَيْنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾. وقوله: ﴿وَلَيْنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ حيث أبرزت في صورة جلية البون الشاسع بين جزاءي الشاكر والجاحد. ومن علامات أو آثار عقاب الكفر بنعمة الله محققها بإزالتها أو بسحق آثارها في الشعور، فتستحيل في نظر صاحبها وفي وجدانه إلى نقمة يشقى بها، بل ويتمنى الخلاص منها، وتصبح تلك النعمة مصدر تعاسته وشقائه في الدنيا وفي الآخرة!!

ويستمر موسى عليه السلام في تذكير قومه وتحذيرهم - كما حكى القرآن عنه -: ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَأِنَّكَ اللَّهُ لَغَفِيٌّ حَمِيدٌ﴾.

وأعيد فعل القول في عطف بعض كلام موسى عليه السلام على بعض؛ «لثلاثاً يتوهم أن هذا مما تأذن به الله، وإنما هو تنبيه على كلام الله. وفي إعادة فعل القول اهتمام بهذه الجملة، وتنويه بها حتى تبرز مستقلة وحتى يصغي إليها السامعون للقرآن الكريم»^(٢). ومعنى الآية الكريمة: إن تكفروا يا بني إسرائيل بنعم الله عليكم وتجحدوها

(١) روح المعاني ١٣/ ١٩١.

(٢) التحرير والتنوير ج ٧ ص ١٣/ ١٩٤.

وإن يكفر بها الناس جميعاً فإن الله تعالى لا يضره شيء؛ لأنه غني عنكم لا يحتاج إلى أحد من خلقه، مستحق للحمد، حميد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، ومما يؤكد معنى هذه الآية ما ورد في الحديث القدسي: «يا عبادي لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل واحد مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر» رواه مسلم^(١).

ارتباط خاتمة الآية الكريمة بصورها:

مدلول الآية الكريمة والحديث يشيران إلى أن الطاعات لا تزيد في ملك الله تعالى شيئاً، والمعاصي لا تنقص من ملكه شيئاً، وأن وبال الكفران ومآله يلحق بصاحبه ويخصه هو.

فمنافع الشكر ومضار الكفر لا تعود إلا على الشاكر والكافر، أما المعبود والمشكور سبحانه فإنه متعال عن أن ينتفع بالشكر أو يضر بالكفر، لذا كان من الملائم جداً أن تحتم الآية الكريمة بصفتي الغنى والحمد، وذلك درءاً لما يتبادر إلى أوهام الجهال أنهم يحسنون إلى الله بإيمانهم وشكرهم، فإن من حث على شيء وجزى عليه، أو نهى عنه وعاقب على فعله يكون لغرض له أو منفعة، ولذا كان حرياً أن يؤتى بصفة الغنى

(١) باب البر والصلة والآداب - تحريم الظلم رقم ٤٦٧٤. من حديث أبي ذر رضي الله عنه، كما رواه الترمذي، وأحمد، وابن ماجه، باب البر والصلة والآداب - تحريم الظلم رقم ٤٦٧٤. من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

للدلالة على أنه سبحانه متعال عن أن يلحقه ضرر أو نفع، لأنه سبحانه غني في ذاته وصفاته عن كل أحد.

ثم أعقبت بصفة الحمد ﴿حَمِيدٌ﴾ للدلالة على أنه سبحانه بليغ الاستحقاق للحمد بما له سبحانه من عظيم النعم، وبما له من صفات الكمال، فهو سبحانه مستوجب للحمد بذاته، لكثرة ما يوجب، بل إن كل ذرة من ذرات خلقه ناطقة بحمده.

إذن ذكرت صفة الغنى وقدمت قمعاً لأوهام الجاهلين بأنه سبحانه يعود عليه نفع أو ضرر من شكر نعمة أو الكفر بها ثم أردفت بصفة الحمد حثاً للمخاطبين على الشكر وترهيباً لهم من الكفر.

وقوله ﴿حَمِيدًا﴾ حال، وفيه تأكيد لقوله: ﴿وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾، للدلالة على العموم أي عموم استغناؤه سبحانه عن جميع أهل الأرض إن كفروا به، وأوثر استخدام أداة الشرط «إن» التي تفيد الشك في وقوع الشرط، للإشارة إلى استبعاد كفر هؤلاء جميعاً، أو للترغيب في عدم الكفر والحث على الشكر، والله أعلم.

والآية الكريمة تكشف لنا عن طبيعة بني إسرائيل المتمردة المتأبية على الإذعان للحق، فموسى عليه السلام إنما ذكرهم أو خاطبهم بما خاطبهم به في هذه الآية عندما ظهرت منهم بوادر العناد، وعلامات الإصرار على الكفر والفساد، وتيقن أنه لا ينفعهم الترغيب ولا التعريض بالترهيب^(١)، فصرح بالترهيب بعد تدرجه في مراتب نصيحهم مراعاة لطباعهم الخبيثة، والله أعلم بمراده.

من نبأ الأمم السابقة:

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمٌ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ

(١) انظر: إرشاد العقل السليم ٣٥/٥.

وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ، وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿[إبراهيم: ٩].

رأينا في الآيات السابقة كيف انبرى موسى عليه السلام لتذكير قومه بأيام الله وبنعمه عليهم، وقد راوح في أسلوبه ما بين الترغيب إلى التعريض بالترهيب ثم إلى التصريح به، ولكننا في الآيات المذكورة نجد موسى عليه السلام يتوارى عن الذكر وعن المشهد «وكأنه قد أصبح راوية يبدأ بالإشارة إلى أحداث الرواية الكبرى، ثم يدع أبطالها يتحدثون بعد ذلك ويتصرفون، وذلك من بدائع الأداء القرآني، لإحياء المشاهد، ونقلها من حكاية تروى إلى مشهد محسوس ينظر ويسمع، وتتحرك فيه الشخوص، وتتجلى فيه الانفعالات والسمات. وتلك طريقة رائعة من طرق العرض للقصة في القرآن الكريم»^(١) وهذا أدى إلى تعدد الآراء في توجيه قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْتِغُونَ نَبْؤَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ..﴾ فابن جرير الطبري يرى^(٢) أنه من تنمة كلام موسى عليه السلام مع قومه وخطابه لهم، فيكون هذا داخلاً تحت تذكيرهم بأيام الله بانتقامه من الأمم المكذبة بالرسول، والغرض تخويفهم بمثل هلاك تلك القرون، ومما يؤيد هذا الرأي اتصال الكلام بما قبله في الآية المتقدمة.

ورأى ابن كثير بعد أن ضَعَفَ رأي ابن جرير «أن الكلام خبر مستأنف من الله تعالى لهذه الأمة»^(٣)، أي: أمة نبينا محمد ﷺ، حيث ذُكِّرَتْ بأخبار من تقدمها من الأمم تحذيراً لها من مخالفتها. وقيل: يحتمل أن يكون من كلام الله سبحانه ابتداء خطاباً لقوم موسى وتذكيراً لهم بالقرون الأولى^(٤).

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٠٩١.

(٢) انظر: جامع البيان لابن جرير الطبري ١٣/ ١٢٥.

(٣) تفسير ابن كثير ٤/ ١١٠.

(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٩/ ٣٤٤.

وأظن والله أعلم أن هذا الكلام من تنمة كلام موسى عليه السلام، كما حكاه عنه القرآن؛ لاتصال الكلام بما قبله، ولمناسبته لسياق الآيات ومقامها، فموسى عليه السلام عندما عاين بواد كفر قومه وعصيائهم وتمردهم ارتقى في تذكيرهم، وبالغ في ترهيبهم، فبعد أن ذكرهم بانتقام الله تعالى إن جحدوا نعمه، ضرب لهم بعض الأمثلة على ذلك من الأمم السابقة.

والقول بأن الخطاب لأمة محمد ﷺ يحدث فجوة في السياق؛ إذ يجعل الكلام غير متصل بما قبله. يقول أبو السعود مُقنّداً رأي من قال: إن الكلام من الله لأمة النبي ﷺ: «وقيل: هو ابتداء كلام من الله تعالى خطاباً للكفرة في عهد النبي ﷺ فيختص تذكير موسى عليه الصلاة والسلام، بما اختص به بني إسرائيل من السراء والضراء والأيام وبالأيام الجارية عليهم فقط، وفيه ما لا يخفى من البعد، وأيضاً لا يظهر حينئذ وجه تخصيص تذكير الكفرة الذين في عهد النبي ﷺ بما أصاب أولئك المعدودين مع أن غيرهم أسوة لهم في الخلق قبل هؤلاء»^(١).

ومعنى الآية الكريمة: ألم تعلموا يا بني إسرائيل أخبار الذين من قبلكم، وتقفوا على أخبارهم، وما فعل الله بهم بعد كفرهم وعنادهم وإصرارهم على مخالفة رسلهم، وقولهم لهم: إنا كفرنا بما أرسلتم به من الآيات البينات على حد زعمكم، وإنا لنفي شك عظيم مما تدعوننا إليه من الإيمان بالله وحده وترك ما سواه؟

خبر عظيم الفائدة:

والنبا: هو الخبر المهم العظيم الفائدة؛ لذا أوتر على الخبر حيث لم يقل: ألم يأتكم خبر الذين من قبلكم. والاستفهام في الآية للتقرير والتوبيخ، فأخبار قوم نوح تناقلتها

(١) إرشاد العقل السليم ٥ / ٣٥.

الأمم بسبب خبر الطوفان، وأما عاد وثمود فهم من العرب ومساكنهم في بلادهم، وهم يمرون عليهم، ويخبر بعضهم بعضاً بها، وعلى الرغم من ذلك فإنهم لم يتعظوا ويرتدعوا. وأذكر القارئ بما قلناه من قبل مرات ومرات من أن مادة الإتيان تدل على اليسر والسهولة، وأن مادة المجيء تدل على الصعوبة على وجه العموم.

الإتيان والمجيء^(١):

وهنا نتأمل ونتساءل: لماذا أوثرت مادة المجيء في الآية الكريمة هنا حيث قيل: ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾؟ ولماذا أوثرت مادة الإتيان في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَنْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [التوبة: ٧٠]، يمكن أن يقال: إن سياق كلا الآيتين هو الذي استدعى التعبير بما جاء فيه، فسياق آية إبراهيم فيه مواجهة مباشرة مع المخاطبين، وفيه ما يومئ إلى التهديد؛ لأن السؤال هنا عن إتيان الأنبياء للمخاطبين أنفسهم الذين ينذرهم موسى عليه السلام بهذه الأنبياء، ويهددهم بجزاء مثل جزاء هؤلاء الأقوام السابقين إن كفروا.

وقد بينت الآية إظهار الرسل حججهم الواضحة، ودعوتهم أمهم إلى الإيمان، وإلجاءهم إلى ذلك بالدليل الساطع والحجة البالغة؛ لذا أوتر التعبير بـ«جاء».

أما آية التوبة فإننا لا نجد فيها مواجهة مباشرة مع المخاطبين، فهم متوارون في السياق بدليل بدء الآية بضمير الغائبين ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ﴾، والسؤال عن تسهيل مجيء

(١) الإتيان والمجيء متقاربان غير أن: المجيء: عام، والإتيان: مجيء من بُعد، ومنه قيل: (الأتي) للقریب، وللسيل الجائي من بعيد. انظر: المفردات للراغب الأصفهاني مادتي (أتى) و(جاء)، تحقيق: نديم مرعشلي - طبعة دار الفكر للطباعة - بيروت - لبنان.

الرسول عليهم السلام بالبينات، والسياق لا يشتمل على ما يدل على التهديد عند مجيء الآيات لمن قبلهم، ولا يوجد ما يناسب صعوبة المجيء؛ لذا أوثرت مادة الإتيان في آية التوبة، والله أعلم بمراده^(١).

قوم نوح وعاد وثمود:

وأثبت ﴿مِنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ﴾؛ لأن المراد أقوام مخصصون لم تستغرق أعمارهم الزمان كله. وجاء قوله: ﴿قَوْمِ نُوحٍ﴾ بدلاً من اسم الوصول ﴿الَّذِينَ﴾. وقوله: ﴿قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ تفصيل للإجمال في قوله: ﴿الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾.

ونلاحظ مراعاة الترتيب الزمني في ذكر هؤلاء الأقوام، ونص على هؤلاء الثلاثة؛ لأن قوم نوح كانوا أكثر عدداً، وقوم عاد كانوا أشد الناس أبداناً، وأثبتهم جناناً «قلوباً»، وقرأ خطاب هود عليه السلام لهم: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْطَةً فَاذْكُرُوا ءَالَآءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩]. أما ثمود فكانوا أمهر الناس في نحت الصخور وبناء القصور كما يدل عليه قوله تعالى على لسان صالح عليه السلام مخاطباً قوم ثمود: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَنْخِذُونَ مِنْ سُهولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا ءَالَآءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٧٤]. وفي قوله تعالى: ﴿عَادٍ وَثَمُودَ﴾ مجاز مرسل إذ أطلق كل منهما وأريد ذريتهما، وهم قبيلتا عاد وثمود، قوما «هود وصالح». وأثبت ﴿مِنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِهِمْ﴾؛ لأن المراد بعض هؤلاء. وفي قوله تعالى: ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ كناية عن كثرة عددهم.

(١) يراجع: الإتيان والمجيء فقه دلالتها واستعمالها في القرآن الكريم، د. محمود موسى حمدان ص ١٣٦ - طبعة مكتبة وهبة - طبعة الأولى ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م.

اللف والنشر غير المرتب:

وهذه الجملة اعتراض بين قوله: ﴿وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ وبين جملة ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ وقوله تعالى: ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾، أي بالمعجزات القاهرة، والآيات الباهرة، استئناف للإعلام عن نبئهم، والجملة تفصيل للإجمال في قوله «نبأ»، وهذا يسمى باللف والنشر غير المرتب.

وتعددت الآراء في بيان معنى قوله تعالى: ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾، ومنها:

الأول: أن الكفار لما سمعوا كلام الأنبياء عجبوا منه وضحكوا على سبيل السخرية، فحينئذ ردوا أيديهم في أفواههم كما يفعل ذلك من غلبه الضحك فوضع يده على فيه.

الثاني: أنهم وضعوا أيديهم على أفواههم مشيرين بذلك إلى الأنبياء أن كفوا عن هذا الكلام واسكتوا عن ذكر هذا الحديث.

الثالث: أن الكفار ردوا أيديهم في أفواههم فعَضُّوها غِيْظاً وَحَنْقاً وضجراً مما جاءت به الرسل، واستماع كلامهم كقوله تعالى: ﴿عَضُّوا عَلَيْكُمْ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١١٩] (١).

والرأي الأخير هو الراجح عندي؛ لملاءمته مع مادة المجيء كما سبق القول. وهناك آراء كثيرة في بيان معنى هذه الجملة. والله أعلم بمراده.

دلالة الفاء في قوله تعالى ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾:

المهم أن أقوام نوح وعاد وthumb والذين من بعدهم بادروا إلى تكذيب المرسلين،

(١) تراجع هذه الأقوال وغيرها في كتاب: (مفاتيح الغيب) للفتح الرازي ١٧/ ٢٩٤-٢٩٦.

ولم يترثوا ولم يتأملوا في دعوة رسلهم، وهذا ما أنبأ به حرف التعقيب - الفاء - فقد أسرعوا برد أيديهم في أفواههم فور سماع دعوة الرسل، جامعين في رفضهم بين الفعل والقول ﴿وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ﴾.

تأمل الحركة أو رد الفعل السريع لهؤلاء الأقوام المكذبين، فهم أخذوا يكررون وضع أيديهم في أفواههم فور سماعهم لدعوة الرسل. قال الراغب الأصفهاني بعد أن عدد المعاني المحتملة لهذا التعبير: «واستعمال الرد تنبيه إلى أنهم فعلوا ذلك مرة بعد أخرى»^(١). والذي أراه أن التعبير كناية عن الغيظ والضيق أو الإعراض أو التهويل لما سمعوا من رسلهم. وتأمل كيف كشف حرف الظرفية «في» عن مدى ما وصلوا إليه من حالة الصدود والإعراض أو الضيق، فهم لا يكتفون برد أيديهم على أفواههم بل يُمعنون في تأكيد تلك الحركة الحسية التي تنبئ عن المعاني السابقة، ولذلك يضعون أيديهم داخل أفواههم، وبالتالي أوتر حرف الظرفية على حرف الاستعلاء «على» حيث لم يقل: (فردوا أيديهم على أفواههم).

مناقشة رأي الطاهر بن عاشور:

والظرفية هنا - والله أعلم - حقيقية، وليست مجازية، كما رأى الطاهر بن عاشور حيث يقول: «وحرف «في» للظرفية المجازية المراد بها التمكين، فهي بمعنى «على» كقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ فمعنى ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِيْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ جعلوا أيديهم على أفواههم»^(٢). ووجه الاعتراض: أن الأفواه شيء حسي ويمكن أن توضع فيها أو عليها الأيدي؛ لذا قلنا: إن الظرفية حقيقية، أما الضلال في الآية الكريمة التي استشهد بها فشيء معنوي، فالظرفية في تلك الآية مجازية وليست حقيقية.

(١) المفردات للراغب الأصفهاني مادة (رَدَّ) ص ١٩٨.

(٢) التحرير والتنوير ١٣/ ١٩٧.

تأكيد الكفر:

وقد أكد المكذبون من هذه الأمم كفرهم بأنَّ، فقالوا: ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾ أي: أنهم جهرُوا بكفرهم وصرَّحُوا به بعد أن كُنُوا عنه أولاً. وتأمل سرَّ بناء الفعل ﴿أُرْسِلْتُمْ﴾ للمفعول، فهؤلاء الأقوام لم يُقَرَّوا للرسَل برسالتهم، فهم يقولون لهم: ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾ أي: بالإرسال على حد زعمكم، فهؤلاء الأقوام كانوا غير مُسَلَّمين ولا مُقَرَّين بأنَّ المُرسَل لرسَلهم هو الله تعالى؛ ولذا بنوا الفعل للمفعول ولم يقولوا: (إنا كفرنا بما أرسلكم الله به) فهم سموا ما جاء به الرسل مرسلًا به تهكمًا بالرسل كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا يَأْتِيَهَا الَّذِي نَزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦]. ثم أكدوا إصرارهم على العناد والكفر بأن واللام فقالوا: ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾، والمعنى: وإنا لفي شك عظيم مما تأمروننا به من عبادة الله وحده. وقد يقال: كيف صرَّحُوا بالكفر وأكدوه وجزموا به في قولهم: ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾ ثم يتبعون ذلك بما يدل على الشك؟ ويجاب عنه: بأنهم أرادوا إنا كافرون برسالتكم المزعومة، وإن نزلنا فرضاً عن مقام الجزم بالكفر بما أرسلتم به على حد زعمكم، فلا أقل من أنا نشك في صحة نبوتكم، ومع كمال الشك لا مطمع لكم فينا في اعترافنا بنبوتكم وتصديقكم. أرادوا إذن تقنيط رسَلهم من إيمانهم وتصديقهم، فكأنهم قالوا لهم: إنَّ حالنا مع ما زعمتموه من الرسالة لا يخلو من أمرين، هما: الاعتقاد الجازم بتكذيبكم أو الشك العظيم فيما جئتم به. والواو بناء على هذه المعنى في قوله: ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ﴾ بمعنى «أو»، والله اعلم.

الانغماس في الشك:

والتنكير في «شك» للتعظيم. والظرفية في «في شك» مجازية. وتأمل كيف جعل الأقوام الشك ظرفاً محيطاً بهم وهم منغمسون فيه، وغرضهم المبالغة في تئيس رسَلهم

من إيمانهم. وعلى كل ففي قولهم ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ﴾ استعارة مكنية. والتنكير في «الشك» و«مريب» للتهويل أو التعظيم.

سر الفصل بين الموصوف ﴿شَكٍّ﴾ وصفته ﴿مُرِيبٍ﴾:

وفصل بين الموصوف ﴿شَكٍّ﴾ وصفته ﴿مُرِيبٍ﴾ من أجل إيقاع الشك على الوحي بلا فاصل، مسارعةً منهم في إنكاره، وتلك علة معنوية. وجاء الفصل أيضاً بين الموصوف وصفته من أجل المحافظة على تناسب رؤوس الآيات، وتلك علة لفظية. وفي «منه» كناية عن الوحي الداعي إلى التوحيد.

وقد تكرر في كثير من الآيات القرآنية التي تتحدث عن منكري البعث، وعن منكري دعوة الرسل وصف الشك بأنه مريب، اقرأ مثلاً قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾ [سبأ: ٥٤]، ﴿وَلَمَّا نَسُوا لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ [هود: ١١٠]، ﴿وَلِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ [الشورى: ١٤]، فوصف شكهم بأنه مريب للدلالة على شدة ذلك الإنكار، وقوة هذا الشك، ونخلص من هذا أن الريب درجة أعلى من الشك بدليل وصف الشك به، فالريب هو الشك مع تهمة، وحقيقته كما قال الزرخشري: «قلق النفس واضطرابها»^(١) ومنه الحديث الشريف: (دع ما يريبك إلى ما لا يريبك)^(٢).

وقيل: «في الريب ثلاثة معان: أحدها: الشك، وثانيها: التهمة، وثالثها: الحاجة»^(٣).

(١) الكشف ٢/ ٣٩٥.

(٢) عن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك» رواه النسائي ٣٢٧/٨، والترمذي رقم ٢٥١٨، والحاكم ١٣/٢، ٩٩/٤، وإسناده جيد، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

(٣) المفردات للراغب ص ٢١٣، ٢١٤.

ومن مشبهه النظم قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَصْلِحْ فَذَكَّتْ فِيْنَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَنَّا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّ لَنَا لَإِى شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [هود: ٦٢] وهنا نسأل: لماذا أثبت النونان في قوله «إننا» في آية هود، وحذفت في آية إبراهيم فقيل: «إننا»؟ ولماذا أفردت النون في هود في قوله: ﴿تَدْعُونَا﴾ وألحقت نون ثانية في سورة إبراهيم فقيل: ﴿تَدْعُونَا﴾؟

وللإجابة عن السؤال الأول نقول: إن الضمير المتصل بالفعل «تدعو» في سورة هود ضمير مفرد مستتر يعود على صالح عليه السلام، و«نا» ضمير قوم صالح، ولا نون هنا غير هذه فكان لا بد من إفرادها.

أما في آية سورة إبراهيم، فالواو في ﴿تَدْعُونَنَا﴾ واو الجماعة التي تعود على الرسل المقول لهم: ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾ وجاء هذا الفعل مرفوعاً بالنون الأولى، والنون الثانية ضمير الأقوام المدعّوين، فكان لا بد من إثبات النونين في ﴿تَدْعُونَنَا﴾. وحذفت إحدى النونين من قوله «إننا» في سورة إبراهيم تخفيفاً، وتجنباً للثقل الناشئ من توالي نونين آخرين بعد في قوله ﴿تَدْعُونَنَا﴾، ولما لم يكن في قوله ﴿تَدْعُونَا﴾ في آية سورة هود إلا نون واحدة وهي نون الضمير، لم يخش الثقل، ولم يكن هناك داع للتخفيف، فجاء بـ«إننا» على الأصل، والله أعلم بمراده.

وبعد، فهذا كان رد الأقوام المذكورين في الآية الكريمة على دعوة رسلهم إلى الإيمان والتوحيد وهو رد مشترك وجواب متفق على الرغم من اختلاف الزمان والمكان. وهكذا تتشابه حجج أهل الباطل الواهية في كل زمان ومكان، فتهمهم جاهزة، وأباطيلهم معدة سلفاً، وشعارهم واحد في مواجهة الحق وأهله.

ولكن ماذا عن رد رسلهم؟ وماذا عن جوابهم؟ وكيف كشفوا سفاهة أحلامهم؟ هذا وغيره ما ستتعرف إليه في قوله تعالى:

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ
مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُم إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنَّ أَنتُم إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن
تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَنُؤِنَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [إبراهيم: ١٠].

الآن تعالوا بنا لكي نعيش مع تلك المواجهة الكبرى، وتلك المحاورة الحامية
بين الرسل ومكذبيهم، بين أهل الإيمان رمز الطهارة والنقاء وأهل الشرك رمز النجاسة
والإعراض. ولقد تشوقت النفوس لمعرفة إجابة الرسل.

لقد قالوا لمكذبيهم بعد أن قابلوهم بالإنكار والإعراض والشك فيما جاؤوهم
به من عبادة الله وحده: ﴿أَفِى اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، أفى وجود الله شك
أم في وحدانيته؟! كيف ذلك وكل الشواهد تدل على وجوده سبحانه وعلى تفرد
بالألوهية والعبادة، وكيف تشكون في الله فاطر السموات والأرض؟ إذ هو الذي خلقهما
على هذا النظام البديع المحكم، وخلق كل ما فيهما من عوالم لا يحصيها إلا هو. ينبغي
ألا يشك في وحدانيته ووجوده وهو الذي يدعوكم إلى الإيمان الكامل ليغفر لكم
بعض ذنوبكم في الآخرة، ويؤخركم إلى أجل مسمى في الدنيا.

استفهام إنكاري:

يبدأ جواب الرسل باستفهام إنكاري ﴿أَفِى اللَّهِ شَكٌّ﴾. ومورد الإنكار هو وقوع
الشك في وحدانية الله تعالى أو في وجوده. وأدخلت همزة الاستفهام المراد بها الإنكار
على الجار والمجرور، لأن مدار الإنكار ليس في الشك نفسه، وإنما في الجار والمجرور
(في الله) أي: إنكار الشك في وجوده سبحانه أو وحدانيته، لأن ذلك ينبغي ألا يتطرق
إليه أي شك، ودلائل وحدانيته ووجوده ناطقة بذلك وشاهدة به. ولم تقل الرسل
في جوابها: أنتم في شك مريب من الله تعالى «مبالغة في تنزيه ساحته سبحانه عن
شائبة الشك، وتسجيلاً عليهم بسخافة العقول..» وحيث كان مقصدهم الأقصى الدعوة

إلى الإيمان والتوحيد، وكان إظهار البينات وسيلة إلى ذلك لم يتعرضوا للجواب عن قول الكفرة ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾ واقتصروا على بيان ما هو الغاية القصوى^(١) وفصلت جملة ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾ عما قبلها للاستئناف البياني وذلك على تقدير سؤال يترقبه السامع، وكأنه قيل: وماذا قالت لهم رسلهم؟ فأجيب ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ﴾.

والتعبير باسم الجلالة الجامع لصفات الكمال لمزيد تقريع للمنكرين والجاحدين. وفي قوله سبحانه: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾ إيجاز يحذف المضاف، والتقدير: أفي وجود الله أو وحدانيته شك؟ وفي هذا تعريض بغباء الكفار.

ولم يكتف المرسلون بهذا الجواب، بل ذكروا بعد إنكارهم على الكفار ما يؤكد ذلك الإنكار من الشواهد الدالة على عدم الشك في وجوده سبحانه ووحدانيته فقالوا: ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: مبدعها وخالقها وما فيهما من المخلوقات على نظام عجيب ينطق بقيوميته سبحانه ووحدانيته ووجوده، الأمر الذي ينسف شكهم وكفرهم؛ لأن من كان هذا شأنه، وتلك صفته فمحال أن يتطرق إليه شك من إنسان عاقل، وذلك أحد مظاهر كمال قدرته. وقوله ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ نعت للفظ الجلالة أو بدل منه. تأمل دقة التعبير القرآني حيث أوتر اسم الفاعل «فاطر» في جانب خلق السموات والأرض لأن خلقها قد تم وحدث ولا يتجدد، فدلالة اسم الفاعل «فاطر» كدلالة الماضي بالنسبة إلى التحقق والثبوت.

أدب المرسلين:

بدأ الرسل جوابهم بالإشارة إلى آية حسية مشاهدة للمفكرين، لتدركها عقولهم

(وفي هذا تعريض أيضاً بغبائهم) بأدنى تأمل وأدق تفكر وتدبر، وذلك تأييد أو حجة لإنكار الرسل عليهم وقوع الشك في وجوده سبحانه أو وحدانيته.

وواصل المرسلون جوابهم فقالوا: ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفَرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ﴾، وعبر بالفعل المضارع «لتجدد الدعوة على السنة الرسل والأنبياء والدعاة من بعدهم إلى قيام الساعة. والجملة استئناف ابتدائي مسوق لتأكيد الإنكار تأكيداً إثر تأكيد، لأن من كان فضله غامراً للعباد بمغفرة آثامهم والنسأ في أجلهم تقتضي الحكمة أن يشكر لا أن يكفر ويشك فيه». وأسندت الدعوة إلى الله تعالى لتربية المهابة في نفوسهم، وإشعاراً لهم بالهيمنة عليهم.

وهذا من أدب المرسلين مع ربهم، فكأنهم يريدون أن يقولوا: «يدعوكم إلى الإيمان به وتوحيده بإرساله إيانا لكم، لا أنا ندعوكم إليه من تلقاء أنفسنا».

وعلى أية حال ففي العبارة أيضاً ترغيب للكفار في الإيمان. ومما يدل على هذا المعنى تعدية فعل الدعاء بلام التعليل، فالمعنى يدعوكم إلى الإيمان ليغفر لكم، فهنا إشارة إلى سبب المغفرة.

و﴿مَّن﴾ في قوله تعالى ﴿مَّنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ للتبويض والمعنى: ليغفر لكم بعض ذنوبكم، وهو ما يتعلق بالشرك ونحوه، فإن الله تعالى يغفر لهم إن آمنوا كل الذنوب المتعلقة بحقوقه سبحانه، أما ما يتعلق بالمظالم فإنها لا تغفر إلا إذا عفا أصحابها، وهذه دلالة التبويض. وإذا تأملنا ما ورد في خطاب الكافرين في آيات آخر نجد مثل قوله تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ [نوح: ٤] وقوله تعالى: ﴿يَقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَءَامِنُوا بِهِ﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَتُجَرِّمُكُمْ مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ [الأحقاف: ٣١] فإننا نلاحظ ذكر (من) قبل لفظ الذنوب، أما في خطاب المؤمنين والوعد بمغفرة ذنوبهم فإنك لا تجد (من) التي توحى بالتبويض، اقرأ قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا *

يُصْلِحَ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴿[الأحزاب: ٧٠-٧١] وقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ
ءَامَنُوا هَلْ أَذِلُّكُمْ عَلَى تَحْرِيفِ نُصُوحِكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ * تَوَمَّنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ
وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرَ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [الصف: ١٠-١٢].

تمييز بين خطابين:

ولعل السر في هذا هو التفرقة أو التمييز بين الخطابين، خطاب المؤمنين وخطاب
الكافرين لئلا يسوّى بين الفريقين في الوعد مع اختلاف رتبتهما^(١). وهذا وجه عللوا به
التبعية في آية سورة إبراهيم وما على شاكلتها، وهذا رأي وجيه وهو أقوى من الرأي
الأول، ولعل مما يؤيده التمييز في الوعد بين فريقين من المؤمنين كما في قوله تعالى:
﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ
الْفَتْحِ وَقَتْلَ أَوْلِيَّكَ أَعْظَمَ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلَ أَوْلَاكُمْ وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَىٰ وَاللَّهُ يَمَّا
تَعْمَلُونَ خَيْرٌ﴾ [الحديد: ١٠] فإذا كان هناك تمييز في الوعد بين صنفين من المؤمنين فمن
باب أولى أن نجد هذا الاختلاف بين المؤمنين والكافرين.

ترجيح (من) البانية في قوله: ﴿لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾:

والذي أطمئن إليه أن «من» في الآية بانية، وتكون للدلالة على استغراق الغفران
لكل الذنوب إذا آمنوا، لأن الإسلام يجبُّ ما قبله من غير تخصيص ذنب دون ذنب، وإذا
كان الشرك وهو أعظم الذنوب على الإطلاق يغفر بمجرد الإيمان فما دونه أولى.

وكم كان من المشركين من قتلوا ومثلوا بجثث من قتلوهم من الصحابة الأبرار -
رضوان الله عليهم - ! وكم فعلوا من الموبقات مع شركهم! ومع ذلك غفر الله لهم بعد

(١) ينظر: روح المعاني ١٣/١٩٦.

إيمانهم، كيف وقد غفر الله تعالى لوحشي قاتل حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه كما ورد في قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

و«ما» تفيد العموم لا سيما في الشرط، كما أن المقام مقام إغراء بالدخول في الإسلام وترغيب فيه، فلا وجه إذن للتخصيص بمغفرة بعض الذنوب دون بعض، ومما يؤيد أيضاً هذا الرأي قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ١١٦].

وقيل: ليس مغفرة بعض الذنوب للدلالة على أن بعضاً آخر لا يغفر، كما أن الغرض من التخصيص بمغفرة بعض الذنوب في حق الكفرة، وجعل البعض الآخر مسكوتاً عنه هو لئلا يتكلوا على مجرد الإيمان، والله أعلم. وعموماً فإن المعنى على اعتبار كون «من» بيانية: إن الله يدعوكم إلى الإيمان ليغفر لكم أجناس الذنوب.

وفي العبارة ما يدل على أنه سبحانه لا يريد (أي لا يرضى لعباده) الكفر والشرك، وإنما يريد الخير والإيمان، وأنه إنما بعث الرسل رحمة وفضلاً وإنعاماً على عباده ليؤمنوا، قال تعالى مخاطباً أهل الكفر: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٧].

الإمعان في الكفر:

ويواصل المرسلون ترغيبهم لأقوامهم فيقولون: ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي إلى وقت قد سباه وبين مقداره، ولا يعاجلكم بعقوبة الاستئصال أو العذاب في الدنيا.

هذا كان الجزء الأول من جواب الرسل فهل اكتفى الكفرة من أقوامهم باعتراضهم السابق؟ وهل أذعنوا للحق بعد بيان الرسل لهم؟ كلا إنهم تمادوا في جهلهم،

وزادوا من صلفهم، وارتقوا في سفاهتهم فأجابوا رسلهم ﴿قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كُنَّا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ فبدلاً من أن يشكر هؤلاء ربهم لاختياره لبشر مثلهم ليحملوا رسالتهم إليهم، وبدلاً من أن يعتزوا بذلك الاختيار «فإنهم لجهالتهم ينكرون هذا الاختيار، ويجعلونه مثار ريبة في الرسل المختارين، ويعللون دعوة رسلهم لهم بأنها رغبة في تحويلهم عما كان يعبد آبائهم. ولا يسألون أنفسهم: لماذا يرغب الرسل في تحويلهم؟ ألا يفكرون في قيمة ما كان آبائهم يعبدون؟ ما حقيقته؟ ماذا يساوي في معرض النقد والتفكير؟ وبطبيعة الجمود العقلي كذلك لا يفكرون في الدعوة الجديدة، إنما يطلبون خارقة ترغمهم على التصديق ﴿فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾»^(١).

وقولهم: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ أسلوب قصر من باب قصر الموصوف ﴿أَنْتُمْ﴾ على صفة ﴿بَشَرٌ﴾ أي: البشرية، واستخدم أقوى أساليب القصر: النفي والاستثناء؛ لأن السياق سياق توتر وتحفز وانفعال، وهذا يناسبه النفي والاستثناء.

وقد أراد الكفار بغبائهم أن يأتوا أو يعتذروا بحجة لرفض دعوة رسلهم؛ فقالوا ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ فهؤلاء الكفار لسفاهة عقولهم يرون أن البشرية تنافي النبوة أو الرسالة، لذلك فإنهم نفوا اختصاص الرسل بشيء زائد على صورتهم البشرية يعلم به أن الله اصطفاهم دون غيرهم بأن جعلهم رسلاً عنه؛ لذا طالبوا رسلهم بأن يأتوا بحجة مشاهدة محسوسة تدل على أنه سبحانه اصطفاهم للرسالة عنه، يريدون بذلك تعجيز رسلهم.

وتلمح في جملة القصر ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ كناية عن صفة وهي نفي

الرسالات؛ لأن الرسالة حسب اعتقادهم - كما قلنا - تنافي البشرية ولا تتلاقى معها. وكان من الممكن أن يقولوا: ما أنتم إلا بشر، ولكنهم زادوا ﴿مِثْلَنَا﴾ لتأكيد ما أرادوا من نفي اختصاص الرسل بشيء قاهر، فكأنهم قالوا: ما دمتم بشراً مثلنا تشاركوننا في البشرية، فما وجه تخصيصكم بالرسالة دوننا؟

تواصل الباطل:

وجملة ﴿تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ في موضع الحال. وتلمح الكناية عن موصوف، وهو الأصنام في قولهم: ﴿عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾.

ونلاحظ أن الكفار وصفوا رسلهم بوصفين: أنهم بشر، وبإرادة صدهم، أي صرفهم عما كان يعبد آباؤهم.

والتعبير بالكون في قولهم: ﴿عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ للدلالة على أن عبادة آبائهم للأصنام صارت كالطبع الراسخ والجلبة التي خلقوا عليها؛ لذا فإن آباءهم وهم من ورائهم لا يستطيعون الانفصال عن عبادتها.

وعُبر عن الحال الماضية بالمضارع ﴿يَعْبُدُ﴾؛ للتذكير بتلك الحال الماضية، وللتأكيد على استمرارهم في اقتفاء اعتقاد آبائهم في أصنامهم.

وعبروا عن دينهم بالموصول «ما»؛ ليتأتى لهم من خلال جملة الصلة التنويه بدينهم، بأنه متقلد آبائهم الذين يحسبونهم معصومين من اتباع الباطل، فلذلك عدلوا عن أن يقولوا: تريدون أن تصدونا عن ديننا^(١).

(١) يراجع: التحرير والتنوير ١٣/ ٢٠٠.

التعبير بالآباء من باب التغليب:

والمراد بالآباء في ﴿ءَابَاؤُنَا﴾ الآباء الأذنون والأجداد الأبعدون، وعبر عنهم جميعاً بالآباء من باب التغليب، والسر في تغليب الأبوة على الجدية (قرب الآباء من عهد الأبناء وقوة الصلة بينهم)، وللدلالة أيضاً على استمرار التواصل العقدي بينهم وبين آبائهم الأبعدين، وأن البعد الزمني بينهم وبين أجدادهم لم يؤثر في عقيدتهم، ولم يشوهها، وكأنهم لذلك تلقوها من آبائهم الأقربين منهم زماناً وصلة. والله أعلم.

واستخدمت مادة الإتيان في ﴿فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾؛ لأن الإتيان المطلوب هنا ليس في قدرة الرسل إلا بأمر الله تعالى، كما أنهم لم يدعوه، بدليل جوابهم على ذلك الطلب بقولهم في الآية التي تلي الآية السابقة مباشرة: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [إبراهيم: ١١].

وأحسب أن معنى الطلب: فأتونا بسلطان مبين إن كنتم تزعمون أنكم رسل الله؛ لأنه سيسهل عليكم الإتيان بذلك ما دتم تبغون عنه رسالته. وكأننا نشعر أنهم يحمسون رسلهم ويدفعونهم لإجابة طلبهم. ولكن كان جواب الرسل على طلبهم فيه ما فيه من الأدب مع الله تعالى، حيث نفوا عليهم السلام قدرتهم على الإتيان بسلطان من تلقاء أنفسهم، فلا بد من إذنه سبحانه.

والمراد بالسلطان في الآية: الحجة، وعبر عنها بالسلطان؛ لأنها تجعل للخصم سلطاناً وسطوة وسيطرة على خصمه يلزمه بالقبول والخضوع لما يقول.

والفاء في ﴿فَأَتُونَا﴾ تفرعية، والمعنى: «إن لم يكن الأمر كما قلنا بل كنتم رسل الله كما تزعمون فأتونا بما يدل على صحة ما تدعونه من الرسالة حتى ندعن لكم ونترك ما يعبد آبائنا».

والتعبير بالفاء هنا فيه إيجاز؛ لأنه طوى وراءه ما قرأت، وفيه إلحاح من الكفار على رسلهم للإسراع بإتيانهم بحجة دامغة تلزمهم الإيمان.

دحض شبهات المشركين:

قال تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [إبراهيم: ١١].

مازلنا نقف متأملين تلك المحاورة الممتدة بين الرسل وأقوامهم، ولقد لحظنا فيما سبق مدى إصرار أهل الكفر على عنادهم وجودهم وعصيانهم وعدم إيمانهم وامتناعهم عن إجابة دعوة رسلهم، كما لمسنا تنوع أسلوب الرسل في تبليغ دعوتهم، حيث تصاعد الأسلوب أحياناً إلى أقصى درجات الحدة من خلال إنكار الرسل على الكفرة اعتقادهم بنفي الألوهية أي الشك في وجود الإله أو الشك في وحدانيته سبحانه.

ثم اتجه الأسلوب نحو الترغيب كما بدا في قوله تعالى حكاية عن الرسل: ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ ولم يستجب أهل الكفر لذلك بل رفضوا الدعوة من أصلها؛ لأنها جاءت على لسان بشر مثلهم هدفهم إبعادهم وصدهم عما كان يعبد آباؤهم؛ لذلك طالب الكفار رسلهم بأن يأتوا بأية حسية غير المعجزات الأخر التي جاؤوا بها تلجئهم إلى الإيمان فقالوا: ﴿فَأَنقُزْنَا سُلْطَانِ مُّبِينٍ﴾، وهنا ستعرف من خلال البيان القرآني على جواب رسلهم عن اعتراضهم وعن مقترحهم، أو قل عن شبههم الثلاثة: «أنتم بشر، تدعوننا إلى ترك عبادة الآباء، هاتوا حجة وبرهاناً على ما تزعمونه» فقال لهم رسلهم: نعم ما نحن إلا بشر مثلكم كما تقولون، يجري علينا من أوصاف البشرية ما يجري عليكم، ولكن هذا لا يمنع أن يمن الله على من يشاء من عباده بالنبوة والرسالة.

أما طلبكم الحجة والبرهان بعدما قدمناه لكم من المعجزات فأمره إلى الله تعالى ولا دخل لنا في ذلك، ولا جاز لنا أن نأتيكم بآية غير ما جئنا به إلا بإذنه سبحانه، فهو الذي اختار لنا الآية الدالة على رسالتنا، وإذا كنتم مستمرين على معارضتكم ومقاومتكم وإيذائكم لنا فإننا متوكلون على الله، ولا نخشى بطشكم، ولا نخاف تهديدكم فإننا واثقون في نصره تعالى مطمئنون إلى ولايته وحفظه لنا، وكيف لا يكون لنا هذا؟ وأي شيء عرض لنا حتى لا نتوكل عليه، وقد هدانا سبحانه لأقوم طريق ولأهدى سبيل؟ ولنصبرن على إيذائكم، وعلى الله وحده فليستمر توكل المؤمنين.

الثقة بالله:

أرايتم تلك الثقة في معية الله تعالى؟ إنها الثقة التي تجعل صاحبها لا يتردد ولا يتلأأ في الماضي في طريق دعوته إلى الله مهما كانت العقبات والمتاعب، ومهما كان الثمن باهظاً. «ثم تأمل هذا الربط في رد الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، بين شعورهم بهداية الله لهم وبين توكلهم عليه في مواجهة التهديد السافر من الطواغيت، ثم إصرارهم على الماضي في طريقهم في وجه هذا التهديد.

وهذه الحقيقة، حقيقة الارتباط في قلب المؤمن بين شعوره بهداية الله وبين بدهية التوكل عليه لا تستشعرها إلا القلوب التي تزاوَل الحركة فعلاً في مواجهة طاغوت الجاهلية، والتي تستشعر في أعماقها يد الله سبحانه وتعالى وهي تفتح لها كوى النور فتبصر الآفاق المشرقة، وتستروح أنسام الإيمان والمعرفة، وتحس الأنس والقربى، وحينئذ لا تحفل بما يتوعد بها طواغيت الأرض، ولا تملك أن تستجيب للإغراء ولا للتهديد، وهي تحتقر طواغيت الأرض وما في أيديهم من وسائل البطش والتنكيل. وماذا يخاف القلب الموصول بالله على هذا النحو؟ وماذا يخيفه من أولئك العبيد؟»^(١).

(١) في ظلال القرآن ٤ / ٢٠٩٢.

وقبل أن نحلل الآيات الكريمة ونتأمل صياغتها نشير إلى أمر مهم لحظناه وهو:
أن الله سبحانه جمع أقوال المشركين في قول واحد، وبيان واحد، وهم كانوا في
أزمان متباينة، وأجيال مختلفة، وكذلك وُحِّدَت إجابة الرسل في قول واحد على الرغم
من اختلاف أزمتههم؛ وذلك للإشارة إلى المنبت أو الأصل الذي اجتمع كل فريق
عليه، فلأن بذور الشرك واحدة، وأباطيل الكفر متشابهة، وتهم الباطل متوافقة، فقد
جمعت أقوال أهل الكفر والشرك، فهذا حال أهل الشرك في كل العصور في إنكارهم
رسالات الله، كما قال مشركو مكة عن الرسول ﷺ: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ
الْطَّعَامَ وَيَنْشَى فِي الْأَشْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٧].

ولعل في جميع أقوال الكفرة أيضاً تأنيساً لنبينا محمد ﷺ وتصبيراً له بما يلاقه من
قومه ببيان أن الرسل جميعاً أُجيبوا بمثل ما أُجيب به، فليتأس وليصبر.
ووحَّدت أقوال المرسلين؛ للدلالة على وضوح الحجة وقوة الدليل.

والآن تعالوا بنا لتأمل ذلكم البيان الإلهي المعجز، فقله تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ
رُسُلُهُمْ﴾ أثبت هنا الجار والمجرور ﴿لَهُمْ﴾؛ «لاختصاص الكلام بهم، حيث أريد
إلزامهم بخلاف ما سلف من إنكار وقوع الشك في الله سبحانه وتعالى (أي في قوله
تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾) فإن ذلك عام، وإن اختص بهم ما يعقبه»^(١).

كما أن التعبير بالجار وبالمجرور ﴿لَهُمْ﴾ فيه إشارة إلى إقبال الرسل على أقوامهم
بالجواب؛ لما يحويه ذلكم الجواب من دقة تحتاج إلى الاهتمام به، وفيه أيضاً استشارة
لاجتذاب انتباههم وذلك عن طريق لام التعليل التي بعد فعل القول، ففي نحو: أقول
لك، فإن التقدير أقول قولي لأجلك.

بشرية الرسل:

وقوله: ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ بداية لجواب الرسل على اعتراض أقوامهم الذين يرون أن البشرية لا تتفق مع الرسالة، وبما أن رسلهم بشر مثلهم فهم لا يستحقون أن يتميزوا عليهم بالرسالة.

تذكر قولهم لرسلهم: ﴿إِن أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ فالرسل عند المتكلمين ليسوا منزليين منزلة من ينكر البشرية، وإنما هم عندهم منكرو البشرية؛ لأن من يدعي الرسالة فقد أنكر البشرية - على حسب اعتقادهم -^(١).

القول بالموجب:

تأمل جواب الرسل ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ فقد أقروا ببشريتهم، بل ورددوا مقولة أقوامهم بألفاظها، وهذا من باب مجازاة الخصم واستدراجه، حيث سَلَّمُوا لهم بمقدماتهم التي رتبوا عليها نفي الرسالة عنهم مؤكدين تسليمهم بالنفي والاستثناء في جملة قصر حاسمة.

وأوثر طريق النفي والاستثناء - وهو أعلى طرق القصر كما عرفت -؛ لأن الرسل يواجهون عقيدة رافضة، ومخاطبين منكرين لرسالتهم أشد الإنكار.

فإذا كان المرسلون قد سَلَّمُوا للكفرة بالمقدمة التي يقرون فيها ببشريتهم، - وهذا إغراء لهم بمتابعة جواب الرسل؛ لأنهم رتبوا على بشرية الرسل نفي الرسالة عنهم - حيث إن الرسل يقرون لهم بالبشرية، ثم يقولون: لا مانع من أن نكون بشراً وأن نكون رسلاً؛ لأن الله يمن على من يشاء من عباده.

(١) ينظر: شروح التلخيص، لابن يعقوب المغربي ٢/ ٢١٧.

إذن كما لحظنا فإن الرسل لم تسلّم للكفرة مقدمتهم بمعناها وفحواها وإنما بألفاظها وأنغامها وتراكيبها كما نطق بها الخصم، وكما دار بها لسانه من غير أدنى تغيير.

وهذا كما قلت فيه ما يؤنس نفوسهم ويستميلها نحو سماع الحجة، وهذا من أرقى أساليب الحوار والإنصاف. المهم أن الرسل الكرام سلّموا بالمقدمة ولم يُسلموا لهم بالنتيجة؛ لأنه لا تلازم بين التماثل بينهم وبين غيرهم في البشرية ومنع الرسالة؛ لذا قالوا: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ فالاستدراك استدراك من النتيجة التي رتبوها في زعمهم، ورفع لما توهموه من كون المماثلة في البشرية مقتضى انتفاء الرسالة عن الداعين.

وإذا تأملنا ثانية في جواب الرسل وفي اعتراض مكذبيهم نلمس الفرق الشاسع بين نظرة الكافر والمؤمن للإنسان، فالكافرون لا يدركون رقي الإنسان وأهليته لخطاب الله تعالى والتلقي عنه، والمؤمنون ينزلون الإنسان منزلة سامية، ويؤكدون أن لا منافاة بين البشرية والرسالة، فالبشرية أهل لهذه المنزلة، منزلة الرسالة عند الله تعالى، وليست البشرية من الأوصاف الدون التي تنافي تلقي كلمة الله وتبليغها لخلقه، وإنما هي أَجَلٌّ وأكرم^(١).

وتأمل تواضع الرسل صلوات الله عليهم حيث لم يقولوا: ولكن الله منّ علينا، ولكنهم قالوا - كما حكى القرآن عنهم - ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ فقد عدّوا هذه النبوة والرسالة فضلاً من الله تعالى على الذين اصطفاهم من عباده، وهم لم يصرحوا أن لهم فضلاً على الناس، إلا ما اختصهم الله تعالى به من الرسل منّا وفضلاً، وما كان ذلك إلا لحكمة إلهية، ولمشيئته سبحانه، والبشرية غير مانعة لمشيئته. وذكر لفظ الجلالة لتفخيم المنّ.

(١) انظر: دلالات التراكيب ص ١١٢.

والحق أن تلك المنة العظيمة ليست على أشخاص هؤلاء الرسل والأنبياء فحسب، وإنما كذلك على البشرية بأسرها التي تشرف بانتخاب أفراد منها، واختيارهم لهذه المهمة العظيمة، مهمة الاتصال والتلقي من الملائكة الأعلى، ثم هي المنة الكبرى على البشرية بإخراج الناس من عبادة العباد والذل لهم إلى عبادة رب العباد سبحانه والخضوع له وحده، فالعز كل العز في الافتقار إليه سبحانه، والذل كل الذل في الاستغناء عنه.

هذا كان جواب الأنبياء والمرسلين عن الشبهة الأولى وهي طعن الكفار في النبوة بحجة أنها لا تجتمع مع البشرية، حيث بينوا لهم أن التماثل في البشرية لا يمنع من اختصاص بعض البشر بمنصب النبوة؛ لأن هذا المنصب يمن الله به على من يشاء من عباده، وإذا كان كذلك فقد سقطت شبهتهم.

التمييز بين الحق والباطل:

وأما الجواب عن شبهة التقليد، تقليد الآباء كما ورد في قول الكفار: ﴿تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَنَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ وما يدل عليه قولهم من أن إجماع الأجداد والآباء على تلك العبادة يدل على كونها صواباً، الجواب عن تلك الشبهة جاء ضمن جوابهم عليهم السلام عن الشبهة الأولى، «وهو أنه لا يبعد أن يظهر للرجل الواحد ما لم يظهر للخلق الكثير؛ لأن التمييز بين الحق والباطل والصدق والكذب عطية من الله وفضل منه، فلا يبعد أن يخص عبده بهذه العطية، ويحرم الجمع العظيم منها»^(١).

أما الجواب عن الشبهة الثالثة، وهي قول الكفار: ﴿فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ ومعناها: إنا لا نرضى بتلك المعجزات التي أتيتم بها، وإنما نريد معجزات أحر أقهر منها وأعظم، فقد أجاب الرسل عن تلك الشبهة بقولهم: ﴿وَمَا كُنَّا لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ

(١) اللباب في علوم القرآن، لابن عادل الدمشقي ١١/ ٣٥٣.

بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴿١٠﴾ أي: أن المعجزات التي أتينا بها حجة قاطعة عليكم، وبرهان تام لإثبات صدقنا، أما ما اقترحتموه علينا من الحجج والبيانات والمعجزات فما صح ولا استقام لنا أن نأتيكم بها إلا بإذن الله.

سر التعبير بالكون في قولهم: ﴿وَمَا كُنَّا لَنَا﴾:

والتعبير بالكون في قولهم: ﴿وَمَا كُنَّا لَنَا..﴾ لتأكيد نفي استطاعتهم المجيء بالآيات التي اقترحها أقوامهم إلا بإذن الله تعالى، فالله سبحانه ليس بِمُكْرَهٍ على فعل ما لا يريد بل هو سبحانه فعال لما يريد.

والظاهر أن الأنبياء لما أجابوا على شبهات أقوامهم بما ذُكر أخذ هؤلاء الكفار في السفاهة والتخويف، وعند ذلك قال الأنبياء: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

وتقديم الجار والمجرور لإفادة القصر، فالقصر قصر إفرادي، أي: على الله وحده لا غيره فليتوكل المؤمنون في الصبر على عناد الكفار وسفههم وجهلهم.

وفي الجملة إيحاء إلى ثقتهم بنصر الله تعالى لهم، وعمموا الأمر بالتوكل؛ «للاشعار بما يوجب التوكل من الإيمان، وقصدوا به أنفسهم قصداً أولياً، ويدل على ذلك قولهم ﴿وَمَا لَنَا إِلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ﴾»^(١) والجملة معطوفة على ما قبلها بالواو من باب عطف الإنشاء على الخبر.

والتوكل: الاعتماد وتفويض الأمر والتدبير إلى الآخر ثقة بأنه أعلم بما يصلح حاله، ومن غيره سبحانه يُتوكل عليه، ويعتمد عليه في تدبير الشؤون؟ فهو سبحانه فوق كل عزيز، وفوق كل الأقوياء؛ لذا أمر الأنبياء الكرام المؤمنين الذين يؤذيهم

(١) روح المعاني ١٣/ ١٩٨.

الكفار ويسخرون منهم بأن يتوكلوا على الله ويصبروا؛ لأنه سبحانه لا محالة سيظهرهم على عدوهم؛ لذا قالوا: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

وبما أن الرسل الكرام هم رأس المؤمنين فإنهم داخلون تحت هذا الأمر دخولاً أولياً كما قيل. والفاء في ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها، والمعنى: «إذا كنا معشر الرسل قد توكلنا على الله وحده فليتوكل المؤمنون على الله وحده. ويتضمن ذلك طلبين: أحدهما: الصبر على أذى المشركين. والثاني: الاعتماد على الله وحده وأنه سبحانه ناصر الرسل ومن اتبعوهم ولا يمكن لمشرك منهم»^(١).

الوعد الرباني:

قال تعالى: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصِيرَنَّ عَلَى مَا ءَاذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ * وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلرُّسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ * وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: ١٢-١٤].

و(ما) في الجملة استفهامية للسؤال عن السبب والعذر، و(ما) في محل رفع مبتدأ والجار والمجرور (لنا) في محل رفع خبر، و(أن) على تقدير حرف الجر، والمعنى: أي عذر لنا في عدم التوكل على الله؟ والغرض من الاستفهام النفي، أي نفي أي عذر في ترك التوكل على الله.

الكناية أبلغ من التصريح:

وقد جاء هذا النفي مكنياً عنه، حيث كنوا عن نفي العذر أو الصارف عن التوكل

بالسؤال عنه؛ لأن السؤال يستلزم نفي المسؤول عنه. والكناية أبلغ من التصريح؛ لأنها تأتي بالمعنى مصحوباً بالدليل عليه.

وأظهر الاسم الجليل في مقام الإضمار، حيث كان الظاهر أن يقال: وما لنا ألا نتوكل عليه؛ لتقدم الاسم الجليل في قوله تعالى - قبل هذه الآية مباشرة -: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ الإظهار؛ لإبراز شدة الرغبة في التوكل عليه جل شأنه، والاستلذاذ باسمه تعالى، ولتفخيم التوكل عليه سبحانه.

وقولهم: ﴿وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا﴾ جملة تعليلية، لإبراز سبب توكلهم على ربهم.

والواو حالية، و(قد) حرف تحقيق، والتقدير: والحال أنه سبحانه قد هدانا، ومنَّ علينا بما يوجب التوكل ويستدعيه، حيث هدانا سبلنا، أي: أرشد كلاً منا سبيله ومنهجه. وفي الجملة تعريض بقبح الانصراف عنه سبحانه، وعدم التوكل عليه.

وأضيف السبيل إلى ضمير الأنبياء؛ للاختصار، حيث التقدير: أرشد كلاً منّا منهجه الذي شرع له، وأوجب عليه سلوكه في الدين.

والسبيل هو الطريق الذي فيه سهولة، ويطلق مجازاً على طريق الحق. وإذا أُطلق اللفظ - السبيل - ولم يُقَيَّد فيختص بما هو الحق، ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرُهُ﴾ [عبس: ٢٠]، ويستعمل السبيل كذلك لكل ما يتوصل به إلى شيء خيراً كان أو شراً، - وهنا الخير هو المراد - قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥]، وقوله تعالى: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٥] ويُعبر به كذلك عن المحجة، قال تعالى: ﴿سُبُلَ السَّلَامِ﴾^(١).

(١) انظر: المفردات للراغب الأصفهاني، مادة (سبل).

الصبر على الأذى:

وقول الرسل الكرام عليهم السلام ﴿وَلَصَّبِرْتَ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا﴾ تلك عبارة تظهر مدى إصرارهم على تبليغ رسالتهم مهما كانت الصعوبات والعوائق، يريدون أن يقولوا: لن نتوانى عن دعوتكم ولن نضعف ولن نتزعزع، ولنستمر على وعظكم ونصحكم، ولن نبالي بما لاقيناه منكم من أذى وبها سناقيه، فإننا سنوطن أنفسنا على ما ينالنا منكم من عنت وإيذاء وتهديد احتساباً للأجر ونصحاً لكم؛ لعل الله يهديكم مع كثرة التذكير.

إنه الإيمان الراسخ، إيمان الواصلين من نصر الله، إيمان المتوكل عليه حق التوكل، لا يبالي في سبيل نشر كلمة الله ودعوته بكل ما يتعرض له، وما يوجه إليه من اتهامات باطلة.

تأمل كيف أكد الرسل عليهم السلام عزمهم على مواصلة تبليغ رسالاتهم وتحملهم المشاق وصبرهم حيث قالوا: ﴿وَلَصَّبِرْتَ﴾ مؤكدين باللام الموطئة للقسم - بدليل إثبات نون التوكيد في آخر الفعل؛ لأنها تلازم القسم - . و(ما) في قوله: ﴿عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا﴾ يجوز أن تكون مصدرية، والتقدير: (على إيذائكم إيانا). ويجوز أن تكون موصولة والعائد محذوف، والتقدير: الذي آذيتمونا به.

سر التعبير بالماضي ﴿مَا آذَيْتُمُونَا﴾:

وعُبر بالماضي ﴿مَا آذَيْتُمُونَا﴾؛ للإلماح إلى أن الرسل عفوا عن أذاهم في الماضي فلا يجازونهم به - أي الكفرة - فهو إغراء لهؤلاء المؤذنين بالتوبة.

وفي التعبير بالماضي أيضاً إشارة إلى استمرار الصبر على الأذى، فكأنهم قالوا: نصبر على أذى متوقع كما صبرنا على أذى مضى. وهذا إيجاز بديع.

وعُدل عن المضارع (تؤذوننا)؛ لأنهم ينتظرون أمر الله في الاستقبال، فقد يأمرهم بالجهاد، وقد يأمرهم بالصبر؛ لذلك لم يصرحوا باستمرار الصبر وإن ألحوا إليه انتظاراً لأمر ربهم في أقوامهم، وذلك تأدب منهم معه سبحانه وتعالى.

وإسناد الإيذاء إلى ضمير الكفار وإيقاعه على ضمير الرسل فيه تفضيع لجرم هؤلاء الكفار حيث أوقعوا بأنفسهم العذاب بأشرف خلق الله تعالى، وهم الرسل الذين اصطفاهم ليلغوا رسالة السماء إلى أهل الأرض. ولولا قصد هذا المعنى لُعب بالمصدر الصريح فقل مثلاً: (لنصبرن على الأذى أو أذاكم). والله أعلم بمراده.

تكرير الأمر بالتوكل مرتين:

وكرر الأمر بالتوكل مرتين حيث قيل قبل هذه الآية مباشرة: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾، وقيل في هذه الآية: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾. ولعل السر في هذا هو أن الأول لاستحداث التوكل، والثاني لتثبيتته، ومعناه: فليثبت المتوكلون على ما استحدثوا من توكلهم^(١).

والمراد بالمتوكلين في الآية: المؤمنون. والتعبير عنهم بذلك لسبق اتصافهم به في الآية السابقة، أو أن هذا من باب المجاز المرسل بعلاقة ما سيكون أي: ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

وسر التعبير بالمجاز هنا «هو شدة الرغبة في التوكل على الله، وبه يكمل إيمان المؤمن، ويعز جانبه، ولأن التوكل على الله يستلزم الإيمان به، والعكس لا يستلزم»^(٢).

(١) انظر: الكشف ٢ / ٢٩٦.

(٢) التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم ٢ / ١٧٣.

عجز فكري ونفسي:

وبهذه الآية الكريمة ينهي الرسل الكرام جوابهم، وعندئذ يُظهر الكفر وجهه القبيح بعد أن فند المرسلون مطاعنه، فأصبح عاجزاً عن المجادلة أو المحاوره أو المناقشة أو الاستماع لصوت الفطرة أو العقل، وإحساسه بهزيمته الفكرية والنفسية والعقدية يهدد أهل الكفر في صُلَف وغرور، ويعلنون عن عزمهم الأكيد على طرد، أي نفي رسلهم وإخراجهم من أرضهم أو صيرورتهم في ملتهم، اقرأ قوله تعالى حاكياً هذا الوعيد على لسان عتاة الكفر: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾.

والإظهار في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في مقام الإضمار: (وقالوا) يوحي بأن هؤلاء القائلين بعض المتمردين العاتين أو الرؤوس المغالين في الكفر من أولئك الأمم الكافرة التي نقلت مقالاتهم الشنيعة؛ ولذلك عدل عن الإضمار^(١). ويمكن أن تكون علة الإظهار في مقام الإضمار زياد تسجيل اتصاف أقوام الرسل بالكفر حتى صار لهم نعتاً يُعرفون به^(٢).

وأكد الكفار توعدهم بإخراج الرسل بلام القسم ونون التوكيد الثقيلة؛ لإظهار عزمهم على تنفيذ تهديدهم، حيث عرض الكفار من خلال قَسَمهم على رسلهم أمرين لا ثالث لهما ولا بد من تحقق أحدهما، وهو لنخرجنكم أو لتعودن، ونحن نقسم عليكم بذلك. و(أو) في الآية أفادت هذا المعنى، أي التخيير بين أمرين، أولهما: - من فَعَلَ الكفرة وهو الإخراج والطرْد من أرضهم، والثاني: من فَعَلَ الرسل وهو العودة إلى دين هؤلاء الأقوام. وقيل: إن (أو) بمعنى (حتى)، وهذا غير دقيق؛ لأنه يخل بمعنى التخيير، إذ

(١) انظر: إرشاد العقل السليم ٥ / ٣٨.

(٢) انظر: التحرير والتنوير ٧ / ٢٠٦.

يوهم الظاهر من قولهم: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ أن الرسل كانوا على ملتهم في أول الأمر حتى يعودوا فيها!!.

والجواب عن هذا من وجوه:

أولها: أن (عاد) بمعنى (صار) وهذا شائع في الاستعمال العربي ومن قولهم: ما عاد لفلان مال، أي: ما صار له مال. والمراد بالعود إذن الصيرورة والانتقال من حال إلى حال أخرى، فالكفار يريدون - غباءً وحمقاً - من رسلهم أن ينتقلوا من الإيمان والتوحيد إلى التمسك بمعتقدهم وملتهم، وبهذا المعنى يندفع ما يوهمه ظاهر العبارة من أن العود يقتضي أن الرسل عليهم السلام كانوا - حاشاهم - على ملة الكفر قبل ذلك.

ثانيها: أن خطابهم موجه لكل رسول وأتباعه من المؤمنين، فَعَلَّبُوا الجماعة على الواحد.

ثالثها: المراد من العود في ملتهم سكوتهم عنهم وترك مطالبتهم بالإيمان كما كانوا قبل الرسالة.

وأقوى الوجوه عندي الوجه الأول؛ لكثرة ما يدعمه من شواهد، ومن قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيرِ﴾ [يس: ٣٩]. والله أعلم بمراده.

حرف الظرفية أبلغ في الدلالة على الاستقرار والتمكن:

والمراد بالملة: الدين. والظرفية في قولهم ﴿فِي مِلَّتِنَا﴾ مجازية.

وأوثر حرف الظرفية (في) على حرف الانتهاء (إلى) حيث كان الظاهر أن يقال: (أو لتعودن إلى ملتنا)؛ لأن حرف الظرفية أبلغ في الدلالة على الاستقرار والتمكن، وكأن هؤلاء الكفار لم يرضوا من رسلهم بأن يتظاهروا أنهم من أهل ملتهم، ولا بأن يصيروا إليها فقط؛ لأن هذا يعني عدم ثبوتهم عليها وتمكنهم فيها، وهذا ما يدل عليه

حرف الانتهاء (إلى) لو عُدِّي الفعل به، ولكنهم يرغبون في استقرار الرسل في دينهم وتمكنهم فيه، واعتقادهم فيه اعتقاداً جازماً يضمنون معه عدم خروجهم منه، وهذا المعنى هو ما كشف عنه حرف الظرفية (في)؛ ولذا قالوا: ﴿أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾. وقدم الكفار الخيار الأول وهو إخراج الرسل من أرضهم على الخيار الثاني؛ لسهولة تحقق الخيار بالنسبة للكفرة؛ لأن ظاهر الواقع يساعدهم على تنفيذه بخلاف عودة الرسل، أي صيرورتهم إلى ملتهم فهذا أمر مستبعد، وإن تظاهروا بإمكانيته كما دل عليه حرف الظرفية.

هكذا قطع أهل الكفر كل سبل المحاورة مع رسلهم؛ لذا كان لابد من إثبات معيته سبحانه لعباده ورسله المتوكلين عليه، وكان الإبراق بالتهديد الإلهي المرعب، والوعيد الرباني المزلزل رداً على وعيد وتهديد هؤلاء الطغاة الظالمين لخير عباد الله بعد أن أغلق مجال الحوار والحجة فقل: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ * وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾.

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ﴾ تشعرك بمعية الله تعالى:

تأمل أولاً موقع تلك الفاء في قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ﴾ فإنها تشعرك بمعية الله تعالى لرسله، وكأن هذا الوعيد للكفار بالإهلاك والوعد للرسل بالاستخلاف والتمكين جاء فور انتهاء تلك المحاورة وذلك التهديد.

تمكين المؤمنين:

وتأمل تأكيد الوعد والوعيد بنون العظمة ونون التوكيد الثقيلة، وكلتاها ذات ظل وإيقاع في هذا الموقف الشديد كما يقول صاحب الظلال. ثم تأمل التعبير بوصف الربوبية وموقعه البديع في هذا المقام بما يدل عليه من معاني اللطف والعناية والرعاية

والحفظ. ثم تدبر سر التعبير بالإهلاك في قوله تعالى ﴿لَنُهْلِكََنَّ﴾ وما فيه من دلالة على شدة الأخذ والتدمير؛ لأن الإهلاك: إذهاب الشيء إلى حيث لا يقع عليه الإحساس، ولا عجب في ذلك؛ لأنه إهلاك العزيز المنتقم الجبار سبحانه وتعالى.

التعبير باسم الفاعل ﴿الظَّالِمِينَ﴾:

والتعبير باسم الفاعل ﴿الظَّالِمِينَ﴾ أوماً إلى سبب استحقاق هؤلاء الكفار الهلاك والتدمير، وهو عراقتهم في الظلم وثباتهم عليه.

والتعبير باسم الفاعل يلمح أيضاً إلى العدالة الإلهية بالإشارة إلى أن هذا الإهلاك لم يشمل من تاب من هؤلاء الكفار الظالمين، ومن لم يكن عريقاً في كفره، ومن يُرجى إيمانه من هؤلاء الكفرة.

والمراد من إسكان الأرض: التمكين فيها، ففي الجملة كناية عن صفة. والمقصود أرض الظالمين وديارهم، فاللام للعهد.

والخطاب في ﴿وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ﴾ للرسول، وهذا يستتبع تمكين الذين آمنوا بهم أيضاً.

والمراد من قوله تعالى: ﴿مَنْ بَعْدَهُمْ﴾ من بعد إهلاكهم. وقوله: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ اسم الإشارة يعود إلى الموحى به، وهو إهلاك الظالمين وإسكان الرسل ومن معهم، أي ذلك الأمر حق ومحقق وثابت وهو الموحى به؛ لذلك جاء اسم الإشارة مفرداً مع أن المشار إليه اثنان.

وقوله: ﴿لِمَنْ خَافَ مَقَامِي﴾ معناه: موقفي الذي يقف به العباد بين يدي للحساب يوم القيامة. والمقام اسم مكان، وأضيف إلى ضميره سبحانه وتعالى؛ لكونه بين يديه سبحانه. وقوله: ﴿وَخَافَ وَعِيدِ﴾ أي: وعيدي بالعذاب الشديد.

والتعبير القرآني ﴿خَافَ مَقَامِي﴾ أبلغ مما لو قيل: «خافني»، لأن قوله سبحانه ﴿خَافَ مَقَامِي﴾ كناية عن نسبة، فهي أبلغ في إثبات الخوف من غضبه سبحانه، بيان ذلك أن من خاف مقامه - أي حسابه سبحانه - فإن خوفه منه سبحانه لا شك سيكون أقوى وأبلغ.

إذن، فإن ذلكم التمكين والاستخلاف في الأرض ليس محاباة ولا جزافاً، إنما هو سنة الله العادلة، وذلك الاستخلاف والإسكان لمن خاف مقام الله فلم يتطاول ولم يتعال ولم يستكبر، وخاف وعيده خوفاً شديداً، فحسب حسابه، واتقى أسبابه وغلب خوفه على رجائه، ولم يفسد في الأرض ولم يظلم، فهو يستحق الاستخلاف حقاً^(١).

عذاب غليظ:

قال تعالى: ﴿وَلَنُصَبِّحَنَّكُمْ أَلْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدٍ * وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ * مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ * يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَمِيئٍ * وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم: ١٤-١٧].

لا يوجد حرف في كتاب الله مقحم:

وقيل: إن لفظ ﴿مَقَامِي﴾ مقحم أي زيادة، وهذا قول ساقط، لأنه لا يوجد حرف في كتاب الله إلا وهو في موضعه الذي استدعاه السياق، وتطلبه المعنى، حتى وإن كان مرادهم بالزيادة، الزيادة المعنوية أي: الزيادة في المعنى، فلا ينبغي أن يطلق على أي حرف

(١) أريد أن أسأل سؤالاً واحداً وأترك للقارئ فرصة الإجابة عليه: هل المسلمون اليوم أهل لاستخلاف التمكين؟ هل هم أهل لعامة الأرض؟ هل تحقق فيهم شرط الاستخلاف؟ ندعو الله أن يمكن لدينه ولعباده المؤمنين.

أو كلمة في القرآن أنه مقحم أو زيادة أو ما شاكلهما تأدياً مع كتاب الله تعالى، وتنزيها له.

ومعنى ﴿وَخَافَ وَعِيدِ﴾ خاف وعيدي بالعذاب أو عذابي الموعد للكفار.

وعطف جملة ﴿وَخَافَ وَعِيدِ﴾ على جملة ﴿خَافَ مَقَامِي﴾، وأعيد الفعل ﴿خَافَ﴾ دون الاكتفاء بعطف ﴿وَعِيدِ﴾ على ﴿مَقَامِي﴾، لأن المرد التعريض بالكافرين بأنهم لا يخافون وعيد الله، فقد حسبه عبثاً ولم يعبؤوا به بدلالة قوله سبحانه: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ [العنكبوت: ٥٣].

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَنَسْكَنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ إدماج بديع، حيث جمع في وعد المؤمنين وعيد الكافرين. وفي الجمع بينهما دلالة على أن من حق المؤمن أن يخاف غضب الله وألا يأمن مكره تعالى، وأن يخشى وعيده، فهذا دأب المتقين الصالحين.
معاني «الاستفتاح»:

أما قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ فإننا نقف أمامه الوقفات الآتية:

- الاستفتاح هو طلب الفتح أي: النصر. ويجوز أن يكون من الفتاحة وهي الحكومة أي القضاء والفصل، والجبار هو الإنسان المتعالي المتعاضم الشديد الكبر، أو هو من يجبر نقيصته بادعاء منزلة من التعالي لا يستحقها، وهذا لا يقال إلا على طريق الذم، وهذا المعنى يطلق على الجبار في صفة الإنسان، كما قال الراغب في مفرداته. والعنيد هو المعاند للحق، المخالف له.

واختلفوا في مرجع الضمير في قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَفْتَحُوا﴾ على أقوال:
أحدها: وهو أشهرها وأقواها: أنه عائد على الرسل الكرام، فالرسل عليهم

السلام بعد أن استبشروا بوعد الله لهم بأنه سبحانه مهلك الظالمين بسبب ظلمهم، وبعد أن يسوا من إيمان هؤلاء الظالمين سألوا ربهم النصر على أقوامهم، كقوله تعالى: ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾ [الأنفال: ١٩] أو سألوه القضاء والحكم بينهم وبين أقوامهم كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩]. والجملة في قوله تعالى: ﴿وَاسْتَفْتَحُوا﴾ معطوفة على قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ﴾ ويؤيد هذا الرأي القائل بعود الضمير إلى الرسل قراءة ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وابن محيصن (واستفتحووا) «بكسر التاء» أمرٌ للرسل عليهم السلام، وعطفه على قوله تعالى: ﴿لَنْهْلِكَنَّ﴾ أي: أوحى إليهم ربهم وقال لهم: لنهلكن وقال لهم استفتحووا، فيكون قوله: (واستفتحووا) بصيغة الأمر داخلاً تحت الموحى دون المحكي، والمعنى العام بناء على عود الضمير إلى الرسل: واستفتح الرسل على أعدائهم فنصروا وفازوا بالمقصود وخاب الكفرة.

وكان مقتضى الظاهر أن يقال: «وخاب الذين كفروا»، ولكن عدل عنه إلى ﴿كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾، للإشارة إلى سبب خيبتهم وهي تجبرهم وعنادهم.

ثانيها: أن الضمير عائد على الكفرة بناء على ظنهم أنهم على الحق ورسلمهم على الباطل، والمعنى: وطلب الذين كفروا النصر على رسلمهم فخابوا في ذلك ولم يفلح استفتاحهم. والعطف حينئذ على قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلرُّسُلِ﴾ أي: قالوا ذلك واستفتحووا.

وأخر قوله تعالى: ﴿وَاسْتَفْتَحُوا﴾ عن قوله تعالى: ﴿لَنْهْلِكَنَّ﴾ وقوله: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ﴾، للدلالة على أن الرسل لم يزالوا داعين إلى أن تحقق موعود الله تعالى لهم من إهلاك الظالمين.

وقد تسأل: ما دلالة استفتاح الذين كفروا على رسلهم، أي طلبهم النصر على رسلهم؟ ويجاب عنه: بأنهم لما قوي تكذيبهم وأذاهم ولم يعاجلوا بالعقوبة إمهالاً لهم منه - سبحانه - ظنوا أن ما قيل لهم باطل فاستفتحوا على سبيل التهكم والاستهزاء والسخرية كقول قوم عاد: ﴿فَأَيْنَا يَمَّا نَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ﴾ [الأعراف: ٧٠] وقول قوم شعيب: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٧].

ثالثها: أن الضمير في قوله: ﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ﴾ يعود إلى الرسل عليهم السلام ومكذبيهم^(١)، لأن كلا الفريقين دعا الله بالنصر، وفتح الله للمؤمنين وخاب الكافرون. وقلنا إن أرجح الآراء الرأي الأول لمناسبته لظاهر السياق.

وفي قوله تعالى: ﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ﴾ إيجاز «بحذف الفاء الفصحية والمعطوف عليه، أي استفتحوا ففتح لهم وظفروا بها سألوا وأفلحوا وخاب كل جبار عنيد»^(٢)، وسر الحذف الإيحاء إلى سرعة إجابة الله دعاء رسله وأنه بمجرد انتهائهم من الدعاء كانت الإجابة بالنصر. إذن تستطيع أن تقول: إن قوله تعالى: ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ هو نتيجة الدعاء أو ثمرته.

عاقبة المتجبرين:

والخيبة مطلق الحرمان أو فوت الطلب كما في قوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّهَا﴾ [الشمس: ١٠] وإسناد الخيبة إلى كل منهم ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ للمبالغة في تعميم الخيبة على الكفرة. وهكذا يجب أن تكون عاقبة هؤلاء المتجبرين المعاندين. وبين سبحانه عاقبة كل جبار معاند وحاله في الآخرة فقال: ﴿مِّنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ

(١) راجع هذه الأقوال في: الكشف ٢/ ٢٩٧. وروح المعاني ١٣/ ٢٠٠، ٢٠١، واللباب في علوم الكتاب ج ١١/ ٣٥٦، ٣٥٧، والتحرير والتنوير م ٧ ج ١٣/ ٢٠٩.

(٢) روح المعاني ١٣/ ٢٠١.

صَكِيدِرْ * يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١﴾.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ﴾ وصف لحاله في الآخرة حين يبعث، فوراء في الآية بمعنى «بعد»، أي: من بعده جهنم، والمراد بعد هلاكه. ومن شواهد استخدام وراء بمعنى «بعد» قول النابغة:

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وليس وراء الله للمرء مذهب^(١)
وكذلك معناها في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾، وقيل: ﴿وَمِنْ وَرَائِهِ﴾ أي: من أمامه وبين يديه، وكأن جهنم بين يدي الكافر وهو على شفيرها. ومن شواهد استخدام «وراء» بمعنى أمامه قول الشاعر:

ومن ورائك يوم أنت بالغه لا حاضر معجز عنه ولا بادي
وقوله الآخر:

أليس ورائي إن تراخت منيتي لزوم العصا تحنى عليها الأصابع
ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: ٧٩] أي كان أمامهم. وعلى كلِّ فإن استعمال «وراء» في هذين المعنيين المشار إليهما بناء على أنها من الأضداد أو المشتركة اللفظية عند بعض علماء اللغة، ومنهم أبو عبيدة والأزهري. وقيل: إن اللفظ مستعمل في الدلالة على الزمان المستقبل مجازاً، حيث استعملت «وراء» في معنى ما ينتظره ويحل به من بعد، فاستعير لذلك بجامع الغفلة عن الحصول، والمعنى: أن جهنم تنتظره^(٢)، فهو صائر إليها بعد موته.

(١) روح المعاني ١٣/ ٢٠١.

(٢) التحرير والتنوير ١٣/ ٢١٠.

وعطف قوله: ﴿وَيُسْقَىٰ مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ﴾ على محذوف قدره الزمخشري: «من ورائه جهنم يلقي فيها ما يلقي، ويسقى من ماء صديد»^(١).

التنكير في «ماء» للنوعية:

والتنكير في «ماء» للنوعية، فهذا الماء الذي يسقاه الكافر في النار ماء مخصوص لا كالمياه المعهودة. والصديد: هو ما يسيل من أجساد أهل النار من القيح والدم وهو غسالة أهل النار، والعياذ بالله.

وفي إعراب ﴿صَدِيدٍ﴾ وجوه: أولها: أنه عطف بيان لـ ﴿مَّاءٍ﴾ بناء على مذهب الكوفيين في جواز عطف البيان في النكرات. وهذا رأي الزمخشري.

وفي إبهام الماء بتنكيره أولاً حيث قيل: ﴿وَيُسْقَىٰ مِنْ مَّاءٍ﴾ ثم بيانه بقوله تعالى: ﴿صَدِيدٍ﴾ تهويل وتخويف.

وثانيها: أنه نعت لـ ﴿مَّاءٍ﴾ إن اعتبر لفظ «الصديد» من المشتقات، فهو من الصد أي: المنع من الشرب، وكأن هذا الصديد لكرهته مصدود عنه، أي: يمتنع عليه كل أحد. والمعنى: أنهم يشربون الصديد نفسه المشبه للماء. ولما كان الصديد يشبه الماء فقد أطلق عليه ماء وليس بماء حقيقة، والمهم أن في جعل الصديد ماء تشبيهاً بليغاً في الإسقاء، لأن شأن الماء أن يسقى.

وثالثها: أن يكون بدلاً من ﴿مَّاءٍ﴾ إن اعتبر لفظ ﴿صَدِيدٍ﴾ جامداً، وعليه فإن إطلاق الماء على الصديد ليس من الحقيقة وإنما أطلق عليه باعتبار أنه بدله.

سر التعبير بالفعل المبني للمجهول «يسقى»:

والتعبير بالفعل المبني للمجهول «يسقى» للإشارة إلى نزاع اختيار المسقى وسلب

إرادته في قبول الشرب أو رفضه. فهو إما مأمور بشرب الصديد - والعياذ بالله - أو مضطر إلى شربه لعطشه الشديد. وفي تخصيص السقي من هذا الماء بالذكر من بين عذابها يدل على أنه من أشد أنواع العذاب.

وجملة ﴿يَتَجَرَّعُهُ﴾ يجوز أن تكون صفة لـ ﴿مَاءٍ﴾، وأن تكون حالاً من الضمير في «يسقى»، أو أن تكون مستأنفة، وكأن سائلاً سأل: فماذا يفعل به؟ فقيل: ﴿يَتَجَرَّعُهُ﴾. والتجرع على صيغة «تفعل» ويدل على التكلف والتمهل، أي: أن هذا الكافر الجبار العنيد عندما يسقى هذا الماء الصديد فإنه يتكلف جرعه، أي: بلعه مرة بعد أخرى، فيبلعه شيئاً فشيئاً لمرارته وحرارته. وقوله: ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ﴾ في موضع الحال من فاعل يتجرعه أو من مفعوله أو منهما جميعاً.

والإساعة: انحذار الشراب إلى الحلق بقبول النفس من دون غصة، وذلك إذا كان الشراب غير كريبه الطعم ولا الريح، يقال: ساغ الشراب، وشراب سائغ. ومعنى «لا يكاد يسिغه» أي: لا يقارب أن يسيغه فضلاً عن أن يسيغه بالفعل. فقوله: ﴿وَلَا يَكَادُ﴾ لنفي المقاربة يعني: ولم يقارب أن يسيغه فكيف تحصل الإساعة؟ وذلك نحو قوله تعالى: ﴿فَذَبِّحْهُنَّ وَأَمَّا كَاذِبًا فَيَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: ٧١]، وقوله تعالى: ﴿إِذَا أَخْرَجَ يَكْدَهُ، لَمْ يَكْدِرْنَهَا﴾ [النور: ٤٠].

تأمل هذا العذاب الشديد للكافر، فهو يسقى عنوة هذا الماء الصديد، أو يشربه مضطراً لشدة عطشه، ولكنه لا يقارب أن يسيغه بل يغص به فيشربه مضطراً جرعة بعد جرعة فيطول عذابه تارة بالحرارة والعطش، وتارة بشربه على تلك الحالة الشديدة. اللهم أعذنا. وعبر عن ذلك بالإساعة لأنها المعهودة في الأثرية.

مشهد فظيع:

عن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَسُقَىٰ مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ﴾

* يَتَجَرَّعُهُ ﴿١﴾ قال: «يقرب إليه فيكرهه فإذا أدنى منه شوى وجهه، ووقعت فروة رأسه، فإذا شربه قطع أمعائه حتى يخرج من دبره»^(١)، ويؤيد هذا الحديث الشريف قوله تعالى: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءُهُمْ﴾ [محمد: ١٥]. وقوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩] ففي تلك الحالة الفظيعة التي عليها الكافر في جهنم والعياذ بالله تحيط به أسباب الموت من الشدائد وأنواع العذاب، وتأتيه سكرات الموت، ولكنه لا يموت فيستريح بل ينتظره عذاب شديد متواصل الآلام من غير فتور، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَمَيَّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾.

والتعبير بمادة الإتيان وإيثارها على مادة المجيء لسهولة وجود أسباب الموت أو آلامه، بدليل قوله تعالى: ﴿مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ فأسباب الموت متوفرة ومحيطه بهذا الكافر وهو في سجنه في جهنم من جميع الجهات، لذا كان من الملائم التعبير بـ«يأتيه».

وإسناد الإتيان إلى الموت استعارة مكنية، أو أن الكلام فيه إيجاز بحذف المضاف، والتقدير: ويأتيه أسباب الموت، والمراد بالعذاب الغليظ: «الشديد القوي»، ففي وصف العذاب بالغلظة استعارة تصريحية. والمقصود أن العذاب الذي ينتظر الكافر ليس بأخف مما هو فيه.

(١) حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَسُقَىٰ مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ﴾ يَتَجَرَّعُهُ ﴿١﴾ قال: «يقرب إلى فيه فيكرهه، فإذا أدنى منه شوى وجهه ووقعت فروة رأسه، فإذا شربه قطع أمعائه حتى يخرج من دبره. يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءُهُمْ﴾ ويقول: ﴿وَلَنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾». أخرجه: الترمذي في سننه: كتاب صفة جهنم، باب ما جاء في صفة شراب أهل النار حديث (٢٥٨٣)، وقال عقبه: حديث غريب، وضعفه الألباني في كتابه: ضعيف سنن الترمذي.

وبعد فقد صورت لنا تلك الكلمات الواصفة الكاشفة ذلكم المشهد الفظيع من مشاهد تعذيب ذلك الكافر المتغطرس العنيد «والمشهد هنا عجيب، إنه مشهد الخيبة لكل جبار عنيد. مشهد الخيبة في هذه الأرض، ولكنه يقف هذا الموقف، ومن ورائه تخايل جهنم وصورته فيها، وهو يسقى من الصيد السائل من الجسوم، يسقاه بعنف فيتجرعه غصباً وكرهاً، ولا يكاد يسيغه، لقدارته ومرارته. والتقرز والتكره باديان نكاد نلمحهما من خلال الكلمات، ويأتيه الموت بأسبابه المحيطة به من كل مكان ولكنه لا يموت، ليستكمل عذابه. ومن ورائه عذاب غليظ. إنه مشهد عجيب يرسم حالة الجبار الخائب المهزوم ورائه مصيره، يخيل له على هذا النحو المروع الفظيع. وتشارك كلمة ﴿غَلِيظٌ﴾ في تفضيع المشهد تنسيقاً مع القوة الغاشمة التي كانوا يهددون بها دعاة الحق والخير والصلاح واليقين»^(١).

أدعو الله العلي القدير الغفور الرحيم أن يحرم وجوهنا وأجسادنا على النار وأن يرزقنا الهداية وحسن الخاتمة، إنه سميع مجيب.

أعمال باطلة:

قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَلُهُمْ كَرَمًا ۖ اَشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الصَّلَٰلُ الْبَعِيدُ * أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۚ إِنَّ يَشَأْ يَذْهَبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَٰلِكَ عَلَىٰ اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾. [إبراهيم: ١٨-٢٠].

بينت الآيات السابقة شيئاً مما يلاقه الكافر من صنوف العذاب الشديد في جهنم والعياذ بالله، وفي الآية الأولى هنا يأتي التمثيل بأعمال الكفار في أعقاب التذكير بسوء

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٠٩٣-٢٠٩٤.

مصيرهم وتعدد بعض صنوف عذابهم يوم القيامة. ففي الآية مَثَلٌ ضربه الله تعالى لبيان عدم انتفاع الكفار في الآخرة بأعمال البر التي كانوا يعملونها كإغاثة الملهوف، وإكرام الضيوف، وإطعام الفقراء، وعتق الرقاب، ورفادة الحجيج، وذلك لأنها فقدت أهم شروط قبولها وهو الإيثار بالله تعالى، فتلك الأعمال بنيت على أساس غير صحيح، لذا فهم لا ينتفعون بها يوم القيامة.

ريح العذاب:

وقد شبهت تلك الأعمال التي يرجون نفعها ولا يجدون لها أثراً ولا نفعاً في الآخرة برماد تأتي عليه ريح عاصفة شديدة الهبوب. والمثل: هو الحالة العجيبة أو الصفة الغريبة، وهو يُضرب للتوضيح والإبانة.

قوله: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ﴾ مبتدأ محذوف الخبر عند سيبويه، تقديره: فيما يتلى عليكم مثل الذين كفروا، وقال الفراء: التقدير: مثل أعمال الذين كفروا، بحذف المضاف اعتماداً على ذكره بعد المضاف إليه. وقيل: ﴿مَثَلُ﴾ مبتدأ، خبره ﴿أَعْمَلُهُمْ كَرَمَادٍ﴾ على أن معناه الصفة، فكأنه قال: صفتهم العجيبة أعمالهم كرماد^(١).

وشبهت ﴿أَعْمَلُهُمْ﴾ أي: التي يرجون بها نفعاً أو خيراً في قلة انتفاعهم بأنها ﴿كَرَمَادٍ أَشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ﴾ والرماد: ما يبقى من احتراق الحطب والفحم.

سر إيثار الرماد (المشبه به) على التراب:

تأمل سر إيثار الرماد (المشبه به) على التراب، حيث لم يقل مثلاً: «أعمالهم كتراب»، والسر في ذلك الإشارة إلى عدم الانتفاع بها في الآخرة، فالرماد لا فائدة منه، أما التراب

(١) انظر: مفاتيح الغيب ١٣/ ٣١٥.

ففيه كثير من الفوائد، لذا أُوثر اللفظ الذي يدل على عدم الانتفاع منه، فقليل (رماد). فتصوير أعمال الكافرين وتشبيهها بالرماد فيه دلالة على قلة شأنها وعدم جدواها. والرماد عنصر يمثل البيئة الطبيعية المألوفة لدى الإنسان والمكشوفة أمامه، فالتمثيل بالرماد إذن في قمة الإبداع والتأثير، لانسجامه مع الغرض وإبرازه للمضمون، وتأكيده المراد في النفس، وبالتالي يتحقق غرض التهديد والزجر والوعيد للكافرين من خلال الواقع المادي الملموس في أسلوب مُصَوَّر موحٍ. وهكذا ينطق المثل القرآني بأبلغ موعظة تتغلغل إلى القلوب اليقظة وتسرب إلى الأفئدة الواعية وتذكرها بعواقب الشرك والجحود والكفر. والتذكير في (رماد) للتحقير. ووصف الرماد بجملة ﴿أَشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ﴾.

استعمال الريح والرياح في البيان القرآني:

وتأمل صورة الريح هنا تجدها صورة فيها ريح توشك أن تدمر، فللريح ثورة وغضب بحيث تبث الهول، وتنشر الرعب، فالريح هنا ليست هادئة ووديدة تُبَشِّرُ بالخير والرزق ولكنها ريح شديدة الهبوب، سريعة الحركة لا خير فيها. ونريد في هذا السياق أن نشير إلى الاستعمال القرآني لكلمة ﴿الرِّيحُ﴾ مفردة وجمعاً، ومن خلال تتبع مواضع أفراد الريح وجمعها في القرآن الكريم نجد أنها تفرد في مواطن العذاب غالباً، وتجمع في مواطن الرحمة.

ومن شواهد استخدامها مفردة ما ورد في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ﴾ [آل عمران: ١١٧].

﴿أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ [الإسراء: ٦٩].

﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١].

﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأحقاف: ٢٤].

﴿وَلَيْنَ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾ [الروم: ٥١].

﴿إِذْ جَاءَ تَكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾ [الأحزاب: ٩].

﴿إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلِلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ﴾ [الشورى: ٣٣].

اقرأ تلك الآيات الكريمة مرة ثانية، وتدبر سياقها تجد أن الريح فيها جاءت مفردة في مقام العذاب أو الشر أو الإهلاك.

ومن شواهد استخدام الريح مفردة في مجال الخير قوله تعالى: ﴿وَجَرَيْنَ رِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ [يونس: ٢٢].

ولكننا نلاحظ أنها لم تأت مطلقة بل قيدت بالوصف ﴿طَيِّبَةٍ﴾، ليكون بمثابة الاحتراس من أن تكون ريحاً مهلكة كأغلب استعمالاتها مفردة.

ومن شواهد استعمال الريح جمعاً ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ [الأعراف: ٥٧].

﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفِعَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ [الحجر: ٢٢].

﴿وَمَنْ يُرْسِلِ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ [النمل: ٦٣].

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾ [الروم: ٤٦].

﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ [فاطر: ٩].

واضح أن الرياح هنا جاءت في سياقات تدل على الخير والمنفعة، ولكن يبقى سؤال مهم جداً، وهو: لماذا جاءت الرياح في جانب العذاب مفردة؟ ولماذا أوردت جمعاً في جانب الخير؟ والجواب أن ريح العذاب لما كانت شديدة مدمرة لا تهدأ ولا تنقطع، وكانت ملتزمة الأجزاء كأنها جسم واحد جاءت مفردة، أما رياح الرحمة فلأنها لينة متقطعة، متعدد هبوبها تثور أحياناً لتحمل معها السحاب المملوء بالغيث، وتهدأ أحياناً لتسمح بسقوط الأمطار، فكان تعدد هبوبها بمثابة رياح متعددة تبشر بالخير والرحمة. والله أعلم^(١).

صورة محسوسة:

ونعود إلى جملة الصفة في الآية ﴿أَشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ﴾، فالمعنى: أن الرياح حملت هذا الرماد وأسرعت الذهاب به، واشتدت مشتقة من الشد بمعنى العدو، كقولهم: شدّ عليه بمعنى: عدا عليه وغلبه. والباء للتعديّة أو للملازمة، واعتبارها للملازمة أولى لأنها أدل على الملازمة. ويجوز أن تكون اشتدت مشتقة من الشدة بمعنى القوة، أي: قويت بملازمة حمله. وهذا المعنى هو الأظهر، لدلالته على شدة أثر الرياح على الرماد وتبديده. وقوله تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ حال من (الريح). والعصف: اشتداد الريح. والمعنى: في يوم عاصف ريح، أو عاصف الريح، فحذف (الريح) لتقدم ذكرها.

وفي وصف اليوم بأنه عاصف مجاز عقلي بعلاقة الزمانية حيث أطلق الزمان (اليوم) وأريد ما يقع فيه. وبلاغة هذا المجاز في دلالاته على المبالغة في استغراق عصف الرياح لليوم كله، حتى كأنه هو الذي اتصف بالعصف وليس غيره، وكأن الزمان اليوم يشارك في الفعل وصنعه.

(١) انظر: المحرر الوجيز لابن عطية الأندلسي ٤٦٩/١، والإعجاز البياني في صيغ الألفاظ، د. محمد

وقوله تعالى: ﴿لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ﴾: بيان لجملة التشبيه، والمعنى: أنهم لا ينتفعون يوم القيامة أو لا يجدون أثراً لأعمال الخير التي عملوها، فلا يخفف عنهم بها عذاب، ولا ينجون من دخول النار.

وهكذا رأينا في هذا التشبيه التمثيلي المركب كيف عبّر بالصورة المحسوسة المشاهدة عن المعنى الذهني المجرد وهو حبوط أعمال الكافرين وعدم انتفاعهم بها، وذهابها هباءً منثوراً، فإذا به يتحول إلى صورة شاخصة تلعب الحركة فيها دوراً أساسياً ومؤثراً. فهي هي ذي أعمالهم المَحْبُطَةُ تبدو في عدم الانتفاع بها يوم القيامة كرماد تثيره الريح العاصف فتتفرق أجزاءه ويتبدد ولا يجد مستقراً، وهذا الرماد الموصوف بالتبدد والتفرق بفعل الريح الشديدة تُشَبَّه به تلك الأعمال، من وجوه الخير والبر التي أبطلها الكفر وأحبطها عدم الإيمان، بحيث لا يبقى من أعمالهم معه أثر ولا نفع، كما قال تعالى في آيات آخر: ﴿وَقَدْ مَنَّا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِن عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

وقوله: ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١١٧].

الضلال البعيد:

ويأتي في أعقاب هذا التمثيل الرائع ما يشير إلى تلك العواقب التي تحيق بالكافرين، فيجيء التذييل ﴿ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾، أي: ذلك الأمر الشديد الشناعة، أو ما دل عليه التمثيل من ضلالهم مع حساباتهم أنهم على شيء هو الضلال والبعد كل البعد عن جادة الحق والصواب. ووصف الضلال بالبعيد مجاز عقلي؛ لأن الذي يوصف بذلك هو الضال، وسر المجاز هنا المبالغة في إثبات ضلال الكفار.

ولا يفوتني أن أشير إلى سر تقديم ﴿مِمَّا كَسَبُوا﴾ على ﴿شَيْءٍ﴾ في قوله تعالى:

﴿لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ﴾، وذلك للاهتمام بما كسبوه، فهم كانوا يحسبونه شيئاً من المكارم والأعمال الصالحة، فلا يجدونه شيئاً، وذلك لأنه فقد شرطي القبول وهما الإيمان والإخلاص. إذن قدم الكسب في الآية لأنه، أي الكسب - المراد به العمل - هو المقصود بالذكر، ولذلك أشار إليه بقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾^(١).

ويعقب هذا المثل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ فبعدما ذكر سبحانه جزاء الكفار في الآخرة، أردف ببيان قدرته سبحانه، والمعنى: ألم تعلم أن الله أنشأ السماوات والأرض وما فيهما بالحق والحكمة؟ فقد خلقهما على الوجه الصحيح الذي يحق أن يخلقهما عليه، ليستدل بهما على كمال قدرته، وعدم الحاجة إلى أحد من خلقه بل ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ بل هو هين عليه يسير.

وفي الآية تعريض بالكفار وإشارة إلى عظيم جرمهم بكفرهم بالله الواحد الخالق القادر القهار. والخطاب في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ لكل من يتأتى له الخطاب، أو الخطاب للرسول ﷺ، والمراد به أمته، وقيل: الخطاب لكل واحد من الكفرة لقوله تعالى ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾^(٢). والرؤية في الآية قلبية أو قل: علمية، والاستفهام في الآية للتقرير ولإثبات مفعول الرؤية، أي: كون خلق السماوات والأرض لله تعالى. وأكد الخبر، لأنه من الحقائق العظيمة. وقدم ذكر السموات على الأرض، «لما في خلقها ورفعها بلا عمد من آثار قدرة الله الباهرة»^(٣). وأتبع الاستفهام بالجملة الشرطية ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ تنبيهاً على طريق التبصر والتفكير والاستدلال المنطقي؛ فإن من قدر على

(١) انظر: حاشية النيسابوري على جامع البيان للطبري ١٣/ ١٢٢، وزهرة التفاسير ٨/ ٤٠١١.

(٢) انظر: إرشاد العقل السليم ٥/ ٤٠.

(٣) التفسير البلاغي للاستفهام ٢/ ١٧٤.

خلق تلك السماوات في ارتفاعها واتساعها وعظمتها وما فيها من الكواكب بغير عمد، وخلق هذه الأرض بما فيها من جبال وسهول ووديان وصحارى وبحار وأشجار ونبات وحيوان على اختلاف أصنافها ومنافعها وأشكالها وألوانها هو أقدر على إهلاك المخاطبين وخلق آخرين بدّ لهم، ولذلك قال سبحانه: ﴿وَمَا ذَلِكُ﴾، أي إذهابكم والإتيان بخلق جديد مكانكم ﴿عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾، أي: بمتعذر أو متعسر. وهذه الآية «بيان لإبعاد الكفار في الضلال وعظيم خطئهم في الكفر بالله، لوضوح آياته الشاهدة له، الدالة على قدرته الباهرة وحكمته البالغة، وأنه سبحانه هو الحقيق بأنه يُعبد ويُخاف عقابه، ويُرجى ثوابه في دار الجزاء»^(١).

وقوله تعالى: ﴿يُذْهِبْكُمْ﴾ كناية عن صفة هي الإهلاك.

الضعفاء والمستكبرون:

قال تعالى: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ سُوءًا عَلَيْنَا لَلْأَجْرُ عَنَّا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ﴾ [إبراهيم: ٢١].

تصور الآية الكريمة حواراً في النار بين الأتباع والمتبوعين بعد أن برزت الخلائق إلى ساحة الحساب لا يحجبهم حجاب ولا يسترهم ساتر ولا يمنعهم مانع، وبدأ الحوار بسؤال الضعفاء الأذلاء للذين استكبروا: لقد كنا لكم في الدنيا عوناً وتبعاً ففعل ما تأمرونا به وننتهي عما تنهوننا عنه فلم نؤمن برسول ولا نبي ولم نُضغِ إلا لصوت واحد هو صوتكم وصممنا آذاننا عن سماع نداء دعاة الإيمان، فهل تدفعون عنا شيئاً من عذاب الله كما كنتم تعدوننا وتمنوننا؟ ويرد عليهم المستكبرون المتبوعون القادة ﴿لَوْ

هَدَنَّا اللَّهُ لَهْدِيَتَكُمْ ﴿١﴾ ولكن ضللنا فضلتم وليس لنا فكاك مما نحن فيه ولا خلاص إن صبرنا عليه أو جزعنا منه.

الضعفاء الحقيقيون:

وليس المقصود بالضعفاء الضعفاء الأجساد، ولكنهم ضعفاء الرأي والفكر والمنطق، ضعفاء الإرادة والمبدأ. هؤلاء هم الذين سلموا قياد تفكيرهم لسادتهم وكبرائهم وقادتهم، تنازلوا طائعين عن حريتهم الفكرية والعقدية فجعلوا أنفسهم تبعاً لسادتهم، وهم الذين آثروا العبودية لغير الله من عبده، وفضلوها على العبودية والانقياد لخالقهم سبحانه فاستذلوا وأذلوا لأنه لا عز إلا بالله ولا ذل إلا في الالتجاء إلى أحد من عبده. إن الإنسان الحر الكريم مهما أُوذي في جسده ومهما نيل من بدنه، ومهما عوقب في محبسه، ومهما أخضع جسده فإنه يبقى حراً في فكره حراً في إرادته، لأنه لا يستطيع كائن من كان ولا يقوى أي ظالم مهما كان بطشه أن يملك حبس فكر أو ضمير أو إرادة أحد إلا أن يسلمها صاحبها طواعية للقهر والإذلال والحبس، ولا عذر لهؤلاء الضعفاء الذين ألغوا عقولهم، وملكوا إرادتهم للمستكبرين فكانوا تبعاً لهم في العقيدة وفي التفكير وفي السلوك. فمن ذا الذي يملك أن يجعل أولئك الضعفاء يكفرون بالله ويدينون لغيره، وهو سبحانه المنعم عليهم؟ لا أحد إلا أنفسهم الضعيفة. إن ضعفهم مستقر في إرادتهم وفي قلوبهم وفي نخوتهم ومروءتهم وفي اعتزازهم بكرامتهم. ليس الضعف في الجاه أو المنصب أو المكانة أو المال كلا، إن هذه كلها أعراض خارجية لا تعد بذاتها ضعفاً يلحق صفة الضعف بالضعفاء. المستضعفون دائماً ما يكونون كثرة، والمستكبرون قلة، فأى شيء يُخضع الكثرة للقلة ويجعلها تنقاد لها إلا ضعف الروح والهمة والإرادة والكرامة. إن الذل لا ينشأ إلا عن قابلية الذل في نفوس الضعفاء الأذلاء^(١).

(١) انظر: في ظلال القرآن ٤/ ٢٠٩٦.

وأحب أن أنبه على أمر مهم جداً في هذا السياق، ألا وهو الإشارة إلى أنه ليس كل انقياد فكري للغير ضعفاً على إطلاق أو مذموماً عامة، بل إن الانقياد للحق والخير أمر محمود، والانقياد للباطل والشر أمر مذموم، هذه واحدة.

والثانية: أننا لا نغني أبداً بالنعي على ضعف الرأي والفكر، ومسلوبي الحرية والإرادة، الذين ينقادون لكل ناعق، ويلهثون وراء كل مبتدع دون أدنى تفكير منهم لما يُدعون إليه أو يطلبون له، ليس معنى هذا أننا ننادي أو نشجع الحرية المطلقة للرأي والعقل والتفكير. كلا فهذا أمر مرفوض تماماً إذا تصادم مع الدين أو تعارض مع النص، أو تناقض مع المبادئ والأخلاق. ودعك من هؤلاء الذين ينشرون شرورهم، ويدسون سمهم في أعمالهم التي يزعمون أنها فنية أو أدبية تحت مسمى الحرية الفكرية، وحرية الرأي والتعبير، فهؤلاء هم الضعفاء بأعينهم، لتغلب المفاصد وانتصار الشيطان عليهم حيث أغواهم وجعلهم من جنده وأعوانه، وإذا عارضهم أحد فيما يقدمون اتهموه بالتخلف والرجعية والجمود الفكري إلى آخر تلك الاتهامات والأوصاف. إننا لنؤكد دائماً أن الله تعالى كرم الإنسان، وكفل له حرية الإرادة والتفكير والاعتقاد كما قال سبحانه: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

والضعفاء هم الذين تنازلوا طواعية عن هذا التكريم وجعلوا أنفسهم تبعاً للظالمين والسادة، ولكنه سبحانه أمر بالاستجابة الفورية لدعوة الخير والإيمان فقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]. فلا مجال للاعتراض، ولا مكان لحرية الرأي، ولا فرصة للمخالفة إذا كان الأمر أو النهي من الشارع الحكيم. فلا يقبل مثلاً من فتاة مسلمة تدعوها إلى ارتداء الحجاب كما أمر الله تعالى أن تقول لك: لن أرثديه حتى أقنتع به، وقس على ذلك كثيراً من الأمور، وهذا مزلق من مزالق الشيطان، وقد يوقع صاحبه في الكفر - والعياذ بالله - إذا

أنكر معلوماً من الدين بالضرورة أو لم يقتنع به، والله عز وجل هو القائل: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلًّا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

ولنعد إلى تلك المراجعة أو المحاورة بين الفريقين في النار، حيث إن الظاهر - والله أعلم - أنها بعد دخولهم إليها بدليل قوله تعالى - حكاية عنهم -: ﴿وَإِذْ يَتَحَاوَتُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٧-٤٨]. وقوله تعالى: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرِينَهُمْ لَا وَلِيَّ لَهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَجَاءَتْهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ * وَقَالَتْ أُولِيَّهُمْ لِأُخْرِينَهُمْ فَمَا كَانَتْ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨-٣٩].

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا * رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَهُمُ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٧-٦٨].

أما محاورتهم وتخاصمهم في المحشر فيدل عليه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ ثَجْرَمِينَ * وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ آلِيلٍ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَلَ فِي آعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سبا: ٣١-٣٣].

موازنة بين مواضع التخاصم والتجادل والمراجعة:

وقبل أن نحلل الآيتين الكريميتين أريد أن نوازن بين المواضع المذكورة التي توضح التخاصم والتجادل والمراجعة بين المستضعفين والمستكبرين في النار. ففي آيات سور غافر والأعراف والأحزاب نص على أن التخاصم بين الفريقين إنما هو بعد دخولهم النار، ففي الأعراف قوله تعالى: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمُورٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ﴾، وفي غافر قوله: ﴿وَإِذْ يَتَحَاوَرُونَ فِي النَّارِ﴾، وفي الأحزاب جاء قوله تعالى قبل الآيات المذكورة: ﴿يَوْمَ نُقَلِّبُ وُجُوهَهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ﴾ [آية ٦٦] أما سورة إبراهيم فلا يوجد نص على أن تخاصم الفريقين في النار، وإن دل على ذلك سياق الآيات وما استشهدنا به من آيات السور المذكورة.

جاءت المراجعة في سورة إبراهيم هادئة، ولعلها كانت عند بداية دخولهم النار - والله أعلم - أما في بقية السور فقد كانت المخاصمة شديدة صاخبة.

ورد في آيات سور إبراهيم وغافر سؤال واحد من المستضعفين للمستكبرين، وهو دفع شيء من عذاب الله وتحمله عنهم، فقالوا في سورة إبراهيم: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾، وقالوا في سورة غافر: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ﴾ وقدموا في السورتين مسوغ طلبهم أو سببه فقالوا في السورتين: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ وكانت إجابة المستكبرين في الموضعين متقاربة، فقالوا في سورة إبراهيم: ﴿لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرُ عَنَّا أَمْ صَبْرًا مَا لَنَا مِنْ مَّحِصٍ﴾ فكان اعتذارهم أكثر تفصيلاً منه في غافر، حيث أجملوا جوابهم هناك فقالوا: ﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَا لَأَبَتْ أَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُكْمٌ﴾، وفي سورة الأحزاب طلب من المستضعفين إلى ربهم: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْأَلُكَ بِرَبِّكَ أَنْ تُقَلِّبَ وَجْهِي إِلَى الدِّينِ وَقَدْ خَلَّيْتُ عَنْ الدِّينِ﴾، وكذلك قالوا في سورة

الأعراف: ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَغَاتِبِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ﴾ وهذا يدل على شدة حقنهم وغيظهم من كبرائهم وساداتهم، ويدل على شدة أسفهم وندمهم أيضاً.

التعبير بالمستقبل عن الماضي لتحقيق الوقوع:

والآن فلنقترب من تأمل صياغة آيتي سورة إبراهيم. يقول تعالى: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا﴾، أي: تَبَرُّزُ الخلائق كلها برها وفاجرها صغيرها وكبيرها ذكرها وأنثاها يوم القيامة لله تعالى لا تخفى منهم خافية. والمراد البروز يوم القيامة، وهذا مستقبل، ولكن عبر عنه بالماضي لتحقيق وقوعه، فكأنه وقع وتحقيق حتى أخبر عنه كما في قوله تعالى: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١]، فالمراد بأمر الله: اقتراب الساعة، وعبر عنها بالماضي (أتي) للعللة السابقة في قوله تعالى: ﴿وَبَرَزُوا﴾.

ومن شواهد التعبير بالماضي بدلاً من المضارع دلالة على تحقق الوقوع أيضاً قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنِ افِيضُوا عَلَيْنَا مِןَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٥٠]، ومعنى البروز: الخروج من مكان ساتر والظهور، ومعنى الظهور: خروجهم من قبورهم. والبراز: المكان الواسع لظهوره. واللام في قوله ﴿لِلَّهِ﴾ للتعليل، وفي الكلام إيجاز بحذف المضاف، والتقدير: لأجل حساب الله. وجوز أن تكون اللام صلة البروز، وليس هناك حذف، والمراد: أنهم ظهروا له - سبحانه - عند أنفسهم، فإنهم كانوا يظنون عند ارتكابهم الفواحش سراً أنها تخفى على الله تعالى، فإذا كان يوم القيامة انكشفوا له تعالى عند أنفسهم وتيقنوا أنه لا تخفى عليه - سبحانه - خافية والله أعلم^(١).

(١) انظر: روح المعاني ١٣/ ٢٠٥.

السين والتاء للمبالغة في الكبر في قوله تعالى: ﴿أَسْتَكْبِرُوا﴾:

والضعفاء جمع ضعيف، والمراد بهم ضعف الرأي وهم الأتباع أو العوام. والذين استكبروا: السادة والرؤساء. والسين والتاء للمبالغة في الكبر. والفاء في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ الضُّعَفَاءُ﴾ عاطفة، فالجملة معطوفة على جملة ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾، وفي الكلام إيجاز بالحذف إذ التقدير: فأذهبهم وبرزوا لله جميعاً^(١)، وفي قوله سبحانه: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ كناية عن صفة وهي الوقوف بين يدي الله تعالى للحساب بعد الخروج من القبور. وتقييد البروز بـ(الله) لأنه سبحانه هو الأمر لهذا البروز والداعي إليه، وأكد شمول البروز لكل البشر والخلائق بالحال ﴿جَمِيعًا﴾، وبين ﴿الضُّعَفَاءُ﴾ و﴿الَّذِينَ أَسْتَكْبَرُوا﴾ طباق، ووجه بلاغته مطابقتها لمقتضى الحال. وأوثر الفعل ﴿أَسْتَكْبَرُوا﴾ على الاسم (الكبراء) للإشارة إلى أنهم ادعوا العظمة، ولم يكونوا عظماء حقيقة. وقد تعترض بورود (الكبراء) في آية أخرى في قوله تعالى - حكاية عنهم -: ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٧]. ويجاب على ذلك بأن ما ورد في آية إبراهيم من كلام الله تعالى، وما ذكر في سورة الأحزاب من كلام الضعفاء المحكي عنهم، وهو لا يكسبهم شرفاً، بخلاف كلام الله غير المحكي عن غيره^(٢). وأكد الضعفاء تبعيتهم العقدية للمستكبرين في تكذيب الرسل والإعراض عنهم وعدم الإيمان بما جاءوا به بـ«إِنَّ» واسمية الجملة، وبالقصر المستفاد من تقديم الجار والمجرور على خبر كان (تبعاً)، أي: كنا تبعاً لكم وحدكم لا لغيركم. وتشتم في هذا التقديم رائحة اللوم والتوبيخ والتفريع لهؤلاء المستكبرين الذين أوردوا الضعفاء موارد الهلاك والبوار. و(تبعاً) جمع (تابع) كخادم وخادم. أو هو مصدر نعت به مبالغة في إظهار التبعية، أو

(١) انظر: التحرير والتنوير ٢١٥/١٣.

(٢) انظر: التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم ١٧٥/٢.

بتقدير مضاف، أي ذوي تبع^(١). والاستفهام في قولهم ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ للعتاب والتبكيك والتوبيخ^(٢).

ومما يلحظ في الآية الكريمة أن المستضعفين قدموا ما يشير إلى حيثيات التقرير والتوبيخ بذكر تبعيتهم للرؤساء في تكذيب الرسل وعدم الإيمان بهم. وأوثر الاستفهام بـ(هل)؛ «لتحقيق الإنكار الذي جعلوه توطئة للعقاب والتبكيك والتوبيخ، وإظهار عجز المخاطبين عن دفع الضرر»^(٣).

والفاء الداخلة على (هل) في جملة الاستفهام للسببية، أي: «سببية الاتباع للإغناء، وهو من الغناء بمعنى الفائدة»^(٤).

وقوله ﴿مُغْنُونَ﴾ استعارة تصريحية تبعية حيث شبه الصد أو الدفع أو التحمل بالإغناء بجامع رفع المعاناة والمشقة في كل، ثم تنوسي التشبيه، وادعي أن المشبه (الدفع أو الصبر) فرد من أفراد المشبه به وهو الإغناء. وتقديم المسند إليه ﴿أَنْتُمْ﴾ على المسند ﴿مُغْنُونَ﴾ وإيلاؤه حرف الاستفهام إشارة إلى الغرض من الاستفهام أو دلالة على خروج الاستفهام من معناه الحقيقي إلى معنى مجازي وهو التوبيخ والتبكيك، فكان قرينة الاستفهام المجازي.

ومعنى التوبيخ والتبكيك يتضح من خلال بيان يأس الضعفاء من التفلت من عذاب الله وتيقنهم من إحاطته بهم وبالمستكبرين بدليل قول المستكبرين أنفسهم ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرُ عَنَّا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ﴾ فعلم المستضعفون أن سادتهم من المستكبرين

(١) انظر: روح المعاني ١٣ / ٢٠٦، وفتح القدير ٣ / ١٠٦.

(٢) انظر: الكشف ٢ / ٣٧٢، إرشاد العقل السليم ٥ / ٤١، وروح المعاني ١٣ / ٢٠٦.

(٣) التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم ٢ / ١٧٤.

(٤) روح المعاني ١٣ / ٢٠٦.

قد غروهم في الدنيا وخدعوهم وكذبوا عليهم فكان معنى استفهامهم لهم: «أظهروا مكانتكم التي كنتم تدعونها وتغروننا بها في الدنيا»^(١).

وفي قوله: ﴿مَنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أضيف العذاب إلى لفظ الجلالة للدلالة على شدته وفظاعته ولتهويله. و﴿مَنْ﴾ الأولى بيانية واقعة موقع الحال، والثانية تبعيضية واقعة موقع المفعول، والمعنى: «فهل أنتم مغنون عنا بعض الشيء الذي هو عذاب الله؟ ويجوز أن تكونا للتبعيض معاً»، والمعنى كما قدره الزمخشري: هل أنتم مغنون عنا بعض شيء هو بعض عذاب الله، أي بعض بعض عذاب الله^(٢).

وفي قولهم ما يفيد المبالغة في عدم الغناء. ولا تنس أن معنى ﴿مَغْنُونٌ﴾ دافعون أو متحملون عنا.

وقد أفاد دخول ﴿مَنْ﴾ الثانية على كلمة ﴿شَيْءٍ﴾ التقليل، والمعنى: لا تملكون دفع شيء من عذاب الله ولو كان قليلاً يسيراً. هذا كان سؤال الضعفاء، رأيت فيه ما فيه من التقرير والعتاب والتوبيخ لساداتهم وكبرائهم، لأنهم كانوا سبب استغوائهم وكفرهم وبالتالي كانوا سبب شقائهم وعذابهم. فبماذا أجاب المستكبرون؟

جزع المستكبرين:

أجابوا معتردين عما كان منهم إلى أتباعهم فقالوا كما حكى القرآن عنهم: ﴿قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرُ غَنَاءٍ أَمْ صَبْرُنَا مَا لَنَا مِنْ مَحْجِسٍ﴾ وقد فصلت جملة ﴿قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ﴾ لأنها جواب عن السؤال المذكور. ومما نلاحظه في جوابهم: أنه اعتذار منهم للضعفاء، لاستغوائهم في الدنيا،

(١) انظر: التحرير والتنوير ٧/١٣/١٦.

(٢) انظر: الكشاف للزمخشري، الآية.

وهم لم يجيئوا المستضعفين مباشرة أو بصريح القول بأنهم لا يملكون لهم شيئاً، ولكن ابتدؤوا بما يفيد الاعتذار أو بما يوحي به، لأن الضعفاء عالمون قبل جوابهم بأنهم لا يملكون لهم دفعا للعذاب.

لقد أرجع المستكبرون تبعة ضلالهم وإضلالهم إلى الله تعالى كما يفهم من قولهم: ﴿لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ﴾ وكما يدل عليه صريح قولهم في آيات آخر كما حكى القرآن الكريم عنهم مثل: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨]. ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٣٥].

سر تقديم الجزع على الصبر:

- وجملته ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ﴾ من كلام المستكبرين. والجزع ضد الصبر، وأصل الجزع: قطع الحبل من نصفه، ومنه جزع الوادي لمنقطعه، والجزع معناه: عدم احتمال الشدة، وهو أبلغ من الحزن، فإن الحزن عام، والجزع هو حزن يصرف الإنسان عما هو بصدده^(١). وقد تقدم معنى الصبر. والمحيص: مصدر ميمي كالمغيب والمشيّب وهو النجاة، يقال: حاص عنه، أي نجا منه. ويجوز أن يكون اسم مكان كالمبيت والمشيّب من «حاص» أيضاً، والمعنى: ما لنا من مكان وملجأ ننجو فيه من العذاب، والمعنى الإجمالي: سواء علينا الجزع والصبر في عدم الإنجاء أو الهرب. وإنما أسندوا كلا من الجزع والصبر واستوائهما إلى ضمير المتكلم في ﴿عَلَيْنَا﴾ و﴿أَجْرَعْنَا﴾ و﴿صَبَرْنَا﴾، و﴿لَنَا﴾ المشتمل على المخاطبين الضعفاء، «للمبالغة في النهي عن التوبيخ بإعلامهم أنهم شركاء لهم فيما ابتلوا به وتسلية لهم»^(٢). وكلمة ﴿سَوَاءٌ﴾ اسم بمعنى الاستواء، والهمزة و﴿أَمْ﴾ قد سلبتا من الاستفهام وجردتا عنه

(١) انظر: مادة (جزع) في المفردات للراغب.

(٢) إرشاد العقل السليم ١٣/ ٤١، ٤٢.

لإفادة التسوية، ولذا فجملة ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرُ عَنَّا أَمْ صَبَرْنَا﴾ خبرية، والمعنى: جزعنا وصبرنا علينا سواء، أي سيات. وبين ﴿أَجْرُ عَنَّا﴾ و﴿صَبَرْنَا﴾ طباق أكد معنى التسوية. وقدم الجزع على الصبر، لمطابقتها لواقع حالهم، فهم في جزع دائم.

وجملة ﴿مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ﴾ جملة مفسرة لإجمال ما فيه الاستواء لا محل لها من الإعراب، أو حال مؤكدة أو بدل^(١). وأفادت الجملة أيضاً تقرير مضمون الكلام السابق وهو اليأس والقنوط.

«من» ودلالة استغراق النفي وشموله:

وقدم الجار والمجرور ﴿لَنَا﴾ لإفادة القصر، فكأنهم قالوا: لا مهرب أو لا نجاة لنا نحن خصوصاً دون غيرنا، وذلك إشارة إلى كمال يأسهم وقنوطهم. والقصر هنا إضافي، وأفاد دخول ﴿مِنْ﴾ على ﴿مَّحِيصٍ﴾ استغراق النفي وشموله. وتنكير ﴿مَّحِيصٍ﴾ للتحقير، فهم يرون أنه لا توجد لهم أدنى فرصة للنجاة أو الهرب. وقيل: إن قوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرُ عَنَّا أَمْ صَبَرْنَا﴾ من كلام الضعفاء والمستكبرين جميعاً، كأنهم قالوا جميعاً: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا﴾^(٢). والظاهر أنه من كلام المستكبرين.

إبليس خطيباً!!

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْلَا أَنْفُسُكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

(١) انظر: روح المعاني ٢٠٧/١٣.

(٢) انظر: الكشف ٢/٢٩٩.

وهنا ينتهي الحوار بين الفريقين، ونرى زعيم المستكبرين، ومصدر الضلال والغواية يأخذ الكلمة، ويلقي خطبته بعد أن كان يقف موقف المتفرج وهو يسمع ويشاهد المتحاورين من أهل النار حيث قال الشيطان مخاطباً أتباعه بما معناه بعد أن قضى الأمر، وأدخل أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار: إن الله وعدكم وعد الحق على السنة رسله فلم تطيعوه، ولو أطعتموه لأدرتكم الفوز العظيم، ووعدتكم كذباً وزوراً بأنه لا بعث ولا جزاء ولا جنة ولا نار فأخلفتكم وعدي، وما كان لي عليكم من تسلط أو قهر أو حجة على تأييد قولي لتبعوني ولكن دعوتكم إلى الضلال، ووسوست لكم، وزينت الباطل فأسرعتم إلى إجابتي، فلا تلوُموني أبداً، ولكن لوموا أنفسكم، فأنتم الذين كنتم تملكون كامل الإرادة في اختيار طريق الخير أو طريق الشر، ولكنكم اخترتم الشر رغم تحذير الله لكم من سلوك سبل الشيطان، وما كان مني إلا الوسوسة وزحزف القول وغروره. يا أتباعي كلنا في الغم والألم والعذاب سواء، ما أنا بمغيثكم مما أنتم فيه من العذاب، وما أنتم بمغيثي مما أنا فيه من العذاب والنكال، إني كفرت اليوم بإشراككم إياي في الدنيا. وينهي الشيطان خطبته بالقاصمة يصبها على أوليائه وأتباعه ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. تلك كانت خطبة الشيطان في النار.

فإبليس عليه لعنة الله يقوم في أهل النار خطيباً مرتدياً مسوح الكهان فيزداد أتباعه حسرة على حسرتهم وغماً على غمهم وحزناً إلى حزنهم. فبعد أن قضى الله تعالى بين عباده فأدخل المؤمنين في دار كرامته، وأدخل الكافرين في دار عذابه، وبعد مجادلة الضعفاء سادتهم وتغريهم بالضلالة اقتضى ذلك أن ينطق مصدر الغواية وأصل الضلال وهو الشيطان، إما لأن هؤلاء الضعفاء علموا أن سبب إضلالهم هو الشيطان، وذلك بعد أن اعتذر إليهم كبارهم بالحرمان من الهدى، وإما لأن المستكبرين انتقلوا من الاعتذار للضعفاء إلى ملامة الشيطان الموسوس لهم ما أوجب ضلالهم، وهذا هو

الراجح بدليل قوله: ﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ﴾، ويحتمل أن الشيطان توقع هذا الملام فدفعه قبل وقوعه^(١)، وأنه يتوجه إليه بطريقة التعريض. وهذه الاحتمالات كلها دفعت إبليس عليه اللعنة إلى وقوفه على منبر الوعظ في جهنم. والله أعلم.

الوعد الحق:

وعظفت جملة ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ﴾ على جملة ﴿فَقَالَ الضَّعَفَتُوا﴾. ومعنى ﴿وَفُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أي تم حكم الله وفرغ منه وهو الحساب، ودخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار وعندئذ وقف إبليس خطيباً وواعظاً في محفل الأشقياء من أهل النار من الثقلين فيقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾، روي عن الحسن البصري أنه قال: إذا كان يوم القيامة قام إبليس خطيباً على منبر من نار فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقِّ﴾ إلى آخره. وعن مقاتل: أن الكفار يلقون عليه في النار باللائمة فيرتقي منبراً من نار فيقول ذلك^(٢). وقد خُصَّ إبليس بالإفراد بالجواب ف قيل: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ﴾، لأنه أعظم المستكبرين، وأول المتبوعين في الضلال، وقوله: ﴿وَعَدَ الْحَقِّ﴾ يجوز أن يكون من باب إضافة الموصوف لصفته كقوله تعالى: ﴿وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ [ق: ٩] مبالغة في الاتصاف، والتقدير: وعدكم الوعد الحق الذي لا نقض له.

وقيل: أراد بالحق ما هو صفته تعالى، أي: إن الله تعالى وعدكم وعده الحق الذي لا يُخلف.

وقيل: المراد بالحق: البعث والجزاء على الأعمال، فتكون إضافة صريحة. وعلى التقدير الأول في العبارة إيجاز بالحذف، والتقدير: إن الله وعدكم وعده الحق فصدقكم،

(١) انظر: التحرير والتنوير ١٣/ ٢١٨.

(٢) انظر: روح المعاني ١٣/ ٢٣٠.

ووعدتكم فأخلفتكم. وحذف لدلالة الحال على صدق ذلك الوعد لأنهم شاهدوه^(١)، وأكد إبليس كلامه بـ ﴿إِنَّ﴾ واسمية الجملة، لتقرير مضمونها.

والتعبير بلفظ الجلالة الذي له صفات الكمال له مدلوله في زيادة ندم أهل النار وغمهم وحزنهم. وقوله: ﴿وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ أي موعدني، أي: وعدتكم أن لا جنة ولا نار ولا بعث ولا حشر ولا حساب. جعل خُلف الوعد كالإخلاف منه كأنه كان قادراً على إنجازها، وقد استعير الإخلاف لعدم تحقق ما أخبر به ولظهور كذبه. والآية من الاحتباك، حيث ذكر ﴿وَعَدَ الْحَقُّ﴾ أولاً دليلاً على حذف ضده، أي وعد الباطل ثانياً، و﴿فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ ثانياً، دليلاً على حذف (صَدَقَكُمْ) أولاً^(٢). وحذف المفعول الثاني هنا للعلم به. وفي العبارة مقابلة بين قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ﴾ وقوله: ﴿وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ وأظهرت المقابلة مدى خداع إبليس لأتباعه وكذبه عليهم في الدنيا من خلال وسوسته لهم.

إنه الشيطان الذي طالما وسوس في الصدور، وأغراهم بالعصيان، وزين الكفر في أعينهم، وصدّهم عن قبول الحق، هو الذي يقر بالحق ويصدق به وهو الكذوب، هو الذي يقول لأهل النار هذا الكلام، ويعترف لهم بتلك الحقيقة الآن ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾، ولكن هيهات هيهات لقد فات الأوان، ثم يزيد حسرتهم بتعيرهم بالاستجابة له على الرغم من أنه لم يقدم لهم الحجة والبرهان ليثبت صدقه، فلم يكن منه إلا الوسوسة وكانت منهم الاستجابة لدعوته الباطلة، وترك دعوة الحق من الله تعالى والتي جاءت على السنة رسله ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾، وتلمح في كلام إبليس السابق ارتقاء في تنديم أتباعه

(١) انظر: الباب في علوم القرآن ١١/ ٣٦٩.

(٢) انظر: نظم الدرر ٤/ ١٨٢.

وتبكيتهم ببيان سهولة اغترارهم، فهو يقول لهم: لقد أجبتم دعوتي لكم إلى الكفر والضلالة على الرغم من خلوها من أي تسلط أو قهر أو إجبار.

ترجيح الاستثناء المنقطع في قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ﴾:

وللمبالغة في نفي قدرة إبليس - عليه لعنة الله - على أي قدرة وأي تسلط أو قهر أو حجة أدخلت (من) على (سلطان) فقليل: ﴿مَنْ سُلْطَنٍ﴾، فهو ينفي أي تسلط منه سواء أكان كبيراً أم صغيراً بشيء من الأشياء.

والاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ﴾ فيه وجهان:

أولهما: أنه استثناء منقطع، لأن دعاء إبليس ليس من جنس السلطان، وهو الحجة أو القهر، وعليه فالمعنى: فما كان لي عليكم من تسلط أو قهر أو حجة إلا دعائي إياكم إلى الضلالة.

وثانيهما: استثناء متصل؛ لأن القدرة على حمل الإنسان على الشر تارة تكون بالقهر، وتارة بتقوية الداعية في قلبه بإلقاء الوسوس إليه، فهذا نوع من أنواع التسلط. وأبرزت دعوة إبليس لأتباعه أي وسوسته وكأنها من جنس السلطان، وإن لم يكن هذا حقيقةً وذلك على سبيل الادعاء، فلذا كان الاستثناء متصلاً، وهو من تأكيد الشيء بضده، كقول الشاعر:

وخيل قد دلفت لها بخيل تحية بينهم ضرب وجيع

وهذا ضرب من التهكم. كما قال الألوسي^(١).

عرفت الآن أن اعتبار قوله: ﴿إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ﴾ من الاستثناء المنقطع لأن ما بعد

(١) روح المعاني ١٣/٢٠٨.

حرف الاستثناء ليس من جنس ما قبله. وإلى هذا الرأي ذهب أبو حيان، وقال إنه الظاهر^(١).

ومن جَوَز كون الاستثناء متصلاً، فذلك إما باعتبار التهكم والادعاء، أو باعتبار أن تقوية الداعية إلى المعصية بالوسوسة من أنواع التسلط.

الفاء وسرعة الاستجابة إلى وسوسة إبليس:

والفاء في قوله: ﴿فَاسْتَجَبْتُ لِي﴾ دلت على سرعة استجابة الكفار والعصاة إلى وسوسة إبليس. كما دلت السين والتاء في قوله ﴿فَاسْتَجَبْتُ﴾ على أن الوسوسة وجدت من هو طالب لها، راغب فيها، وكأن هؤلاء الكفار والعصاة كانوا يجدون في الاستجابة لوسوسة إبليس ويتعرضون لها وكانوا يتظرونها، وهذا المعنى هو ما أفاده التعبير بالسين والتاء.

حرية الاختيار قضية عقدية:

ويستمر إبليس في خطبته في أهل النار فيؤنبهم ويدعوهم لتأنيب أنفسهم وزجرها على أن استمعوا لوسوسته وأطاعوه فيقول: ﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ﴾، أي: فلا تلوُموني بما وقعتُم فيه بسبب وعدي لكم بالباطل وإخلافي لهذا الموعد، ولوموا أنفسكم لاستجابتكم لي بمجرد الدعوة التي لا سلطان عليها ولا حجة.

والفاء في قوله: ﴿فَلَا تَلُومُونِي﴾ للنبية، والمعنى: «إذ تقرر أنه لم يكن مني عليكم قهر ولا إرغام على الاستجابة لغوايتي لكم فإني أقول لكم: لا تلوُموني ولوموا أنفسكم، لأنكم مؤاخِذون بكسبكم، حيث كانت لكم قدرة واختيار وإرادة فاخترتم الشر على الخير». وجملة ﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أفادت معنى قصر القلب كأنه قال: فلا تلوُموا إلا أنفسكم.

(١) البحر المحيط ٥/٤٠٨، وراجع كلا الرأيين في الفتوحات الإلهية للشيخ سليمان الجمل ٢/٥٢٢.

وقد تمسكت المعتزلة بالآية الكريمة: ﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ دليلاً على أن الكفر والمعصية والضلال لم يوجبها الله على عباده الذين لم يهتدوا، فالإنسان هو الذي يختار الشقاوة أو السعادة، وليس من الله تعالى إلا التمكين، ولا من الشيطان إلا التزيين، فلو كان الكفر والمعصية من الله تعالى لقال الشيطان لأهل النار: فلا تلوموني ولا تلوموا أنفسكم فإن الله قضى عليكم بالكفر، وأجبركم عليه^(١).

وخلاصة مذهب المعتزلة في هذه القضية أن العبد هو خالق أفعاله كلها، وأن الله تعالى لم يكتب على أحد من خلقه الكفر ثم يحاسبه عليه، لأن هذا ينافي العدل الإلهي. أما مذهب أهل السنة فهو أن الله تعالى هو الخالق لأسباب السعادة وأسباب الشقاوة لكن العبد له فيها اختيار بدليل قوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠] ومن هنا يتوجه عليه اللوم، فلا تناقض إذن بين عقيدة أهل السنة وبين صرف الملامة إلى المكلف على فعله، والله أعلم. وهذه القضية مبسطة في كتب التوحيد.

وقال ابن الخطيب^(٢) رحمه الله: دلت هذه الآية على أن الشيطان الأصلي هو النفس، لأن الشيطان بيّن أنه ما أتى إلا بالوسوسة، فلولا الميل الحاصل بسبب الشهوة والغضب والوهم والخيال لم يكن لوسوسته تأثير البتة، فدل ذلك على أن الشيطان الأصلي هو النفس، وبيان ذلك أن الإنسان إذا أحس بشيء أو أدركه ترتب عليه شعوره بكونه ملائماً له راغباً فيه، أو بكونه منافراً له غير راغب فيه، ويتبع هذا الشعور الميل الجازم إلى الفعل أو إلى الترك، وكل هذه الأشياء من شأن النفس، ولا مدخل للشيطان في شيء من هذه المقامات.

(١) انظر: الكشف ٢/ ٣٠٠.

(٢) راجع: روح المعاني ١٣/ ٢٠٩، ومفاتيح الغيب ٩/ ٣٢٧، واللباب في علوم الكتاب ١١/ ٣٧٠-

والحق أن النفس والهوى من أخطر أعداء الإنسان، وهذا ليس تقليلًا من عداوة إبليس لبني آدم، فالله تعالى أخبر بأنه لنا ﴿عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾، ولكننا نريد أن نبين خطورة اتباع الهوى، فوسوسة إبليس جزء من أسباب الغواية، وليست هي كل أسبابها والله تعالى هو القائل: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦].

وقد يقال: لِمَ قال الشيطان: ﴿فَلَا تُلْهُمُونِي وَلَوْ مَوًّا أَنْفُسَكُمْ﴾ وهو ملوم أصلاً بسبب وسوسته؟

والجواب: أنه أراد: لا تلوموني على فعلكم ولوموا أنفسكم عليه، لأنكم عدلتم عما توجه من هداية الله تعالى لكم^(١).

والآن عرفت قارئنا حجة المعتزلة في هذه الآية، ورد أهل السنة عليهم، وأزيدك بأنه قد أجيب عن حجتهم في الآية بأن ما ورد فيها من قول الشيطان فلا يجوز التمسك به أو اتخاذه دليلاً على حجة.

وتلك إجابة واهية؛ لأن كلام الشيطان - فيما حكاه القرآن عنه - ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ في هذا الموضع حق؛ بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢]؛ لأنه لو كان باطلاً لبينه الله تعالى، وأظهر إنكاره، فلا فائدة في ذلك اليوم في ذكر الكلام الباطل والقول الفاسد لأن شأن أتباع الشيطان دائماً يقعون في الشر، ثم يلومون من أوقعوهم لأنهم أطاعوهم^(٢).

(١) راجع: مفاتيح الغيب ٣٢٧/٩.

(٢) تراجع تلك الآراء والردود في مفاتيح الغيب ٣٢٣-٣٢٧/٩.

لا منقذ من العذاب:

ويواصل الشيطان خطبته قائلاً: ﴿مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنَا بِمُصْرِخِيكَ﴾ أي ما أنا بنافعكم ولا منقذكم ولا مخلصكم من العذاب الذي أنتم فيه، ولا أنتم بنافعي بإنقاذي مما أنا فيه من العذاب والنكال، فلكل منا عذابه، وعطف قوله: ﴿وَمَا أَنَا بِمُصْرِخِيكَ﴾ على قوله: ﴿مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ﴾ لأن أحدهما لن يفيد الآخر، أي: عدم استطاعة أحدهما دفع العذاب لا عن نفسه ولا عن غيره.

وقدم قوله: ﴿مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ﴾ لأن أتباعه كانوا يأملون في أن يدفع عنهم العذاب أو شيئاً منه. والمُصْرِخ: هو المغيث، والصارخ والمستصرخ هو الذي يطلب النصرة والمعاونة، ومن شواهد قول الشاعر:

كُنَّا إِذَا مَا أَتَانَا صَارِخَ فَنَزَعُ كَانَ الصَّرَاخُ لَهُ قِرْعَ الظَّنَائِبِ^(١)

ومنه قول الآخر^(٢):

وَلَا تَجْزِعُوا إِنِّي لَكُمْ غَيْرُ مُصْرِخٍ وَلَيْسَ لَكُمْ عِنْدِي غَنَاءٌ وَلَا نَصْرٌ

ويقال: صَرَخَ فلان أي: استغاث، يصرخ صرخاً وصراخاً وصرخة.

واصطرخ بمعنى صرخ، والتصرخ: تكلّف الصراخ.

والمُصْرِخ: المغيث، والمُستصرخ: المستغيث، تقول: استصرخني فأصرخته.

والصرِخ صوت المستصرخ، والصرِخ أيضاً الصارخ، وهو المغيث والمستغيث وهو

(١) القائل هو: سلامة بن جندل. والظنائب: جمع ظنوب، وهو حرف الساق اليابس من قدم وقرع

الظنوب: أن يقرع الرجل ظنوب البعير لينوخ له فيركبه والمراد هنا سرعة الإجابة.

(٢) القائل هو: أمية بن أبي الصلت.

من الأضداد^(١)، قاله الجوهري. هذه تصاريف الكلمة وضعتها بين يديك؛ لتكون على بينة بمعناها.

علة التعبير بالجملة الاسمية في ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِينَ﴾:

ونعود إلى قول الشيطان كما حكى القرآن ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِينَ﴾ وقد تسأل عن علة قوله السابق مع أنه لم يكن في حيز الاحتمال، ويجاب عن هذا بأن تعرضه لذلك من باب المبالغة في بيان عدم إغاثته إياهم، وإيدان بأنه أيضاً واقع عليه ما واقع عليهم، ومحتاج إلى من يغيثه ويدفع عنه، فكيف له بإصراخ غيره؟ وهذا علة إيثار الجملة الاسمية، والمراد استمرار النفي لا نفي الاستمرار. ويبقى أن نشير إلى أن قوله: ﴿وَمَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ﴾ و﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي﴾ جواب استغاثتهم واستعانتهم به في تحمل أو دفع ما غشاهم من العذاب. أما الكلام السابق على قوله المذكور فجواب منه عن توبيخ أهل النار وتقريعهم له^(٢).

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْلَا أَنْفُسُكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي إِنْ كَفَرْتُمْ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَأَدْخِلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّاتٌ فِيهَا سَلَامٌ * أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ

(١) انظر: معجم (الصحاح) للجوهري مادة (صرخ).

(٢) انظر: روح المعاني ١٣/٢٠٩.

يَتَذَكَّرُونَ * وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَيِّثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَيْثَةٍ اجْتَثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴿إبراهيم: ٢٢-٢٦﴾.

ما زلنا نتأمل خطبة إبليس اللعين في النار لأتباعه كما حكاهما القرآن ووقفنا عند قوله: ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ﴾، والجملة هنا استثنائية فيها زيادة تبرؤ من طاعتهم إياه، واستجابتهم لوسوسته. وأكد هذا التبرؤ بـ«إن» واسمية الجملة.

الطاعة المهلكة:

والمراد بالإشراك الطاعة، وفي قوله: ﴿أَشْرَكْتُمُونِ﴾ استعارة تصريحية تبعية، حيث شبه الطاعة بالإشراك ونزلها منزلته، والمعنى: إني كفرت بما كان من إشراككم إياي مع الله في الطاعة، ومعنى إشراكهم الشيطان بالله: طاعتهم له فيما كان يزينه لهم من عبادة الأوثان وتكذيب الرسل وفعل المعاصي وغيرها. ودل التعبير بـ«كفرت» على شدة تبرئه من إشراكهم إياه في الطاعة. وفيه استعارة تصريحية و«ما» في قوله ﴿بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ﴾ تحتل وجهين:

الوجه الأول: أن تكون مصدرية، و«من» متعلقة بـ«أشركتموني»، والتقدير: إني كفرت اليوم بإشراككم إياي لله تعالى في الطاعة، فالكفار كانوا يطيعونه في أعمال الشر كما يطاع الله تعالى في أعمال الخير، فإن كان مراده من التبرؤ إنشاء عدم الرضا بإشراكهم إياه يوم القيامة فهو ندامة منه، وإن كان مراده الإخبار بالتبرؤ منهم فيما مضى من الأزمنة أقصد في الدنيا فهو كذب منه أظهر به التذلل^(١).

الوجه الثاني: أن «ما» موصولة بمعنى «مَنْ»، والمراد بعد الموصول وجهان: أحدهما: أنه الباري سبحانه والعائد محذوف و﴿مِنْ قَبْلُ﴾ متعلق بـ﴿كَفَرْتُ﴾

(١) انظر: روح المعاني ١٣/ ٢١١، والتحرير والتنوير ٧ ج ١٣/ ٢٢١.

والتقدير: إني كفرت بالله الذي أشركتموني به حين أبيت السجود لآدم، والكلام بناء على هذا التقدير إقرار من إبليس اللعين بقدّم كفره، لأن خطيئته سابقة عليهم فلا إغاثة لهم منه، فقوله تعليل آخر لعدم إغاثته إياهم، وهذا الوجه هو الراجح.

الثاني: أنه الأصنام، والتقدير «إني كفرت بالصنم الذي أشركتموني به»، أي بالصنم الذي أطعتموني كما أطعتموه.

وهذا توجيه مرجوح لا يلتفت إليه. واعترض على اعتبار «ما» موصولة أنها لغير العاقل، وأطلقت على الله تعالى، ورد الطيبي بأن «ما» لا تستعمل في ذي العلم إلا باعتبار الوصفية فيه، وتعظيم شأنه كما ورد في قولهم: «سبحان ما سخر كن لنا» والتقدير: «سبحان العظيم الشأن الذي سخر كن للرجال مع مكرن وكيدكن». وأرى والله أعلم أن اعتبار «ما» مصدرية هو الأولى لموافقة للسياق، ولبعده عن التكلف.

وقوله: ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يجوز أن يكون من كلام الله تعالى ابتداء لبيان استحقاق العصاة للعذاب، ويجوز أن يكون من تنمة كلام إبليس كما حكى القرآن قطعاً لأطماع أهل النار من الكفار وغيرهم من إغاثته وإعانتته، وحكى الله تعالى ما سيقوله في ذلك الوقت، «ليكون تنبيهاً للسامعين، وحثاً لهم على النظر في عاقبتهم، والاستعداد لما لا بد منه، وأن يتصوروا ذلك المقام الذي يقول فيه الشيطان ما يقول فيخافوا ويعملوا ما ينفعهم هناك»^(١).

وأميل إلى أن الاحتمال الأول هو الأرجح ففيه بيان لتسجيل العذاب المؤلم في ذاته على الكفار الظالمين تابعين ومتبوعين فهم ظلموا الناس، وأفسدوا في الأرض فحققت عليهم كلمة العذاب، والله أعلم.

(١) روح المعاني ١٣/ ٢١١.

وأكد هذا الخبر بـ«إن» واسمية الجملة. والتعبير باسم الفاعل ﴿الظَّالِمِينَ﴾ يدل على رسوخهم في الكفر. ووصف العذاب بالأليم فيه دلالة على شدته وفضاعته.

وعود باطلة:

ونجمل الآن النقاط الرئيسية في تلك الخطبة الشيطانية التي قصمت ظهور أهل النار فيما يأتي: أوضح إبليس لأتباعه:

أولاً: أن وعوده التي كان يعدهم بها في الدنيا باطلة، ومعارضة لوعده الحق من الله تعالى.

ثانياً: أنه أخلفهم ما وعدهم من تلك الوعود ولم يف لهم بشيء منها: ﴿وَوَعَدْتُهُمْ فَاَخْلَفْتُكُمْ﴾.

ثالثاً: أوضح لهم أنهم قبلوا قوله على الرغم من عدم وجود الحجة أو الدليل على قوله وادعائه، وعلى الرغم من عدم وجود قهر منه لهم على قبول قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾.

رابعاً: نعى عليهم ما وقعوا فيه، ودفع لومهم له وأمرهم بأن يلوموا أنفسهم، لأنهم هم الذين قبلوا الباطل المحض الذي لا يشكل بطلانه على من له أدنى تعقل أو تفكير: ﴿فَلَا تُلْوَِمُونِي وَلَوْ مَوْءَا أَنفُسَكُمْ﴾.

خامساً: أوضح لهم أنه لا نصر عنده ولا إغاثة، ولا يستطيع لهم نفعاً، ولا يدفع عنهم عذاباً، بل هو مثلهم في الوقوع في العذاب، والعجز عن التخلص من هذه المحنة: ﴿مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُ بِمُنْصِرٍ خُذْ﴾.

سادساً: صرح لهم بأنه قد كفر بما اعتقدوه وأثبتوه له، فتضاعفت عليهم الحسرات، وتوالت عليهم المصائب.

وقد استوقفني قول إبليس لأتباعه ﴿فَلَا تُلْهُمُونِي لَوْمَةً وَأَنْفُسَكُمْ﴾ (الآية) وتراعى أمامي كل من يتلقف فتوى مضلة، أو يقتدي بآراء مخالفة لما في الكتاب والسنة، ويؤثرها على ما فيهما، فإنه قد استجاب للباطل الذي لم تقم عليه حجة، ولا دل عليه برهان، وترك الحجة والبرهان خلف ظهره. فلنحذر جميعاً من الانسياق وراء تلك الدعاوى والفتاوى التي تصدر عن أهلاً لها.

الإيمان والعمل الصالح:

ونعود إلى تدبر الآيات الكريمة، فبعد أن ذكر الله تعالى مصير الكفار، وصور حال العصاة وزعيمهم إبليس ليعلم المؤمنون عاقبة العصيان والانصياع للباطل فيجتنبوا أسبابه في الدنيا، ويتعدوا عن طريقه وأهله يَنَ سبحانه حال المؤمنين وجزاءهم يومئذ ليثبتوا على طريق الحق، فقال سبحانه: ﴿وَأَدْخِلْ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾.

وعُبر بالفعل المبني للمفعول، لأن الدخول هو المقصود. وقوله: ﴿يَا ذِينَ رَّبِّهِمْ﴾ أي: بأمره وتوفيقه وإرادته وتيسيره. وأضيف الإذن إلى وصف الربوبية المضاف إلى ضمير المؤمنين للإشعار بمزيد اللطف بهم ورعايتهم. و﴿يَا ذِينَ رَّبِّهِمْ﴾ متعلق ب﴿خَالِدِينَ﴾ أو ب﴿أَدْخِلْ﴾ أي: دخلوا بأمره وتيسيره، ويجوز تعلقه بمحذوف على أنه حال، أي: متلبسين بأمر ربهم.

وفي الآية ذُكر لسبب دخول الجنة من خلال صلة الموصول في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فسبب دخول المؤمنين الجنة أمران: الإيمان والعمل الصالح. والصالح وصف عام لكل عمل نافع لذاته، قصد به وجه المنفعة للناس، فالصالحات تشمل كل الفرائض الشرعية والعمل الطيب، والقول الطيب. وقد وصف سبحانه وتعالى الجنة بما يسر النفس، ويمتع القلب فقال: ﴿تَجْرِي مِنْ

تَحْنَهَا الْأَنْهَارُ ﴿١﴾ فالأنهار تجري في الجنة متخللة أشجارها فيكون المنظر بهيجاً، فتلك ظلال وارفة، وأنهار جارية، وخضرة تأخذ بالألباب.

الأنس الروحي:

ويضاف إلى هذا النعيم الحسي لأهل الجنة - ندعو الله تعالى أن نكون من أهلها - الأنس الروحي بالاتلاف والسلام، لذا قال تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ و﴿تَحِيَّتُهُمْ﴾ مصدر مضاف لمفعوله: أي يُحَيِّهِمُ الله تعالى أو ملائكته. ويجوز أن يكون مضافاً لفاعله، أي: يحيي بعضهم بعضاً، كما قال تعالى: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨]. وكما قال تعالى أيضاً: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ [الرعد: ٢٣-٢٤] وكما ورد في قوله سبحانه: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ [يونس: ١٠]، فهم يتبادلون فيها التحية، وليس بينهم تلاوم أو تأثيم أو توبيخ كما يجري بين أهل النار، بين الضعفاء والمستكبرين والشيطان من ورائهم. والسلام مشتق من السلامة فأهل الجنة سلموا من آفات الدنيا وأمّنوا من مفاتنها وأمراضها التي تصيب النفوس، وتضرب القلوب. الثواب منفعة خالصة مقرونة بالتعظيم، فأشار سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَأَدْخِلْ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ إلى المنفعة الخالصة. وأشار بقوله: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ إلى دوامها، وأشار إلى كونها مقرونة بالتعظيم بقوله ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾^(١). وجاء قوله ﴿سَلَامٌ﴾ نكرة، لإفادة التعظيم.

ولا يفوتني أن أشير إلى سر التعبير بالفعل الماضي «أَدْخِلْ»، وأهل الجنة لم يدخلوا بعد الجنة، وفي هذا دلالة على تحقق هذا الدخول حتى كأنه وقع وعبر عنه بالماضي تأكيداً على هذا التحقق. وجاء قوله تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ (الآية) معطوفاً على جملة ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا﴾، وهو انتقال لوصف حال المؤمنين يومئذ بمناسبة

(١) انظر: الباب في علوم الكتاب ١١/ ٣٧٨.

ذكر حال الكفار كما قلنا لأن حال المؤمنين يومئذ من جملة الأحوال المقصودة بالوصف إظهاراً لتفاوت الأحوال، فلم يدخل المؤمنون يومئذ في المنازعة والمجادلة تنزيهاً لهم عن الخوض في تلك الغمرة، مع التنبيه على أنهم حيثئذ في سلامة ودعة. ويجوز جعل الواو للحال، أي: برزوا وقال الضعفاء وقال الكبراء، وقال الشيطان... إلخ وقد أدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات، فيكون إشارة إلى أنهم فازوا بنزول الكرامة من أول وهلة^(١).

مثالان للكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة:

ولما ذكر الله تعالى أحوال السعداء وأحوال الأشقياء ذكر مثلاً للقسمين، فقال سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾.

إن الله عز وجل ضرب مثلاً لأحوال السعداء والأشقياء أو لكلمة الإيمان والحق، وكلمة الكفر والباطل، بالشجرة الطيبة والشجرة الخبيثة، فالكلمة الطيبة كالشجرة الطيبة في نفعها ورسوخها وثباتها، والتي لا تزعزها الرياح الهوجاء، ولا تعصف بها الأعاصير، والكلمة الخبيثة كلمة الباطل والهوى كالشجرة الخبيثة التي لا فائدة منها ولا بقاء لها ولا أثر، والله أعلم بمراده.

إيثار «كيف» في المثل:

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا﴾ استئناف ابتدائي، وفيه إيقاظ للذهن

ليترقب ما يرد بعد هذا الكلام، ولم يكن هذا المثل مما سبق ضربه قبل نزول الآية بل الآية هي التي جاءت به، فالكلام تشويق إلى علم هذا المثل، وصيغ التشويق إليه - أي المثل - في صيغة الماضي الدال عليها حرف (لم) التي هي لنفي الفعل في الزمن الماضي والدال عليها فعل (ضرب) بصيغة الماضي لقصد الزيادة في التشويق لمعرفة هذا المثل وما مثل به^(١). والخطاب للرسول ﷺ أو لكل من يصلح للخطاب، قولان، والله أعلم بمراده. والرؤية في الآية علمية وليست بصرية، والمراد: ألم تعلم. وأوثر (كيف) في الآية «للدلالة على أن حالة ضرب هذا المثل ذات كيفية عجيبة من بلاغته وانطباقه»^(٢)، وفي (ضرب) استعارة تصريحية تبعية؛ حيث استعير الضرب للذكر، والتقدير: ذكر مثلاً، وبلاغة الاستعارة هنا دلالتها على كمال العناية بقوة هذا المثل المذكور الشديد التأثير الشبيه بتأثيره بتأثير الضرب في المضروب أي: قوة الإحساس وشدته^(٣). وأصل المثل النظير والمشابه، ويقال أيضاً: مثل ومثيل كما قيل: شبه وشبيه. وقد اختص المثل - بفتحيتين - بإطلاقه على الحالة الغريبة الشأن التي تمثل للناس وتوضح وتشبه. وبإطلاقه على قول يصدر في حالة غريبة فيحفظ ويشيع بين الناس لبلاغته، أو المثل (عبارة عن قول في شيء يشبه قولاً في شيء آخر بينهما مشابهة؛ لبيان أحدهما الآخر وبصوره نحو قولهم: الصيف ضيعت اللبن، فإن هذا القول يشبه قولك: أهملت وقت الإمكان أمرك). وهذا قول الراغب في مفرداته.

فروق لغوية:

ومن الفوائد أن نبين بعض الفروق اللغوية بين المثل ومرادفاته، فالفرق بين المثل

(١) التحرير والتنوير ٧/ ٢٢٣.

(٢) انظر: التحرير والتنوير ٧/ ٢٢٣.

(٣) انظر: التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم ٢/ ١٧٧.

والعديل: أن العديل ما عادل أحكامه أحكام غيره وإن لم يكن مثلاً في ذاته^(١). والفرق بين المثلين والمتفقين: أن التماثل يكون بين الذوات والاتفاق يكون في الحكم والفعل، نقول: وافق فلان فلاناً في الأمر ولا نقول: ماثله. والفرق بين المساواة والمماثلة: أن المساواة تكون في المقدارين اللذين لا يزيد أحدهما على الآخر ولا ينقص عنه، والتساوي: التكافؤ في المقدار، والمماثلة: هي أن يسد أحد الشيئين مسد الآخر كالسوادين. الفرق بين المثل والشكل: أن الشكل هو الذي يشبه الشيء في أكثر صفاته حتى يشكل الفرق بينهما، ولا يستعمل الشكل إلا في الصور فيقال: هذا الطائر شكل هذا الطائر ولا يقال: الحلاوة شكل الحلاوة. ومثل الشيء: ما يماثله وذاته. الفرق بين المثل والنظير: أن المثلين ما تكافأ في الذات، والنظير: ما قابل نظيره في جنس أفعاله وهو متمكن منها كالنحوي نظير النحوي، وإن لم يكن له مثل كلامه في النحو أو كتبه فيه، ولا يقال: النحوي مثل النحوي لأن التماثل يكون حقيقة في أخص الأوصاف وهو الذات^(٢).

ونعود إلى بيان الآية الكريمة بعد هذا الاستطراد؛ لنرى أن الغرض من الاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا﴾ التقرير والتعجيب والتشويق. وقد فصلت هذه الجملة عما قبلها لكمال الانقطاع، فالجملة الأولى ﴿وَأَدْخَلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ﴾ خبرية لفظاً ومعنى وهذه إنشائية لفظاً ومعنى، وذكر لفظ الجلالة في الآية؛ لتفخيم المثل المذكور. والمراد من الكلمة الطيبة في قوله تعالى: ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ كلمة التوحيد، وكل كلمة فيها خير. والتنكير في ﴿كَلِمَةً﴾ للتفخيم والتعظيم. وقد شبهت الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة في ثباتها ودوام نفعها وخيرها. وهذا التشبيه تمثيلي مركب. والمراد بالشجرة الطيبة النخلة على أرجح الأقوال. وقد ذكر في أكثر من

(١) التحرير والتنوير ٧/ ٢٢٣.

(٢) الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري ص ١٢٧، ١٢٨.

حديث نبوي شريف تشبيه النخلة بالمؤمن، فعن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها، وإنها مثل المؤمن فحدّثوني ما هي» قال: فوقع الناس في شجرة البوادي، ووقع في قلبي أنها النخلة، فاستحييت، ثم قالوا: حدّثنا ما هي يا رسول الله، قال: «هي النخلة» رواه البخاري^(١). والشجرة الطيبة أي النافعة، ففي ﴿طَيِّبَةً﴾ استعارة تصريحية، حيث استعير الطيب للنفع لحسن أثره في النفوس. ووصفت الشجرة بوصفين أولهما: ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ أي: راسخ ضارب بعروقه في الأرض. وأوثر وصف أصل الشجرة وهو جذورها بالثبات دون الشجرة نفسها؛ للإعلام بدوام حياتها وإثمارها لبقاء جذورها ضاربة في الأرض، متمكنة من أسباب الحياة والبقاء^(٢). وقوله تعالى: ﴿وَفَرَعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾، أي: أغصانها ممتدة صاعدة في جهة السماء. والفرع: ما امتد من الشيء وعلا، مشتق من الافتراع وهو الاعتلاء.

وفرع الشجرة: غصنها، من قولهم: فرّع الجبل إذا علاه، وسمي الأعلى فرعاً؛ لتفرعه على الأصل ولهذا أفرد اللفظ في الآية، وإلا فكل شجرة لها فروع وأغصان^(٣).

ووصف الشجرة بكونها طيبة يشمل طيب الصورة والشكل والمنظر والطعم والرائحة والمنفعة، ويكون أصلها ثابت، أي: راسخ آمن من الانقطاع والاجتثاث ويكون فرعها في السماء؛ لأن ارتفاع الأغصان يدل على ثبات الأصل، وأنها متى ارتفعت كانت بعيدة عن عفونات الأرض فكانت ثمارها نقية من جميع الشوائب^(٤).

(١) أخرجه البخاري - كتاب العلم، باب طرح الإمام المسألة على أصحابه ليختبر ما عندهم من العلم.

(٢) انظر: التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم ١٧٨/٢.

(٣) راجع: التحرير والتنوير ١٣/٢٢٤. وروح المعاني ١٣/٢١٣.

(٤) الباب في علوم الكتاب ١١/٣٨٠.

والآية من الاحتباك، فذكر ﴿ثَابِتٌ﴾ أولاً دال على عال صاعد ممتد ثانياً، وذكر ﴿السَّكَمَاءُ﴾ ثانياً دال على الأرض أولاً^(١).

وبين قوله تعالى: ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ وبين ﴿وَفَرْعُهَا فِي السَّكَمَاءِ﴾ طباق رائع وكناية عن علو شأن هذه الشجرة المباركة بداية ونهاية أصلاً وفرعاً. ووصفت الشجرة أيضاً بأنها ﴿تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾ أي تؤتي ثمرها في كل وقت. والحين في اللغة بمعنى الوقت، فقد وصفت الشجرة بأن ثمارها دائمة ولا تنقطع في كل وقت وقته الله تعالى لإثمارها، وقوله تعالى: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ أي بإرادته ومشئته سبحانه. والمراد بالأكل المأكول وإضافة (رب) إلى ضمير الشجرة فيه تعظيم لمكانتها. وأوثر وصف الربوبية للدلالة على كمال التربية والعناية.

ثم نبه الله تعالى على عظم هذا المثل ليقبل على تدبره ليعلم المراد منه فقال سبحانه: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾، ففي ضرب الأمثال زيادة إيضاح للمعاني وإفهام وتذكير؛ لأن المعاني العقلية إذا ذكر مناسبها من المحسوسات وصورته بها تلك المعاني رسخت في الحس والخيال والوجدان، كل ذلك ليكون حال الناس حال من يرجى له غاية التذكر.

مثالان متقابلان:

وهذا هو مثل الكلمة الطيبة كلمة التوحيد وهي - أعلاها - التي هي أصل كل سعادة، والكلمة الطيبة بمفهومها الشامل لكل كلمة خير تنبع من القلب والعقل، وإذا إنها تقال تعلق بصاحبها عن سفاسف الأمور، وتنهض به إلى معاليها، فهي ترفع صاحبها ولا تهوى، وهي هادية مرشدة ممتدة النفع تؤتي ثمارها كل حين، والكلمة الطيبة تبقى

ببقاء الأنفس المتبصرة المدركة، فالكلمة الطيبة يبقى أثرها حياً في النفوس والأفئدة. إن الكلمة التي تتحقق فيها كل هذه الصفات والمعاني هي الكلمة الصادقة النابعة من القلب إرضاء لله تعالى، وذوداً عن محارمه، إنها الكلمة التي تتحقق فيها النية الخالصة الطيبة، والقول الطيب كما قال تعالى: ﴿وَهْدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهْدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾ [الحج: ٢٤].

ثم يذكر سبحانه وتعالى صورة تشبيهية مناقضة للصورة الأولى وهي صورة تلك الكلمة الخبيثة كلمة الشرك وما يندرج تحتها من كل كلمة آثمة لا خير فيها والتي تنبئ عن نفس خبيثة، وعن فكر ضال، تلك الكلمة وما شاكلها كشجرة خبيثة هشة لا قرار لها، وليس لها أصل ثابت بل عروقتها وجذورها طافية فوق سطح الأرض فيسهل اقتلاعها واجتثاثها. إن تلك الشجرة ليس لها نفع ولا قيمة تماماً كالكلمة الخبيثة التي لا أثر لها في النفوس، ولا قيمة لها؛ لأنها تنبع من نفس كاذبة غير مخلصنة، تقودها الأهواء وتسيرها الشهوات، والمراد بالشجرة الخبيثة شجرة الحنظل - على أرجح الأقوال - وقيل: هي الثوم، وقيل: المراد بها الكافر نفسه، وقيل: هي كل شجرة لا يطيب ثمرها^(١).

وجاء قوله سبحانه: ﴿اجْتُنَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ﴾ في مقابلة قوله تعالى: ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾. ومعنى ﴿اجْتُنَّتْ﴾ استؤصلت، وأصل الاجتثاث: أخذ الجثة كلها، والاجتثاث: قطع الشيء كله. وجملة ﴿اجْتُنَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ﴾ وقعت صفة لـ ﴿شجرة خبيثة﴾. وجملة ﴿مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ تأكيد لمعنى الاجتثاث؛ لأن الاجتثاث من انعدام القرار. والتعبير بـ (من) في قوله تعالى: ﴿مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ لتأكيد العراقة في نفي رسوخ تلك الشجرة الخبيثة وأصلها، فهي ليس لها أصل ثابت في الأرض، ولا فرع صاعد إلى السماء، وكذلك

(١) ينظر مثلاً: روح المعاني ١٣/ ٢١٥، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٩/ ٣٦١-٣٦٢.

الكلمة الخبيثة الباطلة لا بقاء لها أصلاً وإن علت وقتاً؛ لأن حجتها داحضة، فجنودها مهزومة، لا خير فيهم، ولا يصعد لهم قول طيب، ولا عمل صالح.

ومما يلحظ في هذا التشبيه التمثيلي لحال الكلمة الخبيثة بالشجرة الخبيثة أنه جاء مقابلاً لكل صفات التمثيل الأول لحال الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة. وقد جاء التمثيل الثاني موجزاً اكتفاء بالمضاد أو المقابل في الصورة الأولى، فانتفت عن الكلمة الخبيثة سائر المنافع التي أثبتت للكلمة الطيبة. «وفي ظل الشجرة الثابتة مثلاً للكلمة الطيبة: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ وفي ظل الشجرة الخبيثة المجتشة من فوق الأرض مالها من قرار ولا ثبات ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت، بكلمة الإيمان المستقرة في الضمائر، الثابتة في الفطر المثمرة بالعمل الصالح المتجدد الباقي، ويثبتهم بكلمات القرآن، وبوعده للحق بالنصر في الدنيا، والفوز في الآخرة... وكلها كلمات ثابتة صادقة حقة، لا تتخلف ولا تتفرق بها السبل، ولا يمس أصحابها قلق ولا حيرة ولا اضطراب. ويضل الله الظالمين بظلمهم وشركهم، وبعدهم عن النور الهادي، واضطرابهم في تيه الظلمات والأوهام والخرافات، واتباعهم مناهج وشرائع من الهوى لا من اختيار الله يضلهم وفق سسته التي تنتهي بمن يظلم ويعمى عن النور ويخضع للهوى إلى الضلال والتهيه والشروء ﴿ويفعل الله ما يشاء﴾ بإرادته المطلقة التي لا تقف لها قوة ولا يقوم في طريقها عائق»^(١).

قال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ * أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ * وَجَعَلُوا لِلَّهِ أنداداً لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ [إبراهيم: ٢٧-٣٠].

جاء قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾، استئنافاً بيانياً جواباً عن سؤال أثاره تمثيل الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة، والكلمة الخبيثة بالشجرة الخبيثة، وقيل: إن المراد بالقول الثابت كلمة التوحيد، وذلك ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: قبل الموت، فالله سبحانه يثبت المؤمنين ويمكنهم من العمل بمقتضى كلمة التوحيد ويوفقهم إلى ذلك طول مدة حياتهم فيعصمهم من الفتن في دينهم كما عصم أصحاب الأخدود الذين نُشِّروا بالمناشير، ومُشْطت لحومهم بأمشاط الحديد. والثبات صفة لصاحب القول وليس للقول نفسه، ولكن القول وُصِفَ به، لأن القول لا يثبت إلا بثبات صاحبه الذي لا تعبت به الأهواء، ولا تحركه نزعات الشيطان. وتثبيت المؤمنين في الآخرة يكون بعد الموت عند سؤال القبر. وقيل: «إن المراد بالحياة الدنيا في هذه الآية: القبر؛ لأن الموتى في الدنيا حتى يُبعثوا، وفي الآخرة: وقت الحساب. وقيل: المراد بالحياة الدنيا: وقت المسألة في القبر، وفي الآخرة: وقت المسألة يوم القيامة. والمراد أنهم إذا سُئلوا عن معتقدتهم ودينهم أوضحوا ذلك بالقول الثابت من دون تلثم ولا تردد ولا جهل، كما يقول من لم يوفق إلى ذلك: لا أدري، فيقال له: لا دريت ولا تليت»^(١).

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾ أي: يخلق فيهم الضلال عن الحق الذي ثبت المؤمنين عليه، وذلك حسب إرادة هؤلاء الظالمين واختيارهم الناشئ عن سوء استعدادهم. والمراد بالظالمين: الكفرة بدليل مقابلتهم بالذين آمنوا، ووصفهم بالظلم: إما باعتبار وضعهم الشيء في غير موضعه، وإما باعتبار ظلمهم لأنفسهم، حيث بدلوا فطرة الله التي فطر الناس عليها فلم يهتدوا إلى القول الثابت، أو حيث قلدوا أهل الضلال وأعرضوا عن الآيات الواضحات. وإضلالهم في الدنيا أنهم لا يشبتون في مواقف الفتن،

(١) فتح القدير ٣/ ١١١.

وتزل أقدامهم، وهم في الآخرة أضل وأزل^(١). وختمت الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾، والجملة تذييل لما قبلها. والمعنى: يفعل الله ما يشاء من تثبيت بعض، وإضلال بعض آخر على حسب ما تقتضيه مشيئته سبحانه التابعة للحكمة الإلهية البالغة.

وأظهر اسم الجلالة في الموضعين، لتربية المهابة، ولتفخيم الخبر، وليبين كمال سلطانه سبحانه، ولتأكيد مطلق إرادته ومشيئته تعالى.

الاستفهام في ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ للتشويق والتعجيب:

ثم يتجه السياق بعد ذلك للحديث عن هؤلاء الطغاة والمستكبرين الذين بدّلوا شكر نعمة الله كفرًا، وكانوا سببًا في حلول أقوامهم دار الهلاك وهي جهنم - والعياذ بالله - والمخاطب إمّا رسول الله ﷺ وإما أن الخطاب عام لكل واحد. والرؤية في الآية رؤية علمية من خلال ما أخبر به سبحانه في قرآنه المجيد من أحوال الأمم السالفة وأخبارها.

وذهب الطاهر بن عاشور إلى أن الرؤية في الآية بصرية؛ «لأن متعلقها بما يُرى، ولأن تعدية فعلها بـ(إلى) يُرجح ذلك»^(٢).

والرأي الأول هو الذي تطمئن إليه النفس، والله أعلم بمراده.

وغالب المفسرين^(٣) على أن المراد من قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا

(١) روح المعاني ١٣ / ٢١٨ بتصرف يسير.

(٢) التحرير والتنوير ١٣ / ٢٢٩.

(٣) راجع: روح المعاني ١٣ / ٢١٥، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٩ / ٣٦١-٣٦٢، وفتح القدير

وَأَحْلَوْا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿١٠﴾، رؤوس المشركين من قريش، فإن الله تعالى من عليهم بالسكنى بجوار حرمة، وجعلهم قوام بيته، فبدل أن يقوموا على سدائته وطهارته وضعوا عليه الأوثان، وبدلوا الكلمة الطيبة من التوحيد بالإشراك، فاستبدلوا بالنعمة كفرًا، وكذلك أنعم الله عليهم وعلى البشرية جمعاء ببعث محمد ﷺ فيهم، فعاندوه وآذوه وأصحابه، وبدلوا تلك النعمة كفرًا. وكذلك أنعم الله عليه بنعمتي الأمن والرزق فبدلوهما كفرًا.

والذي تستريح إليه النفس أن الآية الكريمة عامة تشمل كل من أنعم الله تعالى عليه بنعمة، فاستغلها في الطغيان والضلال، فلا يوجد في الآية الكريمة ما يدل على تخصيص مشركي مكة، بل اللفظ يدل على التعميم، واللفظ هنا فيه كشف لأحوال النفوس البشرية عندما تحيد عن طريق ربها. وبناء عليه فإنك تستطيع أن تقول: إن اليهود يندرجون تحت الذين بدلوا نعمة الله كفرًا وأحلوا قومهم دار البوار، فقد أعطاهم الله تعالى علم الكتاب فغيروا، وبدلوا، واستطالوا على الناس، وظلموهم، وتعاملوا بالربا والغش، وأكلوا أموال الناس بالباطل، وقالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه، فبدلوا نعمة الله عليهم إلى كفر.

جحود النعمة:

وفي قوله تعالى: ﴿بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ استعارة تصريحية تبعية حيث «استعير التبديل لوضع الشيء في الموضع الذي يستحقه شيء آخر، لأنه يشبه تبديل الذات بالذات»^(١). وفي قوله تعالى: ﴿بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ عدة أوجه، منها: أن الكلام على تقدير مضاف محذوف، والأصل: «بدلوا شكر نعمة الله كفرًا»، فحذف المضاف (شكر)،

(١) التحرير والتنوير ٢٣/٢٢٨.

وأقيم المضاف إليه (نعمة) مقامه، على غرار قوله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكْذِبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢]، والتقدير: شكر رزقكم، فشكر النعمة الذي وجب عليهم وضعوا مكانه كفراً، فكأنهم غيروا الشكر إلى الكفر، وبدلوه تبديلاً. ومنها: أنه لا حذف في الكلام، والمعنى: أنهم بدلوا النعمة نفسها كفراً. فإنهم لما كفروها سلبوها، فبقوا مسلوبي النعمة، موصوفين بالكفر، حاصلًا لهم^(١)، والخلاصة أن التبديل في الآية الكريمة واقع بين الشكر والكفر أو بين النعمة نفسها والكفر.

والتنكير في (كفراً) للتعظيم والتهويل. ونقلنا آنفاً رأي غالب المفسرين بأن المراد بالموصول وصلته أهل مكة من المشركين، وقلنا: إن هذا لا يمنع أن يكون المراد أيضاً كل من اتصف بتلك الصفات في كل زمان ومكان، ما دام لا يوجد تخصيص في اللفظ، والله أعلم بمراده.

وفي قوله تعالى: ﴿بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ كناية عن ذمهم. ويعضد هذا المعنى الطباق بين (نعمة الله) و(كفراً) فهو تأكيد لدم هؤلاء؛ لمقابلتهم نعمة الله عليهم بالجحود والنكران. «ولما كان الكفران هو سبب النعمة أقيم مقام السبب للإشعار بأنهم ظلموا أنفسهم فاستحقوا العذاب بكفرهم»^(٢).

دار البوار:

والإحلال في قوله تعالى: ﴿وَأَحْلَوْا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ بمعنى الإنزال. والمراد بالإحلال: التسبب فيه، أي: كانوا سبباً لحلول قومهم بدار البوار، ففي إسناد (أحل) إلى ضمير (الذين) وهو واو الجماعة مجاز عقلي علاقته السببية، لأن هؤلاء الصناديد كانوا

(١) انظر: الكشاف ٢ / ٣٠٢.

(٢) التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم، د. عبد العظيم الطعني ١٧٩ / ٢.

سبباً في إحلال قومهم النار بدعوتهم إياهم لما هم فيه من الفساد والجحود والضلال. ولم يتعرض لحلول الذين بدلوا نعمة الله كفراً في جهنم، لدلالة السياق عليه، كما في قوله تعالى في شأن جزاء فرعون: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ [هود: ٩٨].

و(دار البوار) أي: الهلاك، قال الشاعر:

فلم أر مثلهم أبطال حرب غداة الحرب إذ خيف البوار

يقال: بار الشيء يبور بوراً: هلك، وبار الشيء بوراً: كسد على الاستعارة؛ لأنه إذا ترك صار غير متفع به فأشبهه الهالك من هذا الوجه. وفي القاموس^(١): البور: الأرض قبل أن تصلح للزرع، أو التي تُجَم سنة لتزرع من قابل. وفي الأساس^(٢): فلان له نوره وعليك بوره، أي: هلاكه. وهي كناية عن موصوف هو (جهنم)، بدليل قوله تعالى بعده مباشرة: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾ ف(جهنم) تعرب عطف بيان للدار أو بدلاً منها. وفي الإبهام بالكناية ثم البيان بالبدل أو عطف البيان تهويل لتلك الدار - أعادنا الله منها - وتخويف منها. وجملة ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ أي: يقاسون حرها الذي يحيط بهم من جميع الجوانب في محل نصب حال من الدار أو من (جهنم) أو من (قومهم)، أو استئناف لبيان كيفية الحلول. وقيل: المراد بـ(دار البوار) يوم بدر، والمعنى: أن صناديد المشركين كانوا سبباً لحلول قومهم مواقع الخزي والأسر والقتل يوم بدر وذلك في الدنيا، وفي الآخرة (جهنم)، والتفسير الأول الذي ذكرناه هو الملائم للسياق، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَيَسَّ الْقَرَارُ﴾ أي: المستقر، وهو أسلوب ذم، والمخصوص بالذم محذوف، والتقدير: بسّ القرار هي، أي: جهنم، أو بسّ القرار قرارهم فيها.

(١) القاموس المحيط لمجد الدين الفيروزآبادي، مادة (بور) الطبعة ٤، شركة فن الطباعة، مصر.

(٢) أساس البلاغة للزمخشري، مادة (بور) مطابع الشعب ١٩٦٠.

وفي العبارة دلالة على أن إنزالهم في جهنم واستقرارهم إنما هو على وجه الدوام والاستمرار. ولا يفوتني أن أشير إلى أن التعبير بالماضي في قوله تعالى: ﴿وَأَحْلُوا﴾ فيه دلالة على تحقق الوقوع في كلا التفسيرين لدار البوار، أي سواء أكان المراد بها يوم بدر أو جهنم والعياذ بالله؛ لأن السورة مكية، وغزوة بدر كانت بعد الهجرة، أو لأن حلولهم في النار إنما هو في الآخرة.

الوقف والوصل:

ويحسن بنا أن نشير إلى حكم الوقف والوصل في هذه الآية الكريمة، فالوقف على ﴿كَفَرًا﴾ حَسَنٌ، وعلى قوله ﴿دَارَ الْبَوَارِ﴾ تام عند نافع، وذلك إن أعربت ﴿جَهَنَّمَ﴾ منصوبة بفعل مضمر، ويكون من باب اشتغال الفعل عن المفعول بضميره، أما إن أعربت ﴿جَهَنَّمَ﴾ بدلاً من قوله ﴿دَارَ الْبَوَارِ﴾ فلا وقف؛ لأنه لا يفصل بين البديل والمبدل منه. وإن أعرب ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ حالاً، فالوقف كاف عند أبي حاتم؛ لأنه جعل جهنم بدلاً من دار البوار^(١).

وعُطِفَ قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ على قوله سبحانه: ﴿بَدَلُوا﴾ و﴿وَأَحْلُوا﴾، والضمير راجع إلى أئمة المشركين ورؤوسهم، والمعطوف إذن داخل في حيز الصلة والتعجيب المستفاد من الاستفهام في قوله تعالى في الآية السابقة ﴿أَلَمْ تَرَ﴾، والمعنى: أن هؤلاء الكبراء كما استبدلوا بشكر نعمة الله كفرًا، فإنهم أيضاً جعلوا له سبحانه شركاء عبدوهم معه، ودعوا الناس إلى ذلك، وهم جعلوا لله هذه الأنداد، يعبدونها كعبادته، ويقرون لها بما هو من خصائص الألوهية، وجعلوا لله تعالى هذه الأنداد، ليضلوا الناس عن سبيل الله القويم، عن التوحيد، وهذا هو المعنى العام للآية.

(١) راجع: منار الهدى في بيان الوقف والابتداء ص ٤١٩.

ونتأمل الآن صياغة هذه الآية وبيانها، ففي قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا﴾ الضمير الملحق بالفعل يعود إلى أئمة الشرك والضلال. ومعنى ﴿وَجَعَلُوا﴾: اتخذوا.

النَّد والمَثَل:

والأنداد: الأشباه والشركاء. قال الراغب في مفرداته: «ند الشيء: مشاركته في جوهره، وذلك ضرب من المماثلة، فإن المثل يقال في أي مشاركة كانت، فكل ند مثل، وليس كل مثل ندًا»^(١) والمعنى: أنهم اتخذوا أمثالاً له سبحانه في العبادة أو في التسمية، والأوثان التي اتخذوها أنداداً ليست بداهة مماثلة لله سبحانه وتعالى، ولكنهم اتخذوها أنداداً بأوهامهم الباطلة، وتصوراتهم الخاطئة، وأفكارهم الفاسدة، إذ كيف تكون تلك الحجارة الصماء التي لا تسمع ولا تبصر، ولا تضر ولا تنفع أنداداً لله تعالى؟ ولكنهم جعلوها كذلك.

قراءتا الفتح والضم في قوله: ﴿لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾:

وفي قوله تعالى: ﴿لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ قراءتان^(٢): أولاهما بفتح الياء «ليُضِلُّوا» وهي قراءة ابن كثير وأبي عمرو، والثانية بضم الياء «ليُضِلُّوا» وهي قراءة الجمهور.

والمعنى على القراءة الأولى بفتح الياء: ليضلوا أنفسهم عن سبيل الله، وتكون اللام للعاقبة، أي: ليتعقب أو ليكون مآل جعلهم لله أنداداً ضلالهم، لأن العاقل لا يريد ضلال نفسه. وإنما حُسِّن استعمال لام العاقبة هنا لأنها تشبه الغرض والغاية من جهة حصولها في آخر الأمر أو المراتب. ولام العاقبة تومئ أيضاً إلى قصور

(١) معجم مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني مادة (ند) ص ٥٠٧.

(٢) ينظر: الحجة في علل القراءات السبع لأبي علي الفارسي، تحقيق: علي الجندي ناصف وآخرين،

والإتحاف ١٦٩/٢، والمحرم الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لأبي محمد عبد الحق بن عطية

٣/٣٣٨، وانظر: الدر المصون ٤/٢٦٨.

تفكيرهم، وفساد عقولهم حيث أوصلوا أنفسهم بأيديهم أي بأوهامهم إلى الضلال، فاللام فيها نعي لعقولهم.

والمعنى على قراءة ضم الياء «لِيُضِلُّوا»: ليقعوا قومهم في الضلال عن سبيل الله، فهذا غرضهم، أي أن غايتهم من جعلهم الله أنداداً لإضلال الناس وإبعادهم عن دين الله القويم. ولو فرض أنهم لم يقصدوا إضلالاً وأن هذا لم يكن غاية لهم إلا أن مقاصدهم مقاصد مساوية للتضليل، لأنها أوقعت الناس في الضلال، لأنها مؤدية إليه وإن لم يقصدوه، فكأنه قيل: للضلال عن سبيله، تشبيهاً عليهم بغاية فعلهم، وهم ما أضلوا إلا وقد ضلوا، فعلم أنهم ضلوا وأضلوا في وقت واحد، وذلك إيجاز بدیع، وهذا كله سبب جعل الإضلال علة لجعلهم الله أنداداً.

وأوجز لك ما تدل عليه كلتا القراءتين، فقراءة ضم الياء «لِيُضِلُّوا» فيها غارة على صناديد المشركين وتشجيع لأفعالهم المؤدية إلى إضلال الناس وضلال أنفسهم، وقراءة فتح الياء «لِيُضِلُّوا» تومئ إلى بلاهتهم واضطراب تفكيرهم، لأنهم إن كانوا عقلاء فإنهم يعلمون أن لازم اتخاذهم من دون الله تعالى أنداداً يوقعهم في الضلال المؤدي إلى هلاكهم، ومع ذلك فإنهم يصرون عليه، ويتمسكون به، ويحاربون من أجله.

واللام في القراءتين للعاقبة، كما في قوله تعالى: ﴿فَالنَّكَطُءُ أَلٌ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَرَمًا﴾ [القصص: ٨]. وفي الجملة استعارة تبعية في الحرف حيث شبه الضلال أو الإضلال نتيجة اتخاذ الأنداد من دون الله بالغرض أو العلة الباعثة فاستعمل له حرف اللام الدال على العاقبة.

أفعال مخالفة للعقل:

ويمكن أيضاً تعليل الغاية أو العاقبة في الآية الكريمة كما دل حرف اللام عليها

بأن المشركين لا يعتقدون أن فعلهم المذكور في الآية الكريمة ضلال، بل يزعمون أنه اهتداء، فترتب على اعتقادهم هذا ضده وهو الضلال والإضلال.

وقد يقال إن مقتضى الظاهر أن يذكر كفران هؤلاء المشركين نعمة الله تعالى، ثم كفرهم بذاته سبحانه باتخاذهم الأنداد، ثم إضلالهم لقومهم المؤدي إلى إحلالهم دار البوار، فلماذا غُوِيََ هذا الترتيب في الآيات الكريمة؟

ويجاب عنه: بأن الغرض من تغيير الترتيب هو تكرير التعجيب من كل فعل من تلك الأفعال المخالفة للعقل والمنطق، ولو جاء النظم على نسق الظاهر فلربما فهم التعجيب من المجموع^(١)، وهذا غير مراد، لأن المراد الإشارة إلى أن كل فعل من هذه الأفعال المخالفة بلغ حداً من الشناعة والمخالفة بأن يتعجب منه كل على حاله. والله أعلم بمراحه.

وفصلت جملة ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ عما قبلها، للاستئناف البياني، وكأن سائلاً قد سأل عن جزاء هؤلاء الضالين المضلين، فأجيب بأن مصيرهم ومآلهم بعد موتهم إلى النار.

التعبير بالأمر للمبالغة في التهديد والوعيد:

والغرض من الأمر في الفعل ﴿تَمَتَّعُوا﴾ المبالغة في التهديد والوعيد الشديدين لأولئك المنحرفين عن جادة الحق والصواب، الضالين لأنفسهم والمضلين لأقوامهم. والمعنى: قل لأولئك الضالين المتعجب منكم: تمتعوا بما أنتم عليه من المخالفات والشهوات حتى حين، فإن مصيركم إلى النار. وفي التهديد بالأمر كذلك نعي عليهم، وإيدان بأنهم لشدة مجانبتهم الحق، وفرط انهماكهم في الباطل، وعدم انزجارهم وعدم

(١) انظر: روح المعاني ١٣ / ٢١٩.

ارعوا عنهم عن ذلك، لجديرون بأن يغلق معهم القول، وتمسك عنهم النصيحة، ويعطف عنهم عنان العظة، ويتركوا وشأنهم ولا ينهوا عما هم عليه من الباطل والتمسك به والشهوات واتباعها، بل يؤمرون بمباشرة ذلك، مبالغة في الإعراض عنهم، وفي خذلانهم، والتخلي عنهم، وتأسيساً من إيمانهم وإذعانهم للحق، ومسارعة إلى بيان عاقبة ما اقترفوه، ويقال لهم: ﴿تَمَتَّعُوا﴾ بما أنتم عليه، والذي من جملته جحود نعم الله تعالى واستتباع الناس في عبادة الأصنام ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ لا غيرها، فلا بد لكم من تعاطي أي فعل ما يوجب هذا المصير المحتوم، وفي هذا كما قلنا من المبالغة في التهديد والوعيد ما فيه بما لا يوصف.

ويمكن تفسير الأمر بالتمتع أيضاً بأن معناه: قل لهم تصويراً لحالهم، وتعبيراً عما يلجئهم إلى ذلك ﴿تَمَتَّعُوا﴾، إشعاراً بأنهم لفرط انغماسهم في التمتع بما هم فيه من غير زاجر ولا رادع ولا صارف يلويهم، ولا عاطف يشينهم مأمورون بذلك من قبل أمر الشهوة، مدعنون لحكمه، منقادون لأمره، كشأن مأمور ساع في خدمة أمر مطاع، أو عبد منقاد لأمر سيده، لا يتفلت منه، ولا يتوانى في تنفيذه، وعلى هذا التأويل كما قدره الزمخشري يكون قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ جواب شرط محذوف، كأنه قيل: إن دمت على ما أنتم عليه من الامتثال لأمر الشهوة (فإن مصيركم إلى النار)^(١). والمعنى الأول هو الأنسب.

وجُعِلَ تبديل نعمة الله كفرةً، وإضلال الناس متمتعاً به «تشبيهاً له بالمشتريات المعروفة، لتلذذهم به كتلذذهم بها»^(٢).

(١) راجع: الكشاف ٢/ ٣٠٢-٣٠٣، وإرشاد العقل السليم ٤٦/٥.

(٢) روح المعاني ١٣/ ٢١٩.

تعقيب:

ولي تعقيب على معنى الآية الكريمة كما شرحناها بالتفصيل فأقول: إن نشر الفساد تحت أي مسمى، أو باسم أي شيء، أو تحت أي ادعاء، هو من الضلال، والمثل على ذلك هؤلاء الذين يروجون للرذيلة وللعري والفحش باسم الفن مدعين أنهم يصورون واقع المجتمع، أو يكشفون عن بعض صور الفساد فيه، فيحدثون بذلك شروخاً عميقة في قيم المجتمع وتقاليده، وينحرون الأخلاق الفاضلة، ويذبحون الحياء بل ينزعونه من نفوس الكبار والصغار، الشباب والفتيات. إن هؤلاء ضالون مضلون بدلالة قوله تعالى: ﴿يُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ كما شرحنا بالتفصيل.

يجب أن يكون كل صاحب فكر أو رأي أو تأثير في الناس أنموذجاً حياً للمثل والقيم والأخلاق، وأن يطبق هذا في أقواله وأفعاله، وفيما يصدر عنه من أعمال.

قال تعالى: ﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ﴾ [إبراهيم: ٣١].

علة الفصل بين الأمرين بسقوط العاطف:

وفصل بين الأمرين في قوله تعالى ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ و﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ للإشعار بوضوح تباين حالهما باعتبار القول لهما تهديداً وتشريفاً، فالموجه إليهم القول الأول هم صناديد المشركين، والموجه إليهم القول الثاني أشرف المؤمنين، فمن أجل وضوح تباين الحالين والجزئين بين الفريقين كان الفصل بين الأمرين بترك العاطف.

ولنعد إلى بيان قوله تعالى ﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾.. فلما أمر الله تعالى نبيه ﷺ بأن يقول للمبديلين نعمة الله كفرأ، الجاعلين له أنداداً ما قاله لهم أمره سبحانه بأن يقول

للطائفة المقابلة لهم وهي طائفة المؤمنين الموحدين هذا القول: ﴿يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾ وهنا أمر بالعبادة البدنية المتمثلة في الصلاة، والعبادة المالية المتمثلة في الصدقات والزكاة. وفعل الأمر ﴿قُلْ﴾ للوجوب، فهو رسالة فورية يجب على الرسول ﷺ إبلاغها فور تلقيها، ووسط الرسول ﷺ في إبلاغ تلك الرسالة أو هذا الأمر، لأنه ﷺ هو المعلم والمرشد والهادي لأمته. ومقول القول محذوف دل عليه جواب الأمر في قوله ﴿يُقِيمُوا﴾، أي قل لهم: أقيموا الصلاة وأنفقوا، وجوزوا أن يكون ﴿يقيموا وينفقوا﴾، بمعنى: ليقموا ولينفقوا فأسقطت اللام، ويكون الفعلان المجزومان مقول القول. وإنما جاز حذف اللام، لأن فعل الأمر ﴿قُلْ﴾ عوض عنه^(١).

وقد اعترض كثير من الحذاق وأهل الإعراب على الوجه الأول القائل بأن مقول القول محذوف^(٢)، ووجه اعتراضهم أن الجواب حيثئذ يكون خبراً من الله تعالى بأنه: إن قال لهم هذا القول امثلوا مقتضاه فأقاموا الصلاة وأنفقوا، لكن الواقع يخالف هذا الخبر، إذ لم يمثل كثير من المخاطبين المأمورين، وخبر الله يجلب عن الخلف، وهذا هو سر عدول كثير من المعربين عن هذا الوجه من الإعراب. ويمكن الخروج من هذا الإشكال بحمل العام على الغالب لا على الاستغراق، أي أن غالب المأمورين امثلوا للأمر، ويقوى هذا التوجيه بما يأتي:

أولاً: أن هذا الأمر مأمور به من هو موصوف بالإيمان الحق، المنوه بإيمانه عند الأمر، فهم لما كان كانوا متحليين بالإيمان الكامل صيغ عنهم الحديث بوصف الإيمان.

(١) انظر: الكشف ٣٠٣/٢.

(٢) راجع: البحر المحيط ٥/٥٤٥-٥٤٦، تحقيق: د. عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي،

ثانياً: تكرر مجيئه للموصوفين بأنهم عباد الله المشرفون بإضافتهم إلى اسم الله الأعظم. وقد قالوا: إن لفظ العباد لم يرد في القرآن إلا في مقام المدح والتشريف، وخصوصاً إذا أضيف هذا اللفظ إلى الذات العلية.

والخلاصة: أن المأمور به في هذه الآي من هو بصدد الامثال، وفي حيز المسارعة للطاعة، فالخبر في أمثالهم حق وصدق إما على العموم إن أريد، أو على الغالب^(١). ويمكن أن يكون المأمور به ممثل فعلاً ومتلبس بالفعل، والخبر في أمثالهم يراد به الغالب لا الاستغراق. والله أعلم. وخصت الصلاة والنفقة بالذكر؛ لأنها كانتا المفروضتين في مكة حينذاك، فلم يكن فرض فيها غيرهما، فالصوم والزكاة والحج فرض بعد الهجرة، والسورة مكية كما أشرنا في بداية تفسيرنا للسورة.

وذكر المؤمنون بأخص أوصافهم وأشرفها وهو الإيمان، ليتناسب ذلك مع خصهم بالإضافة إلى ضميره سبحانه حيث قال: ﴿قُلْ لِعِبَادِيَ﴾، وفي تلك الإضافة ما فيها من تشريفهم والتنويه بشأنهم، وفي إضافتهم إلى ضميره سبحانه أيضاً تحبيب لهم فيه سبحانه، وفيها أيضاً إشارة إلى أنهم المقيمون لوظائف العبودية الموفون بحقوقها وواجباتها. والغرض من الأمر الدوام والاستمرار. وأتبع وصفهم بالعبودية بما يدل على إذعانهم لأمر ربهم فقال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾، أي: أوجدوا هذا الوصف.

سر إثارة المضارع على الأمر:

«ولما كان المؤمنون يقيمون الصلاة من قبل وينفقون من قبل تعين أن المراد الاستزادة من ذلك، ولذلك اختير المضارع مع تقدير لام الأمر دون صيغة فعل الأمر،

(١) انظر: الكشف ٢ / ٣٠٣.

لأن المضارع دال على التجدد، فهو مع لام الأمر يلاقي حال المتلبس بالفعل الذي يؤمر به بخلاف صيغة (افعل) فإن أصلها طلب إيجاد الفعل المأمور به من لم يكن ملتبساً به»^(١).

وفي التعبير بالفعل المضارع «إيذان بكمال مطاوعتهم الرسول ﷺ وغاية مسارعتهم إلى الامتثال بأوامره»^(٢).

والتعبير عن المؤمنين بوصف العبودية المضاف إلى ضمير الذات العلية فيه تشریف لهم، وتكریم، وفيه كذلك إشارة إلى أنهم أدوا حق العبودية لله تعالى فلم يشركوا معه أحداً، وأنهم أعطوا ما هو حق للعبد أن يؤديه تجاه خالقه ومولاه.

دلالة التبعض على التخفيف:

والتبعض في قوله تعالى: ﴿وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ فيه تخفيف على المؤمنين؛ حيث أمروا بالتصدق ببعض ما رزقهم الله، ولو قيل: وينفقوا ما رزقناهم، لكان أمراً لهم بالتصدق بجميع أموالهم، وهذا تشديد لا تتحملة الطباع البشرية؛ لذا كان التبعض في قوله تعالى: ﴿مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ من باب التيسير عليهم والتخفيف في النفقة.

والصلاة صلة بين العبد وربّه، وهي عمود الدين، وإقامتها استشعار للربوبية، ولا دين من غير صلاة. والمراد بالصلاة ما يعم كل صلاة فرضاً كانت أو تطوعاً.

وفسرها ابن عباس رضي الله عنهما بالصلاة المفروضة. والإنفاق في سبيل الله يتجسد فيه معنى التكافل في المجتمع المسلم، وبه وبالزكاة تستل الأضغان من صدور الفقراء تجاه الأغنياء.

وقيل: ﴿مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ بإسناد الرزق إلى نون العظمة؛ للتذكير بالنعيم سبحانه،

(١) التحرير والتنوير ٧ / ٢٣٢.

(٢) إرشاد العقل السليم ٥ / ٤٦.

وللتحريض على الإنفاق ليكون شكراً للنعمة. وأشير إلى المداومة على هاتين الخلتين بقوله تعالى: ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾، وهذا هو سر الطباق في العبارة. وانتصب اللفظان على الحال، أي: ذوي سر وعلانية، يعني مُسِرِّين ومُعْلِنِينَ، أو على الظرف، أي: وقتي سِرٍّ وعلانية، أو على المصدر، أي: إنفاق سر وإنفاق علانية. والمعنى إخفاء التطوع وإعلان الواجب (١).

وشرع الإنفاق في السِّر سراً للمتجملين من الفقراء، واستبقاء لبعض حياتهم. وشرع الإنفاق في العلانية للاقتداء ونشر التعاون. وعلى كل فالإنفاق في كل من السر والعلانية حسن في موضعه، ولكن تبقى الأفضلية للإنفاق في السِّر لأنه أبعد عن خواطر الرياء والسُّمعة؛ لذا قدّم السر على العلانية في قوله سبحانه ﴿وَيُفْقَهُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾.

والشرط الأهم في أي عمل من الأعمال هو الإخلاص لله تعالى. وجمع بين الأمر بالإنفاق في السر والعلانية؛ لأن المقصود (تعميم الأحوال في طلب الإنفاق لكيلا يظنوا أن الإعلان يجبر إلى الرياء كما كان حال الجاهلية، أو أن الإنفاق سراً يفضي إلى إخفاء الغنيّ نعمة الله فيجبر إلى كفران النعمة، فربما توخى المرء أحد الحالين فأفضى إلى ترك الإنفاق في الحال الآخر فتعطل نفع كثير، وثواب جزيل، فبين الله للناس أن الإنفاق بر لا يكدره ما يحف به من الأحوال و«إنما الأعمال بالنيات» (٢).

وجاء قوله تعالى: ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ﴾ متعلقاً بفعل ﴿يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُفْقَهُوا﴾ والتقدير: ليفعلوا هذين الأمرين قبل حلول اليوم الذي تتعذر فيه المعاوزات

(١) انظر: فتح القدير للشوكاني ١١٣/٣.

(٢) التحرير والتنوير ١٣/٢٣٣.

والإنفاق، وهذا كناية عن عظيم منافع إقامة الصلاة والإنفاق قبل يوم القيامة حيث لا مجال للاستزادة منها، إذ لا بيع يومئذ فيُشترى الثواب، ولا خليل فيشفع له، أو يساعده بما يفتدي به نفسه. ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ﴾ فيشترى المُقَصِّر ما يتلافى به تقصيره. والمقصود «نفي عقد المعاوضة - التعويض - بالمرة، وتخصيص البيع بالذكر للإيجاز مع المبالغة في نفي العقد، إذ انتفاء البيع مستلزم انتفاء الشراء على أبلغ وجه»^(١).

دلالة الجار على قصر مدة الأعمال:

وإدخال الجار في قوله تعالى: ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾ للإشارة إلى قصر مدة أعمارهم. والتكثير في ﴿يَوْمٌ﴾ للتعظيم والتهويل، أي يوم عظيم شديد هوله ليس كسائر الأيام التي تعرفونها، فهو يوم لا نهاية له.

والمراد من قوله ﴿وَلَا خِلَلٌ﴾ المخالة، وهي المصاحبة، أي نفي الصحبة والمودة التي يكون عنها شفاعة أو نصر يومئذ. ويحتمل أن يكون المعنى في الآية: من قبل أن يأتي يوم لا انتفاع فيه لما لهجوا بتعاطيه من البيع والمخالة، ولا انتفاع بذلك، وإنما الانتفاع بالإنفاق لوجه الله تعالى. وعلى التقدير الأول فإن المنفي البيع والخلال في الآخرة، وعلى التقدير الثاني فالمراد نفي البيع والخلال اللذين كانا في الدنيا بمعنى نفي الانتفاع بهما^(٢).

جواب على استشكال:

وقد يستشكل تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا خِلَلٌ﴾ على نفي المخالة أي الصداقة والمودة يوم القيامة بإثباتها في قوله تعالى: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا

(١) إرشاد العقل السليم ٥ / ٤٦.

(٢) وقرئ بالفتح في (بيع) و(خلال) على إرادة النفي العام.

الْمُتَّقِينَ ﴿[الزخرف: ٦٧]، ويمكن الرد على هذا الإشكال في آية الزخرف حيث أثبت فيه المخالة أي المودة والمحبة وعدم العداوة بين المؤمنين المتقين أن المراد في آية سورة إبراهيم نفي المخالة النافعة بذاتها في تدارك ما فات. وقيل أيضاً في التوفيق بين الآيتين، إن المراد: لا مخالة بسبب ميل الطبع ورغبة النفس، وتلك المخالة أي المودة الخالصة بين المتقين في الله تعالى^(١).

وتخصيص الأمر بالإنفاق بما ذكر في الآية؛ لميل النفوس إلى المال والحرص عليه والضمن به. ولا يمنع أن يكون التأكيد على إنفاق المال في سبيل الله وفي الوجوه المشروعة تأكيداً أيضاً لمضمون الأمر بإقامة الصلاة في الآية من جهة أن تركها وإضاعتها كثيراً ما يكون بسبب الاشتغال بالبيع والشراء، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهِوِ وَمَنِ الْبَحْرَةُ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّزَاقِينَ ﴿[الجمعة: ١١].

والحاصل أن قوله تعالى: ﴿لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ﴾ أي لا انتفاع بهما كناية عن الانتفاع بما يقابلهما وهو ما أنفق لوجه الله تعالى، فالجملة فيها حث على الإنفاق في سبيل الله، كأنه قيل: لينفقوا في سبيل الله من قبل أن يأتي يوم ينتفع بإنفاقهم المنفقون له، ولا ينفع الندم لمن بخل وأمسك. والعدول إلى ما في النظم القرآني لإفادة الحصر وأن ذلك وحده هو المنتفع به، وليبرز البون الشاسع بين ما ينفع في العاجل وما ينفع في الآجل^(٢).

علة اختصاص موضعين متشابهين بما ورد فيهما:

وذكر في آية سورة البقرة قوله تعالى: ﴿مَنْ قَبِلَ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ﴾

(١) انظر: روح المعاني ١٣ / ٢٢٢.

(٢) المصدر السابق.

[البقرة: ٢٥٤]، والمعنى: من قبل أن يأتي يوم لا تقدرُونَ فيه على تدارك ما فاتكم من الإنفاق؛ لأنه لا بيعٌ حتى تبتاعوا ما تنفقونه، ولا خُلَّةٌ حتى يسامحكم أخلاؤكم له.

وقد يسأل السائل عن علة اختصاص كل من الآيتين بموضعه في السورتين! ويجاب عنه بأن الخطاب في آية البقرة عام، فكان الحث على الإنفاق مطلقاً، وتصويراً أن الإنفاق نفسه هو المقصد والمطلب فليُغتنم قبل أن يأتي يوم يفوت فيه ولا يدركه الطالب.

أما الخطاب في آية سورة إبراهيم فهو للمؤمنين الخُلَص الصفوة؛ لذا كان الموافق للمقام حثهم على الاستمرار والمداومة في الإنفاق والاستزادة منه، كأنه قيل لهم: دوموا عليه، وتمسكوا به لتغنموا يوم لا ينفع إلا من دام عليه. ولو قيل: دوموا عليه قبل أن يفوتكم ولا تدركوه، لم يكن بتلك الدرجة من التأكيد؛ لأن الأمر في الموضع الأول في البقرة فيه إشعار بالحث على طلب أصل الفعل، بخلاف الأمر في الموضع الثاني؛ لأنه بطلب الدوام على الفعل^(١).

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا خِلَافٌ﴾ إيجاز بالحذف لدلالة السياق عليه، والتقدير: ولا خلال فيه. والله أعلم بمراده.

نعم جليلة:

قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ [إبراهيم: ٣٢-٣٣].

(١) انظر: روح المعاني ١٣ / ٢٢٢.

بعد أن ذكر سبحانه أحوال الكافرين الجاحدين نعمه، وأمر المؤمنين بإقامة الصلاة وبالإنفاق، شكراً لتلك النعم الإلهية شرع سبحانه في تفصيل تلك النعم مما يستوجب على كافة الخلق المثابرة على الشكر، والاجتهاد في الطاعة، وذلك حثاً للمؤمنين عليها، وتقريعاً للكفرة المخلين بها^(١) فقال سبحانه: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ والمعنى الإجمالي: أن الله جل وعلا هو الذي خلق السماوات والأرض وما فيهن، وما في العالم العلوي من الأجرام السماوية والكواكب السيارة، والهواء والأثير، والشمس والقمر، والليل والنهار، والماء النازل من السماء وغير ذلك مما لا نعلمه بما فيه من دلائل على كمال قدرته سبحانه، وعظيم نعمه التي لا تعد ولا تحصى. الله سبحانه هو الذي أنزل من السماء ماء طهوراً مباركاً وجعل منه كل شيء حي، وأخرج بسببه من الثمرات أنواعاً متشابهة وغير متشابهة، وثمرات مختلفة ألوانها وأشكالها وأحجامها وطعومها رزقاً لبني آدم يعيشون به. وهو الذي سخر لكم الفلك، وذلها لكم يا بني آدم لتجري على وفق إرادتكم فوق سطح الماء فتتقلكم وتنقل متاعكم حيث تريدون، فهو الذي أرشدكم لصنعها، وهو الذي سخر البحر لحملها، والريح لتحريكها. وهو الذي سخر لكم الأنهار، وذلها لكم بالركوب عليها وشقها في بطون الأودية ولتستفيدوا منها في معاشكم وشربكم وزراعتكم. وهو الذي سخر لكم الشمس والقمر دائبين في الحركة دائمين لا يفتران، لتنتفعوا بهما، وتستضيئوا بضوئهما، ولتعلموا من خلال منازل القمر عدد السنين والحساب. وهو الذي سخر لكم الليل والنهار، فجعل الليل للراحة والسكون، والنهار للجد والسعي على الرزق ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص: ٧٤] فالشمس والقمر يتعاقبان، والليل والنهار يتعارضان ﴿يُولِجُ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [فاطر: ١٣].

(١) انظر: روح المعاني ١٣/ ٢٢٣.

وهو سبحانه الذي آتاكم من كل مسؤول سألتموه، أو آتاكم كل ما تحتاجون إليه على حسب طاقتكم وقوتكم واستعدادكم، وآتاكم أيضاً ما لم تسألوه. وإن تعرضوا لتعداد نعم الله التي منَّ بها عليكم إجمالاً فضلاً عن التفصيل لا تطيقوا إحصاءها بوجه من الوجوه ولا تستطيعون أن تقوموا بحصرها على حال من الأحوال.

هنا في تلك الآيات الكريمة - ونظيراتها - «يفتح كتاب الكون على مصراعيه فتنطق سطوره الهائلة بنعم الله التي لا تحصى. وتتوالى صفحاته الضخمة الفسيحة بألوان هذه النعم على مد البصر، السماوات والأرض، الشمس والقمر، الليل والنهار، الماء النازل من السماء، والثمار النابتة من الأرض، البحر تجري فيه الفلك، والأنهار تجري بالأرزاق، هذه الصفحات الكونية المعروضة على الأنظار ولكن البشر لا ينظرون ولا يتدبرون ولا يشكرون. إن الإنسان لظلوم كفار؛ يبدل نعمة الله كفرًا، ويجعل الله أندادًا، وهو الخالق الرازق المسخر الكون كله لهذا الإنسان. والمشهد الهائل الحافل المعروض هنا لأيدي الله وآلائه، تسير فيه خطوط الريشة المبدعة وفق اتجاه الآلاء بالقياس إلى الإنسان: خط السماوات والأرض، يتبعه خط الماء النازل من السماء، والثمار النابتة من الأرض بهذا الماء، فخط البحر تجري فيه الفلك، والأنهار تجري بالأرزاق... ثم تعود الريشة إلى لوحة السماء بخط جديد: خط الشمس والقمر، خط الليل والنهار... ثم الخط الشامل الأخير الذي يلون الصفحة كلها ويظللها: ﴿وَأَتَنَكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ ﴿١﴾ إنه الإعجاز الذي تتناسق فيه كل لمسة وكل خط وكل لون وكل ظل في مشهد الكون ومعرض الآلاء»^(١).

وبعد... فتلك كانت إطلالة عامة ونظرة شاملة في تلك الآيات المباركة، ولكن يبقى التأمل الدقيق والوقفات التفصيلية أمام صياغة تلك الآيات وبيانها، فلفظ الجلالة

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢١٠٥-٢١٠٦.

مبتدأ، خبره ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾، والتعبير باللفظ الجليل لتربية المهابة وللدلالة على قوة السلطان، وكمال القدرة الإلهية. والطباق بين السماوات والأرض أبرز كمال تلك القدرة وأكدها.

جمع السماوات وإفراد الأرض:

وجمعت السماوات وأفردت الأرض طلباً للتخفيف وتجنباً للثقل في النطق، فإن الجمع (الأرضين) فيه ما تلحظه من الثقل؛ لذا تجنب البيان القرآني ذكر الأرض مجموعة، وذكرها مفردة دائمة، وعندما أريد الجمع قيل: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢]. ولقد ذكرت (الأرض) إحدى وستين وثلاث مئة مرة، منها مئة وسبعون موضعاً جاءت مقترنة بالسماوات.

والجملة: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ استئناف ابتدائي، للاستدلال على ما تضمنته جملة ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ في الآيات السابقة، فجيء في هذه الآية بنعم عامة محسوسة، وبمظاهر قاطعة لإثبات الألوهية لا يمكن إنكارها إلا أنها تحتاج للتذكير بأن المنعم بها وموجدها هو الله تعالى.

وافتح الخبر باسم المنعم سبحانه؛ لأن تعيينه هو الغرض الأهم، وأخبر عنه بالوصول لأن الصلة معلومة الانتساب إليه والثبوت له سبحانه، إذ لا ينازع المشركون في ذلك بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥] فخلق السماوات والأرض دليل على ألوهية خالقهما وتمهيد لذكر النعم المودعة فيهما، فإنزال الماء من السماء إلى الأرض، وإخراج الثمرات من الأرض، والبحار والأنهار من الأرض والشمس والقمر من السماء، والليل والنهار من السماء والأرض^(١).

(١) انظر: التحرير والتنوير ١٣/ ٢٣٤، ٢٣٥.

إذن عرفت الآن علة البدء بذكر خلقه الله تعالى السماوات والأرض حيث إنها بما يحويان من نعم من أدل الدلائل على قدرة الخالق سبحانه، وعلى عظيم نعمه على الإنسان.

و(من) في قوله سبحانه ﴿مِنْ السَّمَاءِ﴾ ابتدائية؛ لأن مبتدأ المطر من جهتها. وقُدِّم الجار والمجرور ﴿مِنْ السَّمَاءِ﴾ على المفعول به ﴿مَاءً﴾ للتشويق إلى المؤخر أو لتشريفه، أو لكون السماء مبدأ نزول الماء كما ذكرنا. والتنكير في ﴿مَاءً﴾ للنوعية، والمقصود نوع معين منه، هو المطر. والمراد من قوله سبحانه: ﴿مِنْ السَّمَاءِ﴾ من جهة العلو، فكل ما علاك سماء، فيدخل فيه السحاب عند من قال: إن ابتداء المطر منها، وسمي السحاب سماء لعلوه، ولأنه فوق الأرض التي يمطرها. ويدخل في السماء أيضاً بناء على التأويل السابق الأسباب التي تثير السحاب كالرياح.

وجمعت السماوات في قوله تعالى عند الحديث عن الخلق: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ﴾ وأفردت عند الحديث عن الرزق لأن الغرض والله أعلم بمراده في الأولى لفت النظر إلى دلائل قدرة الله تعالى من خلال الصفحات الكونية المشاهدة وأبرزها خلق السماوات بما فيها من أجرام وكواكب، لذا كان من الملائم في هذا السياق جمع السماوات لإيقاظ الحس والوجدان وإثارة الفكر والتأمل عند المخاطبين والسامعين، أما أفراد السماء في قوله: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ فالمقصود به السحاب الثقيل المملوء بالماء.

والتأمل في هذه الآيات يلحظ أن الإسناد فيها إنما هو للفاعل الحقيقي الله سبحانه وتعالى.

وقوله: ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾ أي: أخرج بذلك الماء من الثمرات المتنوعة رزقاً لكم.

ويحسن الوقف في الآيتين الكريمتين على قوله سبحانه: ﴿رِزْقًا لَّكُمْ﴾، و﴿بِأَمْرِهِ﴾ و﴿الْأَنْهَارَ﴾ و﴿دَائِبِينَ﴾، و﴿وَالنَّهَارَ﴾. وإنما حسن الوقف في تلك المواضع مع العطف تفصيلاً لنعم الله تعالى وتذكيراً بها، وحثاً على الشكر عليها^(١).

و(من) في قوله: ﴿مِنَ الشَّعَرِ﴾ إما أن تكون بيانية كقولك: أنفقت من الدراهم ألفاً، وإما أن تكون للتبويض كأنه قيل: أنزل لكم من السماء بعض الماء فأخرج به بعض الثمرات ليكون بعض رزقكم، حيث لم ينزل من السماء كل الماء، ولا أخرج بالمطر كل الثمار ولا جعل كل الرزق ثمرأً، ويجوز أن يكون ﴿مِنَ الشَّعَرِ﴾ مفعول ﴿أَخْرَجَ﴾، و﴿رِزْقًا﴾ حالاً من المفعول أو منصوباً على المصدر من ﴿أَخْرَجَ﴾ بمعنى رزق. والرزق هنا بمعنى المرزوق وهو شامل للمطعوم والملبوس. وقوله ﴿لَّكُمْ﴾ صفة لقوله ﴿رِزْقًا﴾ إن أريد به المرزوق، ومفعول به إن أريد به المصدر، كأنه قيل: رزقاً إياكم.

ومعنى تسخير الفلك «تسخير ذاتها بإلهام البشر لصنعها وشكلها بكيفية تجري في البحر بدون مانع»^(٢). والتسخير التذليل والسياسة إلى الغرض المختص قهراً، كما قال الراغب في مفرداته^(٣). وفي ﴿سَخَّرَ﴾ استعارة تصريحية تبعية حيث شبه جعل الشيء قابلاً لتصرف غيره فيه بالتذليل والتطويع. وتقديم الجار والمجرور ﴿لَّكُمْ﴾ على المفعول ﴿الْفُلُكَ﴾ للاهتمام بالمقدم. ومعنى الجملة: وهو سبحانه الذي ذلل الفلك فجرت على إرادتكم واستعملتموها في مصالحكم؛ لذا قال بعدها ﴿لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ﴾ أي: كما ترغبون وعلى ما تريدون ﴿بِأَمْرِهِ﴾ أي بإذن الله ومشيئته، وذلك بكف

(١) انظر: منار الهدى في بيان الوقف والابتداء ص ٤١٩.

(٢) التحرير والتنوير ١٣/ ٢٣٥.

(٣) المفردات للراغب الأصفهاني مادة (سخر).

العواصف الهوجاء عنها، وبإعانتها بالريح الطيبة اللينة، وذلك نعمة من الله تعالى كما صرح في آية أخرى بقوله سبحانه: ﴿الْمَرَّانَ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ يَنْعَمَتِ اللَّهُ﴾.

ويتوالى تعداد النعم الإلهية على الإنسان مدججاً فيها الدلائل الباهرات على كمال قدرة الصانع سبحانه وعلمه. وتلمح فيها تكرار التعبير قبل بداية كل نعمة بقوله (وسخر لكم) وتعدد الأفعال التي ترجع إليه سبحانه كما في قوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ﴾، ﴿وَأَنْزَلَ﴾، ﴿فَأَخْرَجَ﴾، ﴿بِأَمْرِهِ﴾، ﴿آتَاكُمْ﴾ هذا كله للتأكيد على نسبة تلك النعم إلى المنعم الحقيقي سبحانه وتعالى وللتأكيد على كمال قدرته وحكمته وعلمه سبحانه، وعليه فإننا يجب أن نربط تفسير ما نراه من ظواهر طبيعية وكونية في عالمنا بالموجد الحقيقي وبالصانع المبدع سبحانه وتعالى.

دعوة لربط العلم بالإيمان:

وأنا لا أعترض على تفسير تلك الظواهر تفسيراً علمياً، ولكن اعترض في الاقتصاد على ذلك فقط، لأن للكون خالقاً مدبراً حكيماً قادراً، فتلك المظاهر وهذا الكون لم يخلق عبثاً ولا صدفة كما يقول الملاحدة، فلا بد إذن من ربط العلم بالإيمان، وإن من معجزات هذا الكتاب الحكيم «أنه يربط كل مشاهد الكون وكل خلجات النفس إلى عقيدة التوحيد، ويحول كل ومضة في صفحة الكون، أو في ضمير الإنسان إلى دليل، أو إحياء وهكذا يستحيل الكون بكل ما فيه وبكل من فيه معرضاً لآيات الله، تبدع فيه يد القدرة وتتجلى آثارها في كل مشهد فيه ومنظر وفي كل صورة فيه وظل.

إنه لا يعرض قضية الألوهية والعبودية في جدل ذهني ولا في لاهوت تجريدي، ولا في فلسفة (ميتا فيزيقية) ذلك العرض الميت الجاف الذي لا يمس القلب البشري ولا يؤثر فيه ولا يوحى إليه.. إنها هو يعرض هذه القضية في مجال المؤثرات والموجيات

الواقعية من مشاهد الكون، ومجالي الخلق، ولمسات الفطرة، وبديهيات الإدراك في جمال وروعة»^(١).

سر ترتيب النعم في الآية:

وإذا تأملت في سر تلك النعم على حسب ما ورد في الآيات الكريمة تلاحظ أنه بدأ بخلق السماوات والأرض؛ لأنها أصلان يتفرع عليهما سائر ما يذكر بعد، وثنى بإنزال الماء من السماء وإخراج الثمرات به لشدة تعلق النفوس بالرزق فيكون تقديمه من باب التعجيل بالمسرة. وثالث بذكر الفلك لأن الانتفاع بما ينبت من الأرض إنما يكمل بوجود الفلك الجوّاري في البحر، فبالنقل يكثر الريح، واقتصر على تسخير الفلك في هذا المقام اعتناء بشأنها، وبياناً لأهميتها. ولما ذكر أمر الثمرات وما به يكمل الانتفاع بها من حيث النقل، ذكر تسخير الأنهار العذبة التي يشرب منها الناس في سائر الأحيان إتماماً لأمر الرزق.

وأخّر تسخير الشمس والقمر عن تسخير ما تقدم من الأمور مع ما بينه وبين خلق السماوات من المناسبة الظاهرة؛ لاستتباع ذكرها لذكر الأرض المستدعي لذكر إنزال الماء منها - من السماء - إليها - إلى الأرض - الموجب لذكر إخراج الرزق الذي من جملة ما يحصل بواسطة الفلك والأنهار^(٢). ولعل هذا وجه آخر لبيان سر ترتيب تلك النعم الإلهية الجليلة كما وردت في الآيات الكريمة. والله أعلم.

إن الإنسان لظلم كفار:

قال تعالى: ﴿وَأَتَيْنَكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا^٤

(١) في ظلال القرآن ١٣/٢١٠٦.

(٢) انظر: روح المعاني ١٣/٢٢٥.

إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ * وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا
وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ * رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلَلَنِي كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي
وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * رَبَّنَا إِنِّي أَتَّكَلْتُ مِنْ دُورَتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ
الْمَحْرَمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ
لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧-٣٤﴾ [إبراهيم: ٣٧-٣٤].

الإيجاز بالحذف:

قوله تعالى: ﴿وَأَتَّكَلُّكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ من باب ذكر العام بعد الخاص،
والمعنى: أعطاكم بعضاً من جميع ما سألتموه حسبما تقتضيه حكمته ومشيبته سبحانه
على غرار قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا دَشَاءَ لِمَنْ نُرِيدُ﴾ [الإسراء: ١٨]
(من) بناء على هذا التأويل تعبضية، ويرد بهذا على من سأل: كيف قال تعالى:
﴿وَأَتَّكَلُّكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ والله تعالى لم يعطنا كل ما سألناه ولا بعضاً من كل
فرد مما سألناه؟ ويجاب أيضاً عن هذا السؤال بأنه يجوز أن يكون الله تعالى قد أعطى
جميع السائلين بعضاً من كل نوع أو صنفاً مما سألهم جميعهم، وبهذا المقدار يصح الإخبار
في الآية الكريمة وإن لم يعط كل واحد من السائلين بعضاً من كل فرد مما سألهم، بيان
ذلك: أن يكون سبحانه قد أعطى هذا شيئاً مما سألهم ذلك، وأعطى ذلك شيئاً مما سألهم
هذا على حسب ما اقتضته الحكمة والمصلحة في حقهما، كما أعطى النبي ﷺ الرؤية ليلة
المعراج، وهي مسؤول موسى عليه السلام^(١)، والله أعلم.

واعترض على حمل (من) على التبعض بأنه يفضي إلى إخلاء لفظ (كل) عن فائدة
زائدة؛ لأن (ما) نص في العموم، بل يوهم إتياء البعض من كل فرد متعلق به السؤال، ولا

(١) انظر: مسائل الرازي وأجوبتها لمحمد أبي بكر الرازي، تحقيق: إبراهيم عطوة، ص ١٥٠-١٥١

- مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - طبعة ١٩٨٥ م - ١٤٠٦ هـ.

وجه له. ورد بأنه بعد تسليم كون (ما) نصاً في العموم، هنا عمومان: عموم الأفراد وعموم الأصناف، بمعنى كل صنف صنف، وهما مقصودان هنا، فالمعنى: أعطاكم من جميع أفراد كل صنف سألتموه، فإن الاحتياج بالذات إلى النوع والصنف، لا لفرد بخصوصه^(١).

ووجه قوله تعالى: ﴿مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ بما من شأنه أن يسأل لاحتياج الناس إليه سواء سئل بالفعل أم لم يسأل فلا ينفي إتياء ما لا حاجة إليه مما لا يخطر بالبال. وجعلوا الاحتياج إلى الشيء سؤالاً له بلسان الحال^(٢)، وقيل: هو من باب الإيجاز بالحذف، والمعنى: وأتاكم من كل ما سألتموه وما لم تسألوه، فحذف الثاني لدلالة الأول عليه.

وقرأ ابن عباس والضحاك ويعقوب وغيرهم (من كل) بالتنوين^(٣)، والتقدير: وأتاكم من كل شيء ما احتجتم إليه وسألتموه بلسان الحال. و(ما) بناء على هذه القراءة يجوز أن تكون نافية، (ومن كل) المفعول الثاني لـ(أتى)، والمعنى بناء على هذه القراءة يكون إخباراً من الله تعالى بسبوغ نعمته عليهم بما لم يسألوه من النعم.

سر أفراد النعمة:

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ النعمة في الآية اسم جنس بمعنى المنعم به. وقيل: إنها اسم أقيم مقام المصدر، يقال: أنعم إنعاماً ونعمة، فالنعمة بمعنى الإنعام؛ لذا لم تجمع، ومعنى ﴿لَا تَحْصُوهَا﴾ لا تطيقون عدها ولا حصرها ولو على سبيل الإجمال، لأنها غير متناهية، وأصل الإحصاء العد بالخصى، وكان العرب

(١) روح المعاني ١٣/ ٢٢٥، ٢٢٦.

(٢) انظر: إرشاد العقل السليم ٥١/ ٥.

(٣) ينظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية الأندلسي ٣/ ٣٤٠، تحقيق: أحمد صادق الملاح، والبحر المحيط ٥/ ٥٤٨.

يعتمدونه في العد^(١)، ثم استعمل لمطلق العد. وقيل: إن أصل الإحصاء أن الحاسب إذا بلغ عقداً معيناً من عقود الأعداد وضع حصة ليحفظه بها، ففيه إشعار بعدم بلوغ العد مرتبة معتداً بها من مراتبها فضلاً عن بلوغ غايتها.

والأولى عندي - والله أعلم - عدم تفسير النعمة وتأويلها بالجمع (النعم) بل إبقاؤها على المفرد وتفسيرها بناء على ذلك، لأن في التعبير بالمفرد (نعمة) إشارة إلى تشعب النعمة الواحدة من نعم الله تعالى إلى نعم كثيرة كثيرة لا تعد ولا تحصى، والمعنى: إن تشرعوا في عد نعمة واحدة من نعمه تعالى لا تطيقوا عدّها «فهي أكبر من أن يحصيها فريق من البشر أو كل البشر، وكلهم محدودون بين حدين من الزمان: بدء ونهاية، وبين حدود من العلم تابعة لحدود الزمان والمكان، ونعم الله مطلقة فوق كثرتها فلا يحيط بها إدراك إنسان»^(٢).

واستخدمت أداة الشرط (إن) وعدم العد مقطوع به نظراً إلى توهم أنه يطاق. إذن عرفت أن المراد نفي استطاعة البشر وطاقتهم عدّ أنواع نعمة من الله تعالى فضلاً عن أفرادها وبلوغ آخرها، هذا إن أرادوا أن يعدوها على سبيل الإجمال أما على سبيل التفصيل فلا يقدر على هذا الإحصاء إلا المنعم سبحانه وتعالى لأن نعمه سبحانه غير متناهية.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾، أي: إن الإنسان لشديد الظلم للنعمة، بإغفال شكرها أو بوضعها في غير موضعها، أو يظلم نفسه بتعريضها للحرمان، شديد الكفران والجحود بها.

(١) انظر: حاشية الشهاب الخفاجي على البيضاوي المسألة عناية القاضي وكفاية الرازي ٥/ ٢٧٠.

طبعة دار صادر - بيروت.

(٢) في ظلال القرآن ٤/ ٢١٠٨.

وقيل معناه: ظلوم في الشدة يشكو ويجزع، كفار في النعمة يجمع ويمنع^(١)،
وقيل: الظلوم: الشاكر لغير من أنعم عليه فيضع الشكر في غير موضعه.
واللام في ﴿الْإِنْسَنَ﴾ للجنس، «فيتناول الإخبار بالظلم والكفران من يوجدان
منه»^(٢). وأكد هذا الخبر بـ«إن» و«اللام»، وبصيغتي المبالغة (ظلوم كفار).

سوء استخدام النعمة:

وكم من نعمة أنعم الله بها علينا بأن هدى العقل البشري لاختراعها وإظهارها
ولكن للأسف الشديد نحولها بسوء استخدامنا لها وبسوء استعمالنا إلى نقمة، وخذ على
سبيل المثال لا الحصر، الهواتف النقالة وما فيها من تقنيات حديثة، وشبكة المعلومات
العنكبوتية (الإنترنت) وأجهزة التلفاز وغيرها كثير جداً، انظر كيف يُساء استخدام
تلك النعم في الفساد الأخلاقي، وهدم القيم، وهتك الأعراض.

وانظر إلى هؤلاء الذين مَنَّ الله تعالى عليهم بنعمة الله فتراهم يهدرون أموالاً
طائلة في أشياء تافهة لا قيمة لها ولا جدوى من ورائها، وترى في الوقت نفسه إخواناً
لهم في العقيدة يموتون جوعاً وعطشاً، ولا تمديد لإنقاذهم!! وانظر إلى من يضيع نعمة
الوقت في السهر ليلاً والنوم نهاراً وفي التسكع في الشوارع، وملاحقة هذه وتلك،
أليس كل هذا - وغيره كثير - من الظلم وكفر النعمة؟

إننا يجب علينا أن نؤدي حق تلك النعم، وحقها بشكر المنعم سبحانه، لأن بالشكر
تدوم النعم، وبالكفران تزول، وبتسخيرها فيما وضعت أو خلقت لأجله.

(١) انظر: الكشف ٢/ ٣٠٤، وإرشاد العقل السليم ٥/ ٥٠.

(٢) الكشف ٢/ ٣٠٤.

ختامان مختلفان لموضعين متطابقين:

ونعود إلى الآية الكريمة حيث ختمت بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾، وختمت نظيرتها في سورة النحل ختاماً مختلفاً حيث قيل: ﴿وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ١٨]، ونجمل السر في اختلاف الختام في الآيتين الكريمتين بأنه المناسبة للسياق في كل، بيان هذا أن آية سورة «إبراهيم» تقدمها قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ [إبراهيم: ٢٨]، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [إبراهيم: ٣٠]، فجاء قوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ شاهداً بقبح من فعل ذلك فناسب ختمها بذلك، كما جاء ختام الآية مناسباً لبدء السورة بأن الناس في الظلمات، وذلك في قوله تعالى: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾.

أما سورة «النحل» فختمت بقوله.. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لأن تلك السورة سورة النعم، ففيها ذكر لكثير من نعمه سبحانه، فكان من جملة تلك التفضلات اتصافه سبحانه بهاتين الصفتين، كما أن السورة بدأت بالنهي عن استعجال العذاب.. ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾، لأن الرحمة أسبق، ومن الرحمة إمهال الناس وإمتاعهم بالمنافع، فالتقدير إذن هناك: وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظَلُومٌ كَفَّارٌ، ولكن ربه لا يعاجله بالعقوبة لأنه غفور رحيم^(١).

ويتنقل الحديث بعد ذلك إلى أبي الأنبياء إبراهيم الخليل عليه السلام والآيات تحكي جملة من دعائه عليه السلام، فقد دعا إبراهيم عليه السلام لبلد الله الحرام بالأمن، ولنفسه وبنيه بالهداية إلى عبادة الله الفرد الصمد الواحد الأحد، واجتناب عبادة الأصنام،

(١) انظر: نظم الدرر ٤/ ١٨٩.

وطلب لذريته التي أسكنها عند البيت الحرام أن يعينهم الله على عبادته وشكره بإعمار المكان والإنعام عليهم بالثمرات، وأثنى على الله تعالى وحده أن وهبه على الكبر إسماعيل وإسحاق، وسأل ربه أن يعينه وذريته لإقامة الصلاة، وأن يغفر لهم وللمؤمنين يوم القيامة.

والآيات المذكورة تأتي عقب سياق فيه تذكير بآلاء الله ونعمه وآياته ودلائل قدرته سبحانه ومقابلة الناس لتلك الآلاء بالجحود والنكران والكفر، ثم تأتي تلك الآيات التي فيها دعاء إبراهيم عليه السلام، لتذكر هؤلاء الجاحدين المنكرين بأبيهم إبراهيم الذي يفتخرون بالانتساب إليه، جاءت الآيات لتذكرهم بأبيهم إبراهيم عليه السلام الذي استقام على منهج الله، ونبذ عبادة الأوثان وأنكرها، وأعلن شكره وحده وضراعه لله تعالى على ما حباه من نعيم، وما أولاه من عطايا وكرم. وفي تذكير أهل الكفر بتلك المشاهد حث لهم على الاقتداء بأبيهم إبراهيم، وعلى اتباع الرسول ﷺ، وشكر الله تعالى على النعم التي وهبهم إياها، ومنها نعمة البيت الحرام الذي جعله الله مثابة للناس وأمانا، ورزقهم في رحابه من جميع الثمرات.

«إن السياق يصور إبراهيم عليه السلام إلى جوار بيت الله الذي بناه في البلد الذي آل إلى قريش، فإذا بها تكفر فيه بالله، مرتكنة إلى البيت الذي بناه بانيه لعبادة الله، فيصوره في هذا المشهد الضارع الخاشع الذاكر الشاكر، ليرد الجاحدين إلى الاعتراف، ويرد الكافرين إلى الشكر، ويرد الغافلين إلى الذكر، ويرد الشاردين من أبنائه إلى سيرة أبيهم لعلهم يقتدون بها ويهتدون»^(١).

وإذا تأملت جملة تلك الأدعية التي دعا بها الخليل إبراهيم عليه السلام وهو في

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢١٠٩.

رحاب البيت وجدها تشتمل على دعاءين كبيرين يتعلقان بأمرين عظيمين في حياة الناس، أولهما: الأمن والطمأنينة، وثانيهما: العقيدة الصحيحة، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ إِلَّاصْنَامًا ۖ﴾.

الأمن والسكينة:

وقدم الدعاء بالأمن للبلد الحرام، لأن نعمة الأمن من أجل النعم، فيها يشعر الإنسان بالراحة والطمأنينة والسكينة، فيقبل على عبادة ربه دون خوف ولا وجل من بطش ولا اعتداء. والوطن الآمن وطن يساعد أبناءه على العمل والجد والعطاء والإخلاص. ولننظر إلى حال تلك المجتمعات التي حُرمت تلك النعمة العظيمة، وكيف أن الفرد فيها لا يأمن على نفسه حتى وهو داخل بيته لندرك قيمة تلك النعمة، ولنؤدي حق شكرها كما ينبغي، وعليه فجميعنا يجب أن يسهم في أمان وطننا، ودوام استقراره، لا نستتر على مجرم، ولا نؤوي متسللاً، ولا نغض الطرف عن سلوك يعكر صفو الأمن العام، ولا نسكت على جريمة. هذا من حق الوطن علينا، ومن واجبنا نحوه.

رجاء الشكر:

والمراد من قوله: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي﴾ أي: من تبع ديني من الناس فصار مسلماً موحداً. وقوله: ﴿فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ أي: من أهل ديني، وتأمل تلك المبالغة الرائعة، حيث جعل الخليل إبراهيم أهل ملته كنفسه، وذلك مبالغة في بيان مدى قربهم إلى نفسه. قوله: ﴿وَمَنْ عَصَانِي﴾ أي فلم يتابعني ويدخل في ملتي. ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ قيل: قال هذا قبل أن يعلم أن الله لا يغفر أن يشرك به، كما وقع منه الاستغفار لأبيه، وهو مشرك. وقيل: المراد عصيانه هنا فيما دون الشرك. وقيل: إن هذه المغفرة مقيدة من التوبة من الشرك قبل الموت^(١).

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٩/ ٣٦٨، وفتح القدير ٣/ ١١٦.

وننتقل الآن لتأمل خاشعين قوله: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ فهذا هو الدعاء الثالث فقد طلب إبراهيم عليه الصلاة والسلام أولاً نعمة الأمن، وابتدأ بها لأنها من أجل النعم كما وضحنا، وثنى بمطلوبه الثاني وهو أن يرزقه الله الثبات على التوحيد، ويصونه دوماً عن الشرك، وهذا قوله.. ﴿وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ وثالث بقوله: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ﴾ حيث طلب الرزق.

ومن الملاحظ هنا أن إبراهيم عليه السلام حين طلب الرزق طلبه بضمير الجماعة في قوله: ﴿رَبَّنَا﴾ خلافاً لسابقه، لأن الرزق يطلبه المخلص ليعم لا ليخص فهو يطلبه باسمه وباسم ذريته، ويعم مؤمنهم وكافرهم كما قال تعالى منبهاً إبراهيم إلى أن يطلب لمن آمن ومن كفر، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ١٢٦] ^(١).

ويمكن أن يقال أيضاً: إن الدعاء المصدر به، والتمهيد الذي قدم بين يديه متعلق بذرية إبراهيم عليه السلام فأشركهم معه في الدعاء، ولأن «التعرض لوصف ربوبيته سبحانه وتعالى لهم أدخل في القبول وإجابة المسؤول» ^(٢).

ويرى أبو حيان أن مجيء ضمير الجماعة؛ لتقدم ذكر إبراهيم عليه السلام، وذكر بنيه في قوله: ﴿وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ﴾ ^(٣)، وهذا غير صواب؛ لأن ذلك لو كان صواباً لجيء بضمير الجماعة في قوله ﴿رَبِّ إِنِّي أَضَلَلْتُ﴾ مراعاة له أيضاً.

(١) زهرة التفاسير ٨/ ٤٠٣٨.

(٢) إرشاد العقل السليم ٥/ ٥١.

(٣) البحر المحيط ٥/ ٥٥٣-٥٥٤.

تأمل أخي القارئ قوله: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ تجده تمهيداً للدعاء، بين فيه الخليل عليه السلام حال من يدعو لهم من ذريته، وشدة حاجتهم إلى رعاية الله تعالى وعنايته بهم. وبدئ بنداء الرب سبحانه وتعالى زيادة في التضرع، واستجلاباً للإجابة، وتأكيذاً للنداء السابق، وفي هذا ضرب من الربط بين الجمل المفتحة بالنداء ربط المثل بمثله^(١).

وأكدت الجملة بأن لتقوية مضمونها. و(من) في قوله: ﴿مِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ للتبويض، أي: أسكنت بعض ذريتي، والمراد إسماعيل عليه السلام ومن سيولد له بدليل الجمع في قوله: ﴿لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾.

والوادي: الأرض المنخفضة بين الجبال، والمقصود وادي مكة.

ووصف الوادي بوصفين هما: ﴿غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ و﴿عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾.

وقيل: ﴿غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ ولم يقل: غير مزروع، للمبالغة في أنه لا يوجد فيه شيء من زرع قط.

سر العدول عن حرف الظرفية إلى حرف الإلصاق:

وكان ظاهر السياق أن يقال: «إني أسكنت من ذريتي في واد غير ذي زرع»، ولكنه عدل عن حرف الظرفية (في) إلى حرف الإلصاق (الباء) للدلالة على عدم تمكن ذريته في هذا المكان واستقرارهم فيه، لعدم توافر مقومات الحياة فيه من زروع وثمار ومياه، تلك التي تجعل المقيمين فيه يتشبثون به، ولا الأمن والحماية التي تشعرهم بالأمن في ربوعه، هذا ما أوحى به حرف الباء، ولو قيل: في وادٍ، لدل على التمكن والاستقرار ووجود مقومات الحياة، وهذا ما لم يكن موجوداً حينذاك، لذا كان من الملائم إشار

الحرف الذي يصور واقع المكان وطبيعته والذي يدل على وقوع الحدث أي السكنى بذلك المكان من دون دلالة على احتواء المكان له، واحتضانه وتمكنه فيه، بل مجرد الملازمة له، والالتصاق بأي جزء من أجزائه، وتلك دلالة حرف الإلصاق (الباء).

وقوله: ﴿عِنْدَ بَيْتِكَ﴾ صفة ثانية لواءٍ، ويمكن أن يكون ظرفاً لـ ﴿أَسْكَنْتُ﴾، كقولك: صليت بمكة عند الركن. واختار بعض العلماء هذا الإعراب، لأنه يدل على أن «المقصود إظهار كون ذلك الإسكان مع فقدان مبادئه ومقوماته إنما كان لمحض التقرب إلى الله تعالى والالتجاء إلى جواره الكريم، كما ينبئ عنه التعرض لعنوان الحرمة المشعر بعزة الملتجأ إليه وعصمته عن المكاره»^(١).

وأضاف البيت إليه سبحانه تشريفاً لشأنه وإعلاء لمكانته. وتسميته بيتاً ولم يكن قد بني وقت دعاء إبراهيم عليه السلام من باب المجاز المرسل باعتبار ما كان عليه من قبل، حيث تعدد بناء الكعبة المشرفة، أو باعتبار ما سيؤول إليه الأمر من بنائه عليه السلام.

و(المحرم) صفة للبيت، ووصف بهذا الوصف، لأن الله تعالى حَرَّمَ التعرض له والتهاون به، وجعل ما حوله حرماً لمكانه، أو سُمي حرماً، لأنه محترم عظيم الحرمة لا يحل انتهاكه^(٢)، أو لأنه تحرم فيه الدماء، وهو في ذاته حرم آمن يأمن كل من يأوي إليه، وقد بُني في مكان قحط، وصحراء جرداء ليكون آمناً من طمع الطامعين، ورغبة المعتدين، إذ إنهم يرومون الأرض الخصبة ليشبعوا نهمهم، فكان بناء البيت في أرض لا يطمع فيها طامع، ولا يرومها فاتح^(٣).

(١) روح المعاني ٧/١٣/٢٣٧.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب ٩/٣٥٩.

(٣) زهرة التفاسير ٨/٤٠٣٨.

ودل قوله: ﴿عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ على شرف المكان الذي أسكن فيه إبراهيم عليه السلام أهله وولده، فهو مكان مجاور لبית الله الحرام أو في رحابه، وكفاه بهذا الجوار شرفاً ورفعة. وعلل الخليل إبراهيم إسكانهم في هذا المكان بقوله: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾، وتكرير النداء وتوسيطه لإظهار كمال العناية بإقامة الصلاة، ولتأكيد النداء الأول والتنبيه عليه ولزيادة الضراعة، والاهتمام ببيان أن الغرض من إسكانهم بذلك الوادي هو العبادة لا غير، بيان ذلك أنه لما قال: ﴿بَوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ نفى أن يكون إسكانهم للزراعة، ولما قال: ﴿عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ أثبت أنه مكان عبادة، فلما قال: ﴿لِيُقِيمُوا﴾ أثبت أن الإقامة عنده عبادة، وقد نفى كونها دنيوية، فجاء الحصر في ﴿رَبَّنَا﴾ من الإشارة إلى أن ذلك هو المقصود.

«وعلق ﴿لِيُقِيمُوا﴾ بـ ﴿أَسْكَنْتُ﴾ أي علة الإسكان بذلك الوادي عند البيت أن لا يشغلهم عن إقامة الصلاة في ذلك البيت شاغل فيكون البيت معموراً أبداً. وتوسيط النداء، للاهتمام بمقدمة الدعاء زيادة في الضراعة، وتنبهاً بذلك أن يفرغ عليه الدعاء لهم بأن يجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم، لأن همة الصالحين في إقامة الدين»^(١).

وخصت الصلاة بالذكر لأهميتها ولفضلها ولتكررها مع الأوقات ولأنها عماد الدين. واللام في «ليقيموا» للتعليل، والفعل منصوب بأن مضمره بعدها، والجار والمجرور متعلقان بـ «أَسْكَنْتُ»، أي أسكنتهم لأجل إقامة الصلاة فيه، وأن يعمره بصلاتهم.

وبعد أن ذكر إبراهيم عليه السلام في هذا التمهيد حالهم وحال الأرض التي أسكنهم بها دعا لهم طالباً من ربه ﴿فَأَجْعَلْ أَفئدةَ مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾.

والفاء تشير إلى أن ما تقدم من بيان حالهم هو من مبادئ إجابة دعائه وتحقق رجائه عليه السلام، وما بعد الفاء مترتب ومبني عليه. والأفئدة جمع فؤاد وهو القلب، وهي مفعول أول لـ «جعل»، ومفعوله الثاني جملة «تهوي»، والمراد: فاجعل أناساً يهون إليهم. ولفظ الأفئدة يشير إلى أن يكون مسير الناس إليهم عن شوق ومحبة حتى كأن المسرع هو الفؤاد لا الجسد.

نوع ﴿مِنْ﴾ في قوله: ﴿مِنْكَ النَّاسُ﴾:

و﴿مِنْ﴾ في قوله ﴿مِنْكَ النَّاسُ﴾ تبعيضية، أي: أفئدة من أفئدة الناس. ولو قال: أفئدة الناس لازدحمت عليهم كل أهل الأديان والملل والطوائف، ولحجَّ إلى البيت هؤلاء.

وقيل: إنها ابتدائية، كقولك: القلب مني سقيم^(١).

وقيل: إنها بيانية، والمعنى: فاجعل أناساً يقصدونها بحبات قلوبهم. وهذا قول ضعيف، لأن الأفئدة لا تحتمل أن تكون من جنس آخر غير جنس الناس حتى يبين أنها أفئدة من الناس لا من هذا الجنس الآخر.

والقول بأنها ابتدائية قول ضعيف أيضاً، لأنه لا فعل هنا يتبدأ فيه لغاية ينتهي إليها، إذ لا يصح ابتداء جعل أفئدة من الناس.

ويبقى القول الصواب - والله أعلم - أنها تبعيضية بدلالة الواقع المشاهد، فإن بعض قلوب الناس تهفو إلى البيت لا كلها.

واهْوَِي: الهبوط بسرعة، ولل فعل «هوى» عدة معان، يقال: هوى يهوى هَوياً

بالفتح، إذا هبط، وهو يهوي هُويًا بالضم إذا صعد، وقيل بالعكس، وهوى يهوي هويًا: إذا أسرع في السير^(١).

القول بالتضمنين لا يكشف السر البلاغي:

وذهب المفسرون أن الفعل «هوى» حقه أن يتعدى باللام^(٢) كما في قول الشاعر:
حتى إذا ما هوت كف الوليد لها طارت وفي كفه من ريشها بتك
وقيل: إنما عدي بإلى لتضمنينه معنى الميل، كما في قول الشاعر:

تهوي إلى مكة تبغي الهدى ما مؤمن الجن كأنجاسها

وأرى أنه لا داعي للقول بالتضمنين هنا ما دام المعاني المذكورة للفعل تُؤدِّي بحرف الانتهاء «إلى»، وذلك أن إبراهيم عليه السلام أسكن ذريته بواد، والمتجه إلى هذا الوادي إنما يهبط من الجبال والتلال التي تحيط بمكة إليه. و«إلى» تشير كذلك مع الفعل «تهوي» إلى جعل منتهى غاية ومقصد الناس هذا المكان ومن فيه، فتسرع إليهم وتقصدهم برغبة وشوق ولهفة، وهنا معنى الإسراع، ومعنى الصعود يمكن أن يراد هنا كذلك إلماحاً إلى شرف ذلك المكان، وسمو المقصد. و«إلى» تلمح إلى ارتفاع نفوس الحجاج وعلوها بعلو الهدف والغاية التي يسعى إليها، ومن شواهد تعدية هذا الفعل بحرف الانتهاء «إلى» دالاً على معنى الصعود قول الشماخ:

على طريق كظهر الأيم مطرد يهوى إلى قنة في منهل عال^(٣)

(١) لسان العرب لابن منظور - طبعة دار المعارف ٨/ ٤٧٢٧.

(٢) راجع مثلاً: روح المعاني، والكشاف ٢/ ٥٣.

(٣) انظر: من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم: د. محمد الأمين الخضري ص ٢٧٣-٢٧٤.

طبعة مكتبة وهبة - الطبعة الأولى سنة ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م.

تعبير مصور رائع:

وإطلاق «تهوي» على الإسراع في المشي استعارة تبعية، وأوثر هذا الفعل لما فيه من دلالة على غاية السرعة التي لا يمنعها شيء لأنها سقوط من أعلى إلى أسفل. وما أروع هذا التعبير ﴿أَفْتَدَهُ مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ حيث جعل القلوب نفسها تهوي. وفي التعبير رقة ورفرفة، تصور القلوب مجنحة وهي تهوي إلى ذلك البيت وأهله في ذلك الوادي الجديب، «إنه تعبير ندي يندي الجذب برقة القلوب»^(١). «والمقصود من هذا الدعاء تأنيس مكانهم بتردد الزائرين وقضاء حوائجهم منهم»^(٢).

ولما دعا إبراهيم عليه السلام لذريته بالدين، دعا لهم بالرزق فقال: ﴿وَأَرْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ أرزقهم من الثمرات عن طريق تلك القلوب التي ترف عليهم من كل فج ليأكلوا ويطعموا ويستمتعوا، ليتحقق من ذلك ما يرجوه إبراهيم عليه السلام ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾.

«وهكذا يبرز السياق هدف السكنى بجوار البيت الحرام، أنه إقامة الصلاة على أصولها كاملة لله. ويبرز هدف الدعاء برفرفة القلوب وهويها إلى أهل البيت، ورزقهم من ثمرات الأرض. إنه شكر المنعم الوهاب»^(٣).

وجاء الدعاء الثاني معطوفاً على الدعاء الأول، وكان الوصول للتوسط بين الكمالين، لاتحادهما في الإنشائية مع التناسب.

(١) في ظلال القرآن ٤ / ٢١١٠.

(٢) التحرير والتنوير ١٣ / ٢٤٢.

(٣) في ظلال القرآن ٤ / ٢١١٠.

سر تعدية الفعل المتعدي منزلة اللازم:

و﴿مِنْ﴾ في قوله ﴿وَمِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ للتبعض. والتعريف في ﴿الثَّمَرَاتِ﴾ للاستغراق العرفي، أي: من جميع أنواع الثمرات المعروفة للناس. و﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ رجاء داخل في الدعاء، جعل تكملة له تعرضاً للإجابة، وزيادة في الدعاء لهم بأن يكونوا من الشاكرين. وهذا الدعاء يعني توافر أسباب الانقطاع للعبادة، وانتفاء ما يحول بينهم وبينها من فتنه الكدح للاكتساب، وفيه دليل على أن تحصيل منافع الدنيا إنما ليستعان له على أداء العبادات وإقامة الطاعات، فيجب أن تسخر في الطاعة لا المعصية، في الشكر لا الكفر^(١).

ونزل الفعل ﴿يَشْكُرُونَ﴾ المتعدي منزلة الفعل اللازم من خلال حذف المفعول به لرجاء اتصافهم بالشكر في كل أحوالهم وعلى الإطلاق.

وبهذين الدعاءين الكريمين ضمن إبراهيم عليه السلام لذريته أسباب الحياة في وادٍ مقفرٍ لم تكن تتوافر فيه أي مقومات للحياة حينذاك. وقدم الدعاء الأول على الثاني لما أن الأول من أسباب الثاني، فالناس حينما يفدون عليهم سيحملون معهم من خيرات بلادهم ما يستطيعون، ويتم البيع والشراء وتبادل المنافع، فتزدهر الحياة، ويتحقق الخير والرخاء^(٢) وقد أجاب الله دعاء نبيه الكريم، فجعله حرماً آمناً تجبى إليه ثمرات كل شيء رزقاً من لدنه، ثم فضله في وجود أصناف الثمار فيه على كل بلد، وعلى أخصب المناطق وأكثرها ثماراً، وإنك لترى بواكير الثمار والفواكه المختلفة الأزمان في يوم واحد، وتلك من آيات الله.

(١) انظر: التحرير والتنوير ١٣ / ٢٤٢.

(٢) خصائص النظم القرآني في قصة إبراهيم عليه السلام. د. الشحات محمد أبو ستيت ص ٣٥٤.

قال تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ * الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٨-٣٩].

ما زلنا نعيش مع دعاء الخليل إبراهيم وهو في رحاب البيت، وبعد أن طلب الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام من الله تعالى تيسير المنافع لأولاده وتسهيلها عليهم ليكونوا حُرَّاساً لبيته، حُماة لحرمة، وليؤدوا العبادة على وجهها الأكمل فإنه تخلل هذا الدعاء ثناء من إبراهيم عليه السلام على ربه عز وجل بعلمه الكامل الشامل المحيط بدقائق الأمر، وبما في الكون من خفي وجلي، فقال كما حكى القرآن الكريم: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾، أي: تعلم السر كما تعلم العلن علماً لا تفاوت فيه، لأنه لا يحتجب عنك غيب من الغيوب، والمراد استواء السر والعلانية في علمه تعالى، والمعنى: «أنك أعلم بأحوالنا وما يصلحنا وما يفسدنا منا، وأنت أرحم بنا، وأنصح لنا منا بأنفسنا ولها، فلا حاجة إلى الدعاء والطلب، وإنما ندعوك إظهاراً لعبودية لك، وتخشعاً لعظمتك، وتذلاً لعزتك، وافتقاراً إلى ما عندك، واستعجالاً لنيل أياديك، وولهاً إلى رحمتك»^(١).

وقيل المعنى: ربنا إنك تعلم ما نخفي من الوجد والألم لما وقع بيني وبين إسماعيل وأمه هاجر من الفرقة، وما نعلن من البكاء والدعاء، وقيل: ما نخفي من كآبة الافتراق، وما نعلن مما جرى بيننا وبين هاجر عند الوداع من قولها: إلى من تكلنا؟

وقولي لها: إلى الله تعالى.

والمعنى الأول بتقدير العموم هو المختار لمناسبته لمقام الثناء على الله تعالى.

و(ما) في قوله: ﴿مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾ موصولة، والعائد محذوف. والتقدير: ما نخفيه وما نعلنه، وقيل: إن (ما) مصدرية.

وافتح هذا الشئاء بندااء الرب تعالى للذلالة على مزيد من التضرع، وليتناسب مع ما يأتي من أفعال مسندة إلى ضمير الجماعة.

ويرى أبو حيان أنه لا فرق ولا تفاوت بين إضافة لفظ (رب) إلى ياء المتكلم وبين إضافته إلى جمع المتكلم^(١). وهذا كلام بعيد، فالمقام هو الحَكْمُ في ذلك.

وأضاف (رب) إلى ضمير الجماعة (نا) لإشراك ذريته معه في هذا الشئاء نظراً لسبق ذكرهم فيما سبق من دعاء.

وتأكيد الجملة بـ«إن» لتقوية ما تثبته من شمول علم الله تعالى وإحاطته. وبين قوله «نخفي» و«نعلن» طباق فيه تأكيد آخر على شمول علمه تعالى وكماله. وقد أضفى هذا المحسن البديعي - الطباق - على التعبير جمالاً وروعة لعدم تكلفه، ولا استدعاء المعنى له.

وجه تقديم ﴿مَا نُخْفِي﴾ على ﴿وَمَا نُعْلِنُ﴾:

وتقديم ﴿مَا نُخْفِي﴾ على ﴿وَمَا نُعْلِنُ﴾ لأنه الأدل على شمول علمه سبحانه وكماله، أو لتحقيق المساواة بينهما في تعلم العلم على أبلغ وجه، فكأن تعلقه بما يخفي أقدم منه بما يعلن. أو لأن مرتبة السر والخفاء متقدمة على مرتبة العلن، إذ ما من شيء يُعلن إلا وهو قبل ذلك خفي فتعلق علمه سبحانه بحالته الأولى أقدم من تعلقه بحالته الثانية^(٢). والله أعلم.

(١) البحر المحيط ٤٣٣/٥.

(٢) انظر: روح المعاني ٢٤٢/١٣.

وتأمل السر في عدم تقييد الفعلين (نخفي) و(نعلم) بمتعلق معين، وذلك لإفادة العموم والشمول والإحاطة والكمال لعلم الله تعالى، فعلم الله تعالى بما يخفون وما يعلنون ليس مقصوراً على شيء معين، بل هو شامل لكل ما يخفونه وما يعلنونه.

وليس المراد من ضمير الجماعة في (نخفي) و(نعلم) مجرد علمه تعالى بسّر إبراهيم وأولاده وبعلايتهم، بل بجميع خفايا الكون والملكوت، وقد يُبين هذا بقوله ﴿وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾.

وفي هذا قولان:

أحدهما: إنه كلام الله عز وجل تصديقاً لإبراهيم عليه السلام.

ثانيهما: إنه من كلام إبراهيم عليه السلام، والمعنى: وما يخفى على الذي هو عالم الغيب من شيء في أي مكان.

فإن قيل بالرأي الأول فهو اعتراض بين كلام إبراهيم تصديقاً لكلامه كما ذكرنا. وإن قيل بالرأي الثاني ففي الكلام التفات من الخطاب في (إنك) إلى الغيبة في لفظ الجلالة لتربية المهابة وللإشعار بعلّة الحكم كما في قوله: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤] وللايذان بعمومه لأنه ليس بشأن يختص بإبراهيم عليه السلام، أو بمن يتعلق به، بل شامل لجميع الأشياء، فالمناسب ذكره تعالى بعنوان مصحح لمبدأ الكل^(١).

تكرار النفي والجار مع المعطوف عليه:

(ومن) في قوله: ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ للاستغراق و(شيء) لعموم النفي وشموله والمعنى: لا يخفى عليه شيء ما. وتكثير (شيء) للعموم، أي: ليتناول علمه سبحانه كل شيء مهما كان دقيقاً وخفياً.

(١) انظر: إرشاد العقل السليم ٥٣/٥.

و(في) متعلقة بمحذوف وقع صفة لشيء، والتقدير: من شيء كائن فيهما. وبين السماء والأرض طباق يبرز المعنى ويؤكد.

تقديم الأرض على السماء:

وفي تكرار النفي والجار مع المعطوف عليه في قوله تعالى: ﴿وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ إيدان باستقلاله في الحكم المنفي، وأنه ليس تابِعاً لما قبله، فعلم الله تعالى بما في السماء يستوي مع علمه سبحانه بما في الأرض.

وتقديم الأرض على السماء لأن الكلام في جذبها وخصبها، وذكرت السماء لأنها تمدها بالسقي والماء^(١). أو أن التقديم باعتبار القرب والبعد من البشر، وللمناسبة السماء للفاصلة بما فيها من مد قبل نهايتها.

والمراد من (السماء) ما يشمل السماوات كلها، أو ما يشمل جهة العلو، وهو أوفق بإفراد السماء. ويمكن أن يكون المراد من (الأرض) جهة السفلى.

ومجيء الجملة على طريقة نفي الخفاء في قوله: ﴿وَمَا يُخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ دون أن يقول: ويعلم ما في السماوات والأرض، «تحقيقاً لما عناه بقوله: ﴿تَعْلَمُ مَا تُخْفِي وَمَا تُعْلِنُ﴾ من أن علمه تعالى بذلك ليس على وجه يكون فيه شائبة خفاء بالنسبة إلى علمه تعالى كما يكون بالنسبة إلى علوم المخلوقات»^(٢).

ولما في هذه الطريقة من تحقيق التناسق بين نظم هذه الجملة ونظم الجملة السابقة، حيث بنيت الجملة السابقة ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا تُخْفِي وَمَا تُعْلِنُ﴾ على إثبات علم الله بما يخفون وما يعلنون، وبنيت هذه الجملة على نفي خفاء شيء عن علم الله تعالى^(٣).

(١) زهرة التفاسير ٨/ ٤٠٤١.

(٢) إرشاد العقل السليم ٥/ ٥٣.

(٣) خصائص النظم القرآني في قصة إبراهيم عليه السلام ٣٥٨.

ولم يبق لنا في تأمل هذا الثناء إلا الإشارة إلى أن قوله: ﴿وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ تذييل لجملة ﴿إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا تُخْفَى وَمَا تُعْلِنُ﴾، ولكونها تذييلاً أظهر فيها اسم الجلالة، ليكون التذييل مستقلاً بنفسه بمنزلة المثل والكلام الجامع^(١).

ويردف الخليل إبراهيم عليه السلام هذا الثناء بثناء آخر يلهج فيه بالحمد لله تعالى وشكره على بعض نعمه عليه ومنها أنه سبحانه وهبه إسماعيل وإسحاق مع كبر سنه.

لقد ذكر إبراهيم عليه السلام النعمة التي لها أعظم الأثر في نفسه وهي نعمة الإنجاب بعد الشيخوخة والهرم، فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾.

وفي هذا الثناء من إبراهيم عليه السلام تعليم لذريته بدوام حمد الله وشكره على ما منحهم من نعم، وما حباهم من آلاء، فاستدامة النعمة بالشكر، واستبقاؤها بذكر فضل المنعم، لذلك بادر الخليل إبراهيم بالشكر لله على أن وهبه وهو شيخ هرم ولدين كريمين هما إسماعيل وإسحاق. وقد كان هذا أمراً خارقاً للعادة والمألوف، لذا تعجبت سارة زوجته عندما بشرت بإسحاق كما حكى القرآن عنها: ﴿قَالَتْ يَوَئِلَتِي ءَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ [هود: ٧٢].

وابتداً إبراهيم كلامه بالحمد إشعاراً بشكر النعمة وتقديرها وبيان عظيم أثرها في نفسه.

ولم يذكر القرآن الكريم سن إبراهيم عليه السلام عندما رزق بولديه، واختلفت الروايات في ذلك ف قيل: كان عمره عندما ولد إسماعيل تسعا وتسعين، وولد له إسحاق وعمر إبراهيم عليه السلام مئة واثنتا عشرة، وقيل مئة وعشرون^(٢). وهذا كله لا

(١) التحرير والتنوير ١٣ / ٢٤٣ بتصرف يسير.

(٢) راجع مثلاً: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٩ / ٣٧٥، وفتح القدير ٣ / ١١٧.

يشغلنا المهم أن نعرف أنه رزق بولدين عندما وصل إلى سن لا يستطيع فيه الإنجاب وكذلك زوجه سارة أم إسحاق، فكان ذلك خرقاً للعادة وآية عظيمة، ومخالفة للأسباب المعروفة.

الفرق بين الشكر والحمد:

وقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ فيه معنى القصر، أي: الحمد لله وحده، فهو مانح النعم، وهو يجريها، فكل إحسان هو منه سبحانه إما بالفعل وإما بالتسبيب.

وهناك فرق بين الشكر والحمد، فالشكر هو الاعتراف بالنعمة على جهة التعظيم للمنعم، والحمد: الذكر بالجميل على جهة التعظيم أيضاً، ويصح على النعمة وغير النعمة، والشكر لا يصح إلا على النعمة، لذا يمكن أن يقال: أن الحمد أعم من الشكر^(١)، وبناء على هذا، فإنه كان من الملائم إثبات الحمد على الشكر في قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ لمناسبته لمقام الثناء، والله أعلم.

و«الحمد» مبتدأ، و«الله» خبره، وفي تعليق الحمد أولاً باسم الذات أي الله، وفي وصفه تعالى ثانياً بما في حيز الموصول ﴿وَهَبْ لِي عَلَى الْكِبَرِ﴾ إشارة إلى أنه - سبحانه - مستحق للحمد باعتبار ذاته جل شأنه، ومستحق له باعتبار صفاته وأفعاله.

وأوثر التعبير باسم الموصول «الذي» للإشارة من خلال صلته إلى وجه بناء الحمد. وفي التعبير بالهبة إشعار بأن هذه النعمة هبة محضة، وعطاء خالص خارق للأسباب العادية التي لا مدخل لها فيه. والهبة: تملك من غير عقد، لذا كانت منة وعطاء خالصاً.

(١) انظر: الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري ص ٣٥.

هل «على» بمعنى «مع» في قوله على الكبر؟

و﴿عَلَى الْكِبَرِ﴾ جار ومجرور في موضع الحال، وذهب المفسرون إلى أن «على» بمعنى «مع» أي مع كبري، ومن شواهد استعمال «على» بمعنى «مع» قول الشاعر:

إني على ما ترين من كبري أعرف من أين تؤكل الكتف

وقالوا^(١): يصح جعل «على» بمعناها الأصلي، والاستعلاء مجازي، ومعنى استعلائه على الكبر: أنه وصل غايته فكأنه تجاوزه وعلا ظهره كما يقال: على رأس السنة، وفيه من المبالغة ما لا يخفى. وقال بعضهم: لو كانت «على» للاستعلاء لكان الأنسب جعل الكبر مستعلياً عليه، كما في قولهم: علي دين، فالكبر أولى بالاستعلاء حيث يظهر أثره في جميع البدن.

ولا أرى أن هذه التأويلات قد أبرزت الغرض من استعمال «على» بدلاً من «مع»، فإذا كان الغرض هو الدلالة على المصاحبة فلمْ عُدِلْ عن الكلمة الموضوعة أصلاً لهذا المعنى وهي «مع». وإذا كانت «على» للاستعلاء المجازي كما يقولون إشارة إلى أن الكبر تمكن منه وعلا ظهره، فلمْ عكس النظم ليكون هو مستعلياً على الكبر؟

إنني أشير هنا إلى أن «على» في الآية الكريمة لم تنب مناب «مع» بل هي بمعناها الأصلي، ودلالتها على الاستعلاء إنما كان مجازياً في الآية الكريمة، لأن الكبر ليس جسماً يمتطى وإنما هو معنى، والاستعلاء المجازي فيه إشارة إلى قهر قدرة الله تعالى لتلك النواميس الكونية، وخرق الأسباب الظاهرة، بيان ذلك أن الكبر من عاداته أن يمنع من الإنجاب، وهو في الظاهر سبب قاهر متغلب إلا أن الله تعالى شاء أن يخرق ما جرت به العادة ويقهر ما خلق من نواميس. إدلالاً على عظيم قدرته سبحانه وإطلاق

(١) راجع: البحر المحيط ٥/٤١٣، وروح المعاني ١٣/٢٤١-٢٤٢، والتحرير والتنوير ٧/٢٤٣.

يده فيما خلق، وتكريماً لمن خرقت من أجله النواميس، وحطمت بسببه ظواهر العادات، مما جعل إبراهيم يلهج لسانه ثناء على الله، وشكراً له. ولو قيل: مع الكبر، لما أوحى بمعنى الاستيلاء على الأسباب وقهرها كما يوحى به حرف الاستعلاء «على».

وتقييد الهبة بكونها على الكبر استعظماً للنعمة، وإظهاراً لشكرها. قال الزمخشري: «وإنما ذكر حال الكبر لأن المنّة بهبة الولد فيها أعظم من حيث إنها حال وقوع اليأس من الولادة والظفر بالحاجة على عقب اليأس من أجل النعم وأحلاها في نفس الظافر، ولأن الولادة في تلك السن العالية كانت آية لإبراهيم»^(١).

قال تعالى: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ * رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ * وَلَا تَحْزَنْكَ اللَّهُ غَفْلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِیَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ * مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ * وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُحِبِّ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ﴾ [إبراهيم: ٤٠-٤٤].

مازلنا نواصل تأملاتنا في دعاء الخليل إبراهيم عليه السلام وهو في رحاب البيت الحرام، وفي تكرار النداء زيادة ضراعة وابتهاال وتذلل إلى الله تعالى لإجابة دعائه.

وأفرد الضمير في قوله: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي﴾ مع شمول الدعاء لذريته أيضاً حيث قال: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ للإيماء بأنه المقتدى في ذلك، وذريته أتباع له، وإن ذكرهم بطريق الاستطراد^(٢).

(١) الكشف ٣٠٧/٢.

(٢) خصائص النظم القرآني في قصة إبراهيم عليه السلام، ص ٣٦١.

و﴿مُقِيمَ الصَّلَاةِ﴾ أي: مواظباً عليها، مستمراً في إقامتها وأدائها، ويجوز أن يكون المعنى: مُعَدِّلاً لها، فيكون مجازاً من أقمت العود إذا قومته وعدلته^(١).

وفي التعبير باسم الفاعل (مقيم) إشعار بالدوام والثبوت والاستمرار على إقامتها.

وقوله: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ صفة لموصوف محذوف معطوف على الضمير المنصوب - ياء المتكلم - في ﴿أَجْعَلْنِي﴾ والتقدير: واجعل مقيمين للصلاة من ذريتي.

و﴿مِنْ﴾ في قوله ﴿مِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ تبعيضية، وإنما خص إبراهيم عليه السلام بعض ذريته لعلمه عن طريق الوحي أن بعضاً من ذريته يكون كافراً، فلا يكون مقيم الصلاة أصلاً، أو مؤمناً لا يصلي، فهؤلاء هم الذين أشير إليهم في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤].

وجاء قوله: ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ﴾ معطوفاً على قوله: ﴿رَبِّ أَجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ﴾. وأفرد الضمير أولاً ثم جمع ثانياً في: ﴿رَبَّنَا﴾ للإشارة إلى أنه يتكلم عن نفسه وعن الصالحين من ذريته.

والدعاء يمكن أن يكون على حقيقته، ويمكن أن يراد به العبادة^(٢)، فالصلاة دعاء لله تعالى وضراعة إليه وخشوع. وقال: ﴿وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ﴾ والتقبل شدة القبول، وتقبل العبادة من الله قبولها مع الرضوان، ومحبة القائم بها، وهذا لا يكون إلا إذا كان العابد مخلصاً في عبادته وكذلك في كل أعماله لا يرائي بها أحداً من خلق الله تعالى^(٣).

(١) روح المعاني ٧/١٣/٢٤٣.

(٢) انظر: تفسير البغوي ٣/٣٩.

(٣) زهرة التفاسير ٨/٤٠٤٤-٤٠٤٥ بتصرف يسير.

ومما يدل على أن الدعاء قد يكون بمعنى العبادة، قوله تعالى فيها حكاية عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَأَعَزَّ لَكُمْ وَ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [مريم: ٤٨]، وقول النبي ﷺ: «الدعاء مُخُّ العبادة»^(١).

طلب المغفرة:

وتختتم هذه الدعوات المباركة بقوله: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾، فهو يطلب المغفرة له ولوالديه وللمؤمنين جميعاً يوم يقوم الحساب حيث لا ينفع أي إنسان صاحب ولا مال ولا بنون ولا جاه ولا سلطان، بل ينفعه فقط عمله، ثم مغفرة الله تعالى في تقصيره.

وابتدأ إبراهيم عليه السلام هذا الدعاء بنفسه ثم بوالديه لأنها أقرب الناس إليه وأحقهم بشكره، ثم بالمؤمنين الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر سواء أكانوا من ذريته، أم كانوا من غيرهم، فهو دعاء لعامة المؤمنين، جرياً على سبيل الأولوية، وهذا الدعاء يكشف عن شخصيته عليه الصلاة والسلام، وما تتسم به من رحمة وحلم وشفقة، وهذا تدلنا عليه أدعيته الجماعية العامة التي تلمس فيها روح الأخوة الإنسانية.

وفي تكرار حرف الجر مع المعطوفين ﴿وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ دلالة على أصالة الدعاء لهما بالمغفرة^(٢).

وضمير الجمع في ﴿رَبَّنَا﴾ إشعار باشتراك كل المؤمنين في الدعاء بالمغفرة لهم. ولسائل أن يسأل: «طلب المغفرة إنما يكون بعد سابقة الذنب أي بعد اعترافه،

(١) أخرجه الترمذي ٤٥٦/٥ كتاب (الدعاء) باب (ما جاء في فضل الدعاء) حديث (٣٣٧١) وقال:

هذا حديث غريب من هذا الوجه لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة.

(٢) خصائص النظم القرآني في قصة إبراهيم عليه السلام ٣٦٢.

وهذا يدل على أن إبراهيم عليه السلام كان قد صدر الذنب عنه، وإن كان جازماً بأن الله يغفر له، فكيف طلب تحصيل ما كان قاطعاً بحصوله؟!

والجواب: أن المقصود منه الالتجاء إلى الله تعالى والضراعة إليه وقطع الطمع إلا من فضله وكرمه ورحمته^(١). وهذا درس لكل مسلم بأنه يجب ألا يغتر بصلاح عمله، ويعتقد أنه سيدخل الجنة بسبب هذا فقط، ويصدق هذا قول النبي محمد ﷺ: «لَنْ يُدْخَلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الْجَنَّةَ». قالوا: ولا أنت يا رَسُولَ الله؟ قال: «لا، ولا أنا إلا أن يتَغَمَّدَنِي اللهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ»^(٢).

وقد يقول قائل: كيف جاز لإبراهيم عليه السلام أن يستغفر لوالديه وكانا كافرين؟

ويجاب عنه من وجوه منها:

الأول: أنه طلب المغفرة لوالديه قبل أن يتبين له أن أباه عدو لله، كما ورد في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ أَسْتَغْفَارُ لِإِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤].

الثاني: كان ذلك بشرط إسلامهما، وكان التقدير: ولوالديّ إن أسلما.

وقيل: إن أمه كانت مؤمنة، وعليه فلا إشكال في الاستغفار لها.

(١) مفاتيح الغيب ٣٦٣/٩.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه: كتاب المرضى، باب تمني المريض الموت، حديث (٥٦٧٣)، ومسلم في صحيحه: كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله، حديث (٢٨١٦)، واللفظ للبخاري.

وزعم بعضهم أن المراد بوالديه: آدم وحواء، وهذا في غاية البعد، لأن النسب واسع بينه وبينهما.

وقرأ ابن مسعود وغيره: «لولدي» يعني إسماعيل وإسحاق، ويقوي هذه القراءة سبق ذكرهما في الدعاء، ولا إشكال على هذه القراءة.

وقرأ ابن جبير: «لولدي» بإسكان الياء على الأفراد^(١).

يوم الحساب:

وقوله: «يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ» أي: يثبت ويتحقق، واستعمال القيام في ذلك إما على سبيل المجاز العقلي بعلاقة المحلية، حيث أسند إلى الحساب ما هو لأهله، أو يكون الكلام على سبيل الاستعارة المكنية، حيث شبه الحساب برجل قائم منتصب للعمل، وأثبت له القيام على سبيل التخيل، أو يكون الكلام على تقدير مضاف محذوف، والتقدير: يوم يقوم أهل الحساب. وعلى كل فالعبارة فيها دلالة على فظاعة ذلك اليوم العظيم وتهويله.

وبهذا يسدل الستار على هذا المشهد المهيّب مشهد الدعاء الخاشع الضارع، ومشهد تعداد النعم والشكر عليها في إيقاع موسيقي ندي، وينتهي هذا المشهد الوداع بعد أن يلقي بظلاله على الموقف، وتهفو القلوب معه إلى جوار الله، وتذكر القلوب فيه نعم الله، ويبدو الخليل إبراهيم في هذا المشهد أنموذجاً للعبد الصالح الحليم الذاكر الشاكر المتوكل.

ومما تجدر الإشارة إليه أن إبراهيم عليه السلام كرر في دعائه الطويل وصف الربوبية، فهو يذكر ربه سبحانه بوصف الربوبية في قوله: «ربنا» أو «رب» ولم يذكره

(١) انظر: الكشف ٢/ ٣٠٦، والبحر المحيط ٥/ ٤٢٣، والمحرم الوجيز ٣/ ٤٤٣.

بصفة الألوهية؛ لأن الربوبية قلما كانت موضع جدال وإنكار عند مشركي العرب^(١) بدليل إقرارهم بمظاهر تلك الربوبية كما يشهد له قوله تعالى: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥] أما الألوهية فكانت موضع إنكارهم وجحودهم وكفرهم، وتلك هي القضية العملية الواقعية المؤثرة في حياة الإنسان والتي هي مفرق الطريق بين الإسلام والجاهلية، وبين التوحيد والشرك. والقرآن الكريم وهو يعرض على مشركي العرب دعاء أبيهم إبراهيم، والتركيز فيه على قضية الربوبية إنما كان ينكر عليهم ما هم فيه من مخالفة صارخة لدلول هذا الدعاء، ولملة أبيهم إبراهيم عليه السلام الذي يفتخرون بالانتساب إليه^(٢).

مآل الظالمين:

وبعد هذا الدعاء الطويل ينتقل السياق إلى الحديث عن الظالمين ومآلهم، قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِيلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ وهذا فيه تهديد للظالم وتسلية للمظلوم، وفيه تسرية عن النبي محمد ﷺ جراء ما لاقاه من عنت الكفار وإيذائهم له.

سؤال وجيه:

وهذه الآية الكريمة: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِيلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ تثير سؤالاً مفاده: أن الله تعالى منزّه عن الغفلة والنسيان، والنبي ﷺ أعلم الناس بصفات جلاله وكماله سبحانه وتعالى فكيف يحسبه النبي ﷺ غافلاً وهو أعلم الخلق بالله حتى نهاه ربه عن ذلك بقوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِيلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾؟

(١) راجع: شرح العقيدة الطحاوية ص ٧٩-٨١.

(٢) انظر: في ظلال القرآن ١٣/ ٢١١٠-٢١١١.

ويجاب عنه بوجوه منها:

أولاً: إن المراد من النهي تثبيته ودوامه عليه الصلاة والسلام على ما هو عليه من عدم ظن أن الغفلة تصدر عنه سبحانه وتعالى كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ [الشعراء: ٢١٣] وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [القصص: ٨٧]، ونظير هذا النهي من الأمر قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [النساء: ١٣٦] فالغرض من الطلب في كل هذه الآيات الثبات والدوام.

ثانياً: إن النهي لكل من توهم غفلته سبحانه وتعالى وليس الخطاب للنبي ﷺ.

ثالثاً: إنه كناية عن الوعيد، لأنه لا يُنْهَى عما يتصور منه^(١).

رابعاً: إن المراد بالنهي عن حسبانهِ سبحانه غافلاً الإيذان بأنه عالم بما يفعل الظالمون لا يخفى عليه شيء منه، وأنه معاقبهم على قليله وكثيره على طريق الكناية عن الوعيد والتهديد، أو هو استعارة تمثيلية، والمعنى: لا تحسبته يعاملهم معاملة الغافل عما يعملون فإنه يعاملهم معاملة الرقيب المحاسب على النقيض والقطمير^(٢).

وأقوى الوجوه عندي الوجه الثاني لسلامته من التكلف والتأويل، والله أعلم.

والغفلة: سهو يعتري الإنسان من قلة التحفظ والتيقظ كما يقول الراغب في مفرداته^(٣)، والحسبان: هو الظن أو العلم المبني على الظن.

ونفي الغفلة عن الله سبحانه ليس جارياً على صريح معناه، لأن ذلك لا يظنه

(١) حاشية الشهاب ٥/ ٢٧٥.

(٢) انظر: الكشاف ٢/ ٢٧٥، ومسائل الرازي وأجوبتها ١٥٣.

(٣) معجم مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني مادة (غفل) ص ٣٧٥.

مؤمن بل هو كناية عن النهي عن استعجال العذاب للظالمين، ومنه جاء معنى التسليّة للرسول ﷺ^(١).

والمراد بالظلم في الآية الشرك، لأنه ظلم للنفس بإيرادها موارد الهلاك والعذاب، وظلم لله تعالى بالاعتداء على ما يجب له من الاعتراف بالوحدانية، وظلم للناس بالاعتداء عليهم أو الحيلولة دون وصولهم إلى حقوقهم.

وقيل: المراد بالظالمين أهل مكة^(٢)، وأحسب والله أعلم أن المراد جنس الظالمين، ويندرج تحتهم أهل مكة.

والتعبير باسم الفاعل (الظالمين) للدلالة على رسوخهم في الظلم وثباتهم وإصرارهم عليه.

وقوله: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ﴾ أي يمهلهم، وهو استئناف وقع تعليلاً للنهي في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا﴾.

والمعنى: لا تحسبن الله غافلاً عن عقوبتهم ومجازاتهم، إنما يمهلهم إلى ذلك اليوم الشديد المهول.

وإيقاع التأخير عليهم مع أن المؤخر إنما هو عذابهم، «لتهويل الخطب وتفضيع الحال ببيان أنهم متوجهون إلى العذاب مرصدون لأمر ما لأنهم باقون باختيارهم، وللدلالة على أن حقهم من العذاب هو الاستئصال بالمرة، وأن لا يبقى منهم في الوجود عين ولا أثر، وللايذان بأن المؤخر ليس من جملة العذاب وعنوانه، ولو قيل: إنما يؤخر عذابهم؛ لما فهم ذلك»^(٣).

(١) التحرير والتنوير ١٣/ ٢٤٦.

(٢) روح المعاني ٥/ ٢٤٥.

(٣) المصدر السابق ٥/ ٢٤٥.

أحوال الظالمين يوم القيامة:

وقد وصف الله تعالى حال الظالمين في ذلك اليوم العظيم فذكر لهم خمسة أحوال مفرغة شديدة هي:

الحال الأولى: مذكورة في قوله تعالى: ﴿لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾، ويعني أن العيون لا تطرف من شدة الأهوال التي تراها في ذلك اليوم، فإغماض العين قد يكون علامة للاطمئنان، أما يوم القيامة فلا سبيل لذلك، حيث تكون الأعين مفتوحة متسعة الأحداق من صنوف الأهوال التي تراها. وهذا الوصف للأبصار يشمل أهل الموقف جميعاً فيدخل في زمرة الظالمين، وبناء عليه فإن «أل» في قوله ﴿الْأَبْصَارُ﴾ للعموم وليست للعهد، - وإن كان هذا هو الظاهر والمناسب لما بعده -؛ لأن اعتبارها للعموم أدخل في باب التهديد، والله أعلم.

يقال: شخص البصر، أي أَحَدٌ ولم يستقر مكانه^(١)، وهو مأخوذ من قولهم: شخص الرجل من بلده إذا خرج منه ولم يستقر فيه. والشَّخْص: سواد الإنسان القائم المرئي من بعيد، وهذا يعني عدم الثبوت والتحقق من هذا الإنسان المرئي من بعيد.

وهكذا رأيت الارتباط بين الأصل اللغوي للكلمة وبين المراد بها أي وما استعملت فيه. وشخص البصر فيه دلالة على فرط الحيرة والدهشة.

الحال الثانية: ﴿مُهْطِعِينَ﴾ أي: مسرعين في ذل وخوف وهلع كإسراع الخائف والأسير، مأخوذ من أھطع يھطع إھطاعاً إذا أسرع، ومنه قوله تعالى: ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ [القمر: ٨]، وقيل: المهطع: الذي ينظر في ذل وخشوع، والمعنى: ناظرين من غير أن يطرفوا، قال ابن عباس، وقال مجاهد والضحاك:

(١) البحر المحيط ٥/٤٢٣.

﴿مُهْطِعِينَ﴾ أي: مديمي النظر. وقيل: الإهطاع مَدُّ العُنُق^(١)، إن هؤلاء الظالمين المتكبرين الذين كانوا يسيرون في الأرض مرحاً، ويملاًونها جوراً يسيرون في ذلك اليوم العظيم أذلاء مذعورين نحو ذلك البلاء مجبيين لأول داعٍ من دون تلكؤ أو تردد لأنهم لا يملكون إلا الإجابة.

الحال الثالثة: ﴿مُقْنِي رُءُوسِهِمْ﴾ أي: رافعيها ينظرون في ذل وصغار، وإقناع الرأس رفعه. وقيل: إن الكلمة «مهطع» من الأضداد فيكون بمعنى رفع رأسه وطأها ذلة وخضوعاً، والآية الكريمة تحتل الوجهين^(٢).

والرؤوس جمع كثرة لرأس، وجمع القلة أرؤس، والرأس مذكر.

إيثار المفرد على الجمع في قوله تعالى: ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾:

الحال الرابعة: والطَّرْف: الحِجْفُن، يقال: ما طبق طَرَفه، أي: جفنه على الآخر، ويطلق أيضاً على العين، قال عنتره:

وأغض طرفي ما بدت لي جارتي حتى يوارى جارتي مأواها

والآية فيها تصريح بدوام شخوص أبصارهم حيث تبقى أعينهم دائماً مفتوحة لا تطرف كالمحتضر لما أصابها من الهول. فهؤلاء الظالمون لا يستطيعون تحريك جفونهم، وهذا كناية عن بقاء العين مفتوحة على حالها لشدة هول ما يشاهدونه.

أو أن أبصارهم قد استغرقتها الأهوال التي تراها فهي فزعة هلعة، قد سُمرت أعينهم فيما ترى من عذاب ذلك الهول الأعظم، فلا ترجع إليهم، ولا تعود تحت سيطرتهم، هذا هو المراد بعدم ارتداد الطرف. ووَحَّد الطَّرْف؛ لأنهم يكونون في هيئة

(١) انظر: البحر المحيط ٣/ ١١٥، وروح المعاني ٥/ ٢٤٥، والجامع لأحكام القرآن ٩/ ٣٧٦.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٩/ ٣٧٦.

العين قريباً من السَّواء، فكل العيون تبدو شاخصة وعلى هيئة واحدة؛ لذا كان من الملائم إيثار المفرد على الجمع.

وبنظرة أخرى في هذه الآية نلاحظ أنه عبر عن دهشة وهلع الظالمين يوم القيامة من خلال تكاثف الأحوال التي تكشف عن هيئتهم يوم القيامة، فقوله: ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾، حالان من المضاف المحذوف، إذ التقدير: أصحاب الأبصار، أو تكون الأبصار دلت على أصحابها فجاءت الحال من المدلول عليه كما قال أبو البقاء^(١).

وجملة ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ في موضع الحال أيضاً من الضمير في ﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾ ويجوز أن تكون مستأنفة.

وقد جاءت هذه الأحوال الثلاثة كنايةات عن الذل وشدة الهلع والولَّه.

حرف الاختصاص:

أرأيت الآن كيف عبَّر عن أحوالهم تلك من خلال تلك الكلمات الواصفة؟!

ثم تأمل معي سر تعدية الفعل «نؤخر» باللام دون «إلى» في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ﴾ حيث كان الظاهر أن يقال: إنما نؤخرهم إلى يوم.

فلماذا أوتر حرف الاختصاص (اللام) على حرف الانتهاء «إلى» في هذه الآية

الكريمة؟

لم أجد في كتب التفسير إجابة عن هذا السؤال فضلاً عن إثارته أصلاً، وقد حاولت جهدي أن أصل إلى غرض النظم الحكيم من خلال إيثار حرف اللام، فهداني الله إلى أن الغرض هو بيان أن ما يقع لهم من أهوال، وما يعترهم من أوصاف وأحوال إنما هو كائن في ذلك اليوم المهول ومختص به، وهذا المعنى يناسبه حرف

(١) انظر: الفتوحات الإلهية ٢/ ٥٣٢.

الاختصاص «اللام». ولو قيل: إلى يوم.. لأشعر بأن الغرض من الكلام هو بيان انتهاء الغاية والمقصد من تأخيرهم، ونهاية رحلة هذا التأخير، والمعنى الأول المدلول عليه باللام هو المراد؛ لأنه الملائم لمقام تهديد الظالمين ووعيدهم، والله أعلم بمراده وأعوذ به من الزلل.

الغرض من تقديم الجار والمجرور على الفاعل:

ومن الملاحظ أيضاً في هذا الموضع تكرر تقدم الجار والمجرور على الفاعل، حيث جاء في قوله تعالى: ﴿تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾، وقوله تعالى: ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ وتقديم الجار والمجرور على الفاعل في الموضع الأول لاعتبار أهمية المتقدم، فالغرض بيان الوقت أو الزمن الذي تشخص فيه أبصارهم؛ لذا تقدم الجار والمجرور «فيه» للدلالة على هذا المقصد.

أما الغرض من تقديم الجار والمجرور على الفاعل في الموضع الثاني فهو بيان عدم سيطرتهم على عيونهم التي سُمرت من هول ما تشاهده، وعدم تحكمهم فيها حيث ملكتها تلك المرائي المفزعة، ولم يعد لهم عليها من سلطان فيستطيعون تحويلها عما تراه أو إغماض جفونها، هذا المعنى ناسبه تقديم الجار والمجرور ﴿إِلَيْهِمْ﴾ على الفاعل ﴿طَرْفُهُمْ﴾، ولو قيل: لا يرتد طرفهم إليهم، لفقدت الغرض المذكور، حيث سيصبح الغرض بيان شخوص أبصارهم أولاً، وعدم ارتدادها إليهم ثانية، ولكن المراد العكس؛ لذا كان تقديم الجار والمجرور، والله أعلى وأعلم.

الحال الخامسة: ﴿وَأَفْنَدْتَهُمْ هَوَاءً﴾ أي: أن أفندتهم قد فرغت من أسباب الاطمئنان والأمن، وامتألت بأسباب الهموم والخوف، أو أن أفندتهم لا تدرك شيئاً ولا تعيه من شدة الخوف والهلع، فهو كقوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أَمْرِمُوسَىٰ قَرْعًا﴾ [القصص: ١٠] أي

إنه فرغ من الوعي والإدراك ولم يبق إلا موسى والخوف عليه^(١). والفؤاد مفرد أفئدة، وهو العضو الذي من شأنه أن يُجَمَّى بالغضب. وفي القاموس المحيط: التفؤد: التحرق والتوقد، ومنه الفؤاد للقلب.

والهواء في اللغة: المجوف الخالي الذي لم تشغله الأجرام، ومنه قيل للجبان والأحق قلبه هواء، أي لا قوة ولا رأي فيه، والمعنى أن قلوبهم خالية من العقل والفهم لفرط حيرتهم وذوولهم وولهم وفزعهم. والجملة ﴿وَأَفْنَدْتَهُمْ هَوَاءً﴾ إما حالية وإما استئنافية وأفرد ﴿هَوَاءً﴾ وهو خبر لجمع «أفندتهم»؛ لأن معنى هواء هنا فارغة ولو لم يقصد ذلك لقليل: أهوية؛ ليطابق الخبر مبتدأه، فلما كان هواء بمعنى فارغة أفرد كما يجوز إفراد فارغة؛ لأن تاء التأنيث تدل على تأنيث الجمع الذي في «أفندتهم» ومثله قولنا: أحوال صعبة، وأحوال فاسدة، حيث جاء الخبر مفرداً ومبتدؤه جمعاً^(٢).

وقوله: ﴿وَأَفْنَدْتَهُمْ هَوَاءً﴾ تشبيه بليغ، ووجه الشبه إما فراغها من الرجاء والطمع والرحمة، وإما خلوها من الإدراك لشدة الهول^(٣).

وهكذا رأينا كيف تضافرت تلك الأحوال في تصوير ذل الظالمين وانكسارهم وفزعهم، وامتلاء قلوبهم بالخوف والرهبة، «فالسريعة المهرولة المدفوعة، في الهيئة الشاخصة المكروهة المشدودة، مع القلب المفزع الطائر الخاوي من كل وعي، ومن كل إدراك، كلها تشي بالهول الذي تشخص فيه الأبصار. هذا هو اليوم الذي يؤخرهم الله إليه، والذي ينتظرهم بعد الإمهال هناك»^(٤).

(١) زهرة التفاسير ٨/ ٤٠٥٠.

(٢) الفتوحات الإلهية ٢/ ٥٣٢.

(٣) انظر: البحر المحيط ٣/ ١١٦.

(٤) في ظلال القرآن م٤/ ٢١١٢.

وأرجو ألا أشطط إن قلت: إنني لمحت تلك الأحوال المذكورة لهؤلاء الظالمين بجانب ما ذكر في رسم الكلمات وهيئتها، نعم إنك لو دقت النظر في معظم كلمات الآيتين الكريمتين تلحظ شيئاً عجيباً ألا وهو أن معظم تلك الكلمات لم تحي حروفها قائمة، وإنما هي ملقاة على السطر أو تحته، وكأنها تشي بجانب تكرار حروف اللين والسكون وتوالي الكسرات بحالة الذهول والسكون والهول والانكسار الذي اعترى هؤلاء الظالمين، وعد الآن وانظر ثانياً إلى هيئة تلك الكلمات «يؤخرهم»، «تشخص»، «مهطعين»، «مقنعي»، «رؤوسهم»، «طرفهم»، «أفئدتهم»، وتأمل شكلها، ومدودها وسكناتها وكسراتها وما أشاعه كل ذلك من معنى الخمود والسكون والانزمام النفسي، وتأمل كيف تجاوب هذا كله مع مدلول صياغة الآيات الكريمة وبيانها، ثم تأمل كيف تجاوب المد بالألف الساكن في كلمة «الأبصار» في الدلالة على ارتفاع الأبصار يومئذ وشخصها.

ولقد أمر الله تعالى نبيه ﷺ بأن ينذر الناس بهذا اليوم العظيم، فقال: ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾، والمعنى: وأنذر يا محمد الناس جميعاً يوم يأتيهم العذاب فيقول الظالمون هلعاً وجزعاً: ربنا أرجعنا إلى الدنيا وأعطنا مهلة قليلة نجب فيها دعوتك إلى التوحيد، وإخلاص العبادة لك، ونطع فيها الرسل.

﴿وَسَكَنْتُمْ فِي مَسْكَانٍ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَبَيَّنَّا لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ * وَقَدْ مَكَرُوا مَكَرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكَرُهُمْ وَإِنْ كَانَتْ مَكَرُهُمْ لَتَنْزُولٍ مِنْهُ الْجِبَالُ * فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخَلِّفَ وَعْدِهِ رُسُلُهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ * يَوْمَ يُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ *

وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ * سَرَابِلُهُمْ مِّنْ فَطْرَانٍ وَتَعْشَىٰ جُجُوهُهُمْ
النَّارُ * لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ * هَذَا بَلَّغٌ لِلنَّاسِ
وَلِيُنذِرُوا بِهِ. وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرُوا أَلَّا يَكُنِ ﴿[إبراهيم: ٤٥-٥٢].

والمراد من الأمر الدوام، والمعنى: داوم على إنذار الناس يوم يأتيهم العذاب
(يوم) في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾ مفعول به ثان للفعل (أنذر) وليس مفعولاً
فيه؛ لأن الإنذار إنما يقع في الدنيا ولا يقع في يوم القيامة، والمقصود من الناس: الكفار
بدليل قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا أَخْرِنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّحِبَّ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ﴾ والمراد
بالعذاب: عذاب الآخرة، وإتيان العذاب مستعمل في معنى وقوعه على سبيل المجاز
المرسل بعلاقة المحلية، حيث أطلق المحل (اليوم) وأريد الحال فيه من أهوال.

العدول عن الإضمار إلى الإظهار:

وعدل عن الإضمار إلى الإظهار في قوله تعالى: ﴿فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ حيث كان
ظاهر السياق أن يقال: فيقولون.....، وذلك «للاشعار بأن المراد بالإنذار هو الزجر
عما هم عليه من الظلم شفقة عليهم لا التخويف للإزعاج والإيذاء»^(١).

وفي العدول أيضاً عن الإضمار إلى الإظهار بيان سبب لحوق العذاب بالكفار
يوم القيامة ألا وهو ظلمهم، وتأتى هذا عن طريق الموصول وصلته ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾.

تلون الأسلوب من الحكاية إلى الخطاب:

تأمل كيف تلون الأسلوب من الحكاية إلى الخطاب، وكأن هؤلاء الكفار الطغاة
الظالمين ماثلون خاضعون يتمنون ويطلبون، لقد نقلنا الأسلوب في سرعة خاطفة من

(١) إرشاد العقل السليم ٥/ ٥٦.

حكاية حالهم في الدنيا إلى مجاباتهم بالخطاب في الآخرة، هكذا في لمحة بصر تطوى الدنيا بما فيها وبما كان فيها!!

والغرض من الأمر في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا أَخِرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ التمني والتوسل.

والمراد تأخير الحساب، وجاء التعبير عن الرسل بالجمع لاتفاق دعوتهم في كونها للتوحيد فاتباع واحد منهم اتباع لهم جميعاً عليهم السلام.

ويجيء الرد على طلبهم موبخاً مقرأ لهم حيث ساقهم إلى ساحة الخطاب ليقدف في وجوههم هذا الرد الصارم الصادم المخيب لأمنيتهم يذكرهم بما قالوه تجبراً وبطراً وتكبراً وجهلاً: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّنْ قَبْلِ مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ * وَسَكَنْتُمْ فِي مَسْكَنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُم كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾، وقد افتتحت جملة الجواب بالواو العاطفة «نتيهاً على معطوف عليه مقدر هو رفض ما سألوه حُذف إيجازاً لأن شأن مستحق التوبيخ أن لا يعطى سؤله، فالتقدير: كلا، وألم تكونوا أقسمتم... إلخ»^(١).

والغرض من الاستفهام التقرير والتوبيخ والتقرير. والمقصود من قوله: (من قبل) أي في الدنيا. ووقعت جملة ﴿مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ﴾ بياناً لجملة (أقسمتم) وصيغة الخطاب في جواب القسم ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّنْ قَبْلِ مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ﴾ حيث كان الظاهر أن يقال: ما لنا من زوال لمراعاة حال الخطاب في (أقسمتم)، وهذا أدخل في التوبيخ والتبكيت من أن يقال: (ما لنا) مراعاة لحال المقسم^(٢).

(١) التحرير والتنوير ٧/ ٢٤٨.

(٢) انظر: إرشاد العقل السليم ١/ ٥٧.

سر تعدية الفعل (سكن) في الآية بحرف الظرفية:

وعدي الفعل (سكن) في الآية بحرف الظرفية مع أنه يجيء أيضاً متعدياً بنفسه للدلالة على طول بقائهم وسكنهم في ديار من سبقوهم من أهل الظلم كعاد وثمرود، وهذا أدعى لعظمتهم واعتبارهم مما حل بأهل الظلم والكفر من سابقهم، ولكنهم مع طول بقائهم واستخلافهم لديار من سبقوهم من أهل الطغيان لم ينزجروا ولم يتعظوا، وهذا أدعى لتقريعهم وتوبيخهم حيث جمع لهم في إقامة الحجة بين دلائل الآثار والمشاهدة ودلائل الموعظة وتواتر الأخبار: ﴿وَبَيَّنَّا لَكُمُ الْكَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾.

وفي ذكر معمول الفعل (ظلم) في قوله: ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ إشارة إلى أن عاقبة الظلم الوخيمة تؤول إلى صاحبه. وأوثر التعبير بجمع القلة (أنفس) على جمع الكثرة (نفوس) للدلالة على حقارة تلك الأنفس المعتدية الظالم، وأنها أنفس رخيصة تافهة قليلة مهما كانت كثرتها لكفرها وعنادها، والله أعلم.

وفي التعبير بالتبيين دلالة على شدة الظهور، أي شدة ظهور ما حل بهؤلاء من العقاب من خلال مشاهدة آثار العذاب من فناء وخراب واستئصال.

(كيف) تستعمل في سياق المبالغة والتعجيب:

وأوثر التعبير بقوله: ﴿كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ أي: من الإهلاك والتدمير والاستئصال على أن يقال: ما فعلنا بهم؛ للدلالة على المبالغة فيما حلّ بساحتهم من الإهلاك والعقوبة، ف(كيف) تستعمل في سياق المبالغة والتعجيب.

﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾ أي ما نزل عليهم من صنوف العذاب التي هي في الغرابة كالأمثال المضروبة. وقدم الجار والمجرور (لكم) على المفعول به (الأمثال)

للتشويق إلى المؤخر. «وإن هذا المثل ليتجدد في الحياة ويقع في كل حين، فكم من طغاة يسكنون مساكن الطغاة الذين هلكوا من قبلهم، وربما يكونون قد هلكوا على أيديهم، ثم هم يطغون بعد ذلك ويتجبرون ويسيطرون حذو النعل بالنعل سيرة الهالكين! فلا تهز وجدانهم تلك الآثار الباقية التي يسكنونها والتي تحدث عن تاريخ الهالكين وتصور مصائرهم للناظرين! ثم يؤخذون إخذة الغابرين ويلحقون بهم وتخلو منهم الديار بعد حين...»^(١).

المكر المحمود والمكر المذموم:

قوله: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ المكر: صرف الغير عما يقصده بحيلة، وذلك ضربان: مكر محمود، وذلك أن يتحرى بذلك فعل جميل، ومكر مذموم: وهو أن يتحرى به فعل قبيح^(٢).

والضمير في (مكروا) عائد إلى المهلكين الظالمين أنفسهم والذين سكنت مساكنهم وضربت بهم الأمثال. ووقعت جملة «ومكروا مكْرهم» حالية لبيان مكْرهم العظيم الذي بذلوا فيه غاية جهدهم لإبطال الحق ومعارضته ولإثبات الباطل وتأيينه.

(ومكْرهم) مفعول مطلق دل على مبالغة هؤلاء الكفار المعاندين في إظهار عداوتهم ومكْرهم. وقوله: ﴿وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ أي جزاء مكْرهم، وإطلاق الجزاء على المكر من قبيل المشاكلة اللفظية.

تأمل تلك الاستعارة التمثيلية الرائعة في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَتْ مَكْرُهُمْ لِيَنْزُولٍ مِنْهُ أَلْجَبَالُ﴾ التي بينت شدة مكر أهل الكفر ومتانته وعظمته وافتنانهم فيه

(١) في ظلال القرآن ٣/ ٢١١٣.

(٢) المفردات للراغب مادة (مكر) ص ٤٩١.

وبلوغهم الغاية منه، حتى استحال إلى كونه مهيتاً لإزالة الجبال الشم الرواسي عن أماكنها لكونه مثلاً في ذلك.

وقرأ ابن محيصن وابن جريج والكسائي «لتزول»^(١) بفتح اللام الداخلة على الفعل (تزول) على أنها لام الابتداء، ورفع الفعل، واعتبار (إن) مخففة من الثقيلة في قوله: ﴿وَلِنْ كَانَتْ مَكْرُهُمْ﴾، ومعنى هذه القراءة استعظام مكر المكذبين المعاندين المهلكين حتى لتكاد الجبال تزول منه. وقرأ الجمهور «لتزول» بكسر اللام الأولى على أنها لام الجحود، وفتح اللام الثانية على اعتبار نصب الفعل، و(إن) في قوله: ﴿وَلِنْ كَانَتْ مَكْرُهُمْ﴾ باعتبار هذه القراءة نافية بمعنى (ما) أي: ما كان مكرهم لتزول منه الجبال التي شبهت بها آيات الله تعالى وشرائعه ومعجزاته القاهرة على أيدي رسله عليهم السلام في ثباتها ورسوخها، والمعنى الاستخفاف بمكرهم لضعفه ووهنه مهما بلغ من الشدة في مقابل ثبات شرائع الله ورسوخها المؤيدة بمدد منه سبحانه.

إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْلِفُ الْمِيعَادَ:

والخطاب في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ﴾ للرسول ﷺ وقد تقدم الحديث عن هذا النهي في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفْلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾.

سر تقديم المفعول الأول (وعده) على المفعول الثاني (رساله):

وقد تسأل: عن سر تقديم المفعول الأول (وعده) على المفعول الثاني (رساله) في قوله سبحانه: ﴿مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ﴾ حيث لم يقل: فلا تحسبن الله مخلف رسله وعده. والجواب: أنه قدم الوعد ليعلم أن الله تعالى لا يخلفه أبداً أحداً؛ لأن هذا أمر جائز

(١) يراجع: جامع البيان للطبري ٥/ ١٦٢، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٩/ ٣٨٠.

بالنسبة له سبحانه سواء أكان من وعده رسولاً أم كان غير رسول، فكيف يخلفه رسله الذين هم خيرته وصفوته^(١). فالمقصود إذن تأكيد وقوع وعده سبحانه لرسله الكرام عليهم السلام.

ويمكن أن يجاب أيضاً عن سر تقديم المفعول الأول على المفعول الثاني هو أن الاهتمام بنفي إخلاف الوعد أشد وأولى، فلذلك قدم ﴿وَعْدِهِ﴾ على ﴿رُسُلِهِ﴾. والمعنى: لا تحسبن الله مخلف ما وعد الرسل.

وقد وعد رسله الكرام بالنصر والغلبة فقال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ والعزیز هو الغالب المسيطر الذي لا يقهر، وأكد هذا المعنى بأن واسمية الجملة.

لماذا عبر عن الجزاء بالانتقام؟

وعبر عن الجزاء بالانتقام؛ لأن أهل الظلم من الكفار قد أذاقوا المستضعفين من المؤمنين صنوف العذاب فكان لا بد من الجزاء انتقاماً من الظالمين، لتقر أعين الضعفاء ويذوقوا حلاوة الحق بعد أن ذاقوا مرارته، وليتيقنوا أنه سبحانه كان رقيباً وشهيداً على أعدائهم، فالظالم لم يفلت من العقاب، والماكر لم ينج من الحساب.

إن كلمة «الانتقام هنا تلقي الظل المناسب للظلم والمكر، فالظالم الماكر يستحق الانتقام، وهو بالقياس إلى الله تعالى يعني تعذيبهم جزاء ظلمهم وجزاء مكرهم تحقيقاً لعدل الله في الجزاء»^(٢).

وجاءت جملة ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ تعليلاً للنهي في قوله: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ﴾.

(١) الكشف ٢/ ٣٠٨.

(٢) في ظلال القرآن ٣/ ٢١١٣.

وختمت الآية الكريمة بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ ولم تختتم بقوله: إن الله لا يخلف الميعاد، لأن المقصود من الوعد تعذيبهم، وفي التعرض لوصفي العزة والانتقام إشعار بذلك^(١).

والتبديل هو التغيير في شيء، فهل التبديل في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾ هو تغيير في صفاتها، أو: تغيير في ذاتها؟ الله أعلم. ولم يقل: وتبدل السماوات غير السماوات؛ لدلالة ما قبله عليه، ففي العبارة إيجاز بالحذف.

وجاء قوله سبحانه: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾ استثنافاً لزيادة الإنذار بيوم الحساب والتخويف منه؛ لأن في هذا تبين بعض ما في ذلك اليوم من الفظائع والأهوال^(٢). وهذا اليوم يوم القيامة؛ لذا قال تعالى: ﴿وَيَبْرُزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ أي: ظهرُوا وعلمُوا أنهم لقوا الله تعالى الذي كانوا يكذبون لقاءه وينكرونه، لذا كان التعبير بلفظ الجلالة (الله) ملائماً أشد الملائمة في هذا المقام؛ لإلقائه المهابة في أنفسهم، وقذفه الهلع في أفئدتهم بعد إنكارهم لقاءه سبحانه. ووصفه بـ(الواحد)؛ ليتيقنوا أن شركهم كان باطلاً، وأنه وحده الملك الحكم العدل فلا شفاعة لأحد ولا لأوثانهم. وفي التعبير بالوصف (القهار) تهويل لما يلاقيه هؤلاء الظالمون، وتربية المهابة وتحقيق الانتقام في ذلك اليوم على تقدير كونه ظرفاً له.

وتحقيق إتيان العذاب الموعود على تقدير كونه بدلاً من قوله: (يوم يأتيهم العذاب)، لأن الأمر إذا كان لواحد غلاب قادر لا يضار ولا يغار كان في غاية ما يكون من الشدة والصعوبة^(٣). وعدل عن المضارع إلى الماضي في قوله: ﴿وَيَبْرُزُوا﴾ للدلالة على تحقق الخبر - المستقبل - ووقوعه.

(١) إرشاد العقل السليم ٥/ ٥٩.

(٢) التحرير والتنوير ٧/ ج ١٣ / ٢٥٢ بتصرف يسير.

(٣) إرشاد العقل السليم ٥/ ٦٠ بتصرف يسير.

صورة مفزعة:

قال تعالى: ﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ * سَرَابِيلُهُمْ مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ [إبراهيم: ٤٩-٥٠].

ذكر الله تعالى للظالمين أحوالاً ثلاثة في ذلك اللقاء العصيب يوم القيامة: الأولى: «أنهم مقرنون في الأصفاد»، الثانية: «أن سراويلهم من قطران». الثالثة: «أن النار تغشى وجوههم»، أعادنا الله من ذلك، ولنتأمل الآن أكثر في بيان تلك الآية الكريمة: قوله ﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ﴾ عطف على ﴿وَيَرْزُوا﴾ وفي التعبير بالمضارع للدلالة على استمرارهم على أحوالهم الثلاثة المذكورة في الآية الكريمة من صنوف العذاب والإهانة، فتلك لا تنفك عنهم ولا تفتّر. وعبر عن الظالمين بوصف ﴿الْمُجْرِمِينَ﴾ لأن ما اكتسبوه من جرائم في اعتقادهم، وفي إفسادهم، وعنتهم، وعنادهم، هو سبب ما يحل بهم من عذاب. إن هؤلاء المجرمين يؤتى بهم ويرون ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾، أي: مشدودة أيديهم إلى أرجلهم، مجموعين في (الأصفاد)، أي: في القيود والأغلال مع قرنائهم لتشابه جرائمهم واتحادهم في الاتصاف بالإجرام. والأصفاد مفرداً صَفْدٌ يقال: صفدته صفداً، أي قيدته، فإذا أردت التكثير قلت: صفدته تصفيداً. قال عمرو بن كلثوم:

فأبوا بالنهاب وبالسبايا وأبنا بالملوك مصفدين^(١)

وتأمل ما يوحى به التشديد في ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾ من شدة إحكام الأغلال عليهم وشدتها وتضييقها. وتأمل حالهم الثاني ﴿سَرَابِيلُهُمْ مِّن قَطِرَانٍ﴾، والسراويل مفرداً سربال، وهو القميص الذي يلاصق البدن، «والقطران: هو ما يتحلب من شجر يسمى الأهل

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٣٨٤/٩.

فيطبخ فيهنأ به الإبل الجربى، فيحرق الجرب بحدته وحره، وهو أسود اللون متتن الريح، فيطلى به جلود أهل النار حتى يعود طلاؤه لهم كالسرايل^(١).

وإنما جعلت سرايلهم من قطران، لأنه شديد اشتعال النار فيه وسريعة، فيجتمع على هؤلاء المجرمين لذع القطران وحرقته وإسراع النار في جلودهم واللون الوحش وتنن الريح، فهذا لباسهم - والعياذ بالله - قبل دخولهم النار على أن التفاوت بين قطران الدنيا والآخرة كالتفاوت بين النارين فيهما^(٢).

وفي قوله سبحانه: ﴿سَرَابِيلُهُمْ مِّنْ قَطِرَانٍ﴾ تشبيه بليغ، حيث شبه طلاء جلود أهل النار بالقطران، وكأنه كالسرايل.

أما ثالث أحوال المجرمين يوم القيامة فهي قوله سبحانه: ﴿وَنَقَشَٰنَا وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ أي: تعلوها وتحيط بها النار. وفي الجملة مجاز مرسل بعلاقة الجزئية، حيث عبر بالجزء وأريد به الكل، أي عموم البدن، وخص الوجه لأنه أشرف أعضاء الجسم الظاهرة وأعزه، كما أن القلب أشرف أعضاء الجسم الباطنة.

ونلاحظ في ترتيب هذه الأحوال أو الصفات أنها جيء بها للترقي؛ لذا جيء بالجملة الثانية ﴿سَرَابِيلُهُمْ مِّنْ قَطِرَانٍ﴾ أفضع من الصنف وأشد، وأوثر الفعل المضارع في الحال الثالثة ﴿وَنَقَشَٰنَا وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾؛ لإفادة تجدد الغشيان ولاستحضار الحال^(٣). وجاءت تلك الصفات معطوفة؛ للقصد إلى استقلال كل صفة من تلك الصفات وأنها من الأهمية بحيث تذكر منفردة، والله أعلم.

(١) الكشف ٢/ ٣٠٨.

(٢) ينظر: تفسير النسفي ١/ ٢٦٧.

(٣) روح المعاني ج ٤/ ٢٥٧.

واللام في قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [إبراهيم: ٥١] متعلقة بمحذوف، والتقدير: يفعل بهم ذلك ليجزي، والجملة مستأنفة لتحقيق وقوع ما ذكر في الآية الكريمة، والسرعة هنا للتأكيد ووقوع الجزاء.

وتختتم السورة الكريمة بقوله سبحانه: ﴿هَذَا بَلَّغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوا بِهِ، وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَحْدٌ وَلِيَذْكُرُوا الْأَلْبَابَ﴾ [إبراهيم: ٥٢]، والإشارة في قوله تعالى: ﴿هَذَا بَلَّغٌ لِلنَّاسِ﴾ تعود إلى ما ذكر من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفْلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ أو إلى القرآن، والأرجح - والله أعلم - الأول، لدلالة السياق عليه، والمعنى: هذا المذكور آنفاً فيه من العظة والاعتبار والتذكير ما يكفي من غير حاجة إلى ما اشتملت عليه السورة الكريمة أو القرآن الكريم كله من العظات^(١)، وفي ذلك دلالة على شدة تأثير آي القرآن الكريم وإعجاز بلاغتها. والمقصود بالناس الظالمين على اعتبار اختصاص الإنذار بهم في قوله تعالى: ﴿وَأُنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [إبراهيم: ٤٤]. وقيل: اللفظ يشملهم والمؤمنين، وقدم الإنذار على العلم في الآية لأنه داع إلى التدبر المستبوع للعلم المذكور^(٢). وإن الغاية الأساسية من ذلك الإبلاغ، وهذا الإنذار هي أن يعلم الناس ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَحْدٌ﴾، «فهذه هي قاعدة دين الله التي يقوم عليها منهجه في الحياة، وليس المقصود بطبيعة الحال مجرد العلم، إنما المقصود هو إقامة حياتهم على قاعدة هذا العلم، المقصود هو الدينونة لله وحده ما دام أنه لا إله غيره»^(٣)، وفي تخصيص التذكير بأولي الأبواب إعلام بمكانتهم وإعلاء لشأنهم.

(١) ينظر: روح المعاني ٥/٢٥٨.

(٢) إرشاد العقل السليم ٥/٦٢.

(٣) في ظلال القرآن ٣/٢١١٤.

جعلنا الله منهم، وهدانا إلى صراطه المستقيم، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، والله أعلى وأعلم بمراده، والحمد لله رب العالمين.

تم بحمد الله في يوم الأربعاء ليلة الخميس ٥ من شعبان ١٤٣٢ هـ الموافق ٦ من يوليو ٢٠١١ خورفكان - الشارقة - الإمارات العربية المتحدة.

د. عادل أحمد صابر الرويني

الفهارس

- المصادر والمراجع.
- تعريف بالمصطلحات البلاغية الواردة في الكتاب.
- فهرس الآيات القرآنية.
- فهرس الأحاديث.
- فهرس القراءات.
- فهرس الأشعار.
- فهرس المحتويات.

المصادر والمراجع

- إتخاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر، للبنى الدمياطي، تحقيق: د. شعبان محمد إسماعيل - نشر عالم الكتب ببيروت - والكليات الأزهرية بالقاهرة، الطبعة الأولى ١٩٨٧م، وبتصحيح الشيخ علي محمد الضباع، مطبعة عبد الحميد حنفي بمصر ١٣٥٩ هـ.
- الإتيان في علوم القرآن للسيوطي - ط مصطفى الحلبي.
- الإتيان والمجيب في القرآن الكريم - فقه دلالتها واستعمالها في القرآن الكريم - د. محمود موسى حمدان - ط مكتبة وهبة - ط الأولى ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨م.
- أحكام القرآن، لابن العربي - تحقيق: علي محمد البجاوي - الناشر دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت - لبنان.
- إحياء علوم الدين، لأبي حامد الغزالي - طبعة دار الفجر للتراث، القاهرة.
- أدوات التشبيه دلالاتها واستعمالاتها في القرآن الكريم، د. محمود موسى حمدان - طبعة الأمانة - القاهرة - الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢م.
- إرشاد العقل السليم، لأبي السعود محمد بن أحمد العمادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤م.
- أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها - من غرائب آي التنزيل، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، المكتبة العصرية - صيدا - بيروت - لبنان - ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤م.
- أساس البلاغة للزمخشري - طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٥م - ط الثالثة بدون تاريخ.
- الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم، د. صباح دراز - مطبعة الأمانة - الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦م.

- أساليب التوكيد في القرآن الكريم، عبد الرحمن المطردي، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة الأولى ١٩٨٦م - ليبيا.
- أسباب النزول، للواحدي النيسابوري، ط مكتبة المتنبي ودار الفكر العربي، بيروت، الطبعة الأولى سنة ١٩٩٣م.
- أسرار البلاغة، لعبد القاهر الجرجاني، تحقيق: هريترز - طبعة مكتبة المتنبي - الطبعة الثانية ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩م.
- أسرار ترتيب سور القرآن للسيوطي - تحقيق: رضا فرج التهامي - المكتبة العصرية - صيدا - بيروت ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤م.
- أسرار التكرار في القرآن، للكرماني، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا - دار بوسلامة للطباعة تونس.
- أسلوب الدعوة القرآنية بلاغة ومنهاجاً، د. عبد الغني بركة - طبعة مكتبة وهبة - الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣م.
- أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، د. حسن طبل - طبعة دار الفكر العربي سنة ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨م.
- أسلوب الوعيد في القرآن الكريم، د. عبد الحليم حنفي - الناشر مكتبة الآداب - القاهرة - الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠م.
- الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ، د. محمد الخضري - مطبعة الحسين الإسلامية - ط ١ - ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣م.
- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي - طبعة الكتاب العربي - بيروت - ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠م.
- إعراب القرآن وبيانه، للشيخ محيي الدين الدرويش - طبعة دار اليمامة - دمشق - بيروت - طبعة دار ابن كثير - دمشق - بيروت - طبعة السادسة ١٤١٩ هـ - ١٩٩٩م.
- الاقتضاب في شرح أدب الكتاب، للبطلبيوسي، تحقيق: مصطفى السقا، د. حامد عبد المجيد - طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٢م.
- الإمام البقاعي، للدكتور محمود توفيق - الطبعة الأولى ١٤٢٤ هـ.

- إنصاف الخصم في القرآن وأثره الإعلامي، د. عبد الحليم حنفي - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٢م.

- الإيضاح، للخطيب القزويني، طبعة صبيح سنة ١٤٠٢ هـ.

- البحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي - تحقيق: د. أحمد الجنبلي الجمل، الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد عوض، د. زكريا عبد المجيد النوتي، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان. ونسخة أخرى بتحقيق عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

- البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان، لتاج القراء الكرمانى، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، طبعة دار بو سلامة للطباعة والنشر - تونس - ط دار الاعتصام - الطبعة الثانية ١٣٩٨ هـ.

- البرهان في علوم القرآن، للزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، طبعة دار التراث وطبعة دار الجليل - بيروت ١٤٠٨ هـ.

- بُغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، د. عبد المتعال الصعيدي - ط مكتبة الآداب - بدون تاريخ.

- البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، د. محمد محمد أبو موسى - مكتبة وهبة - القاهرة - الطبعة الثانية - ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

- البلاغة القرآنية في الحديث عن الرسول ﷺ، للدكتور عادل أحمد صابر الرويني، الناشر مكتبة عباد الرحمن، مكتبة العلوم والحكم - الطبعة الأولى - ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م.

- بلاغة الكلمة في التعبير القرآني، د. فاضل صالح السامرائي - طبعة دار عمار - عمان - الأردن - الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م.

- تاج العروس من جواهر القاموس، للزبيدي، تحقيق مصطفى حجازي - حكومة الكويت - طبعة وزارة الإرشاد.

- التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع - تونس.

- الترجي في أي من الذكر الحكيم - دراسة بلاغية، د إبراهيم صلاح الهدهد - بحث منشور في مجلة كلية اللغة العربية بالقاهرة - العدد الخامس عشر - ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م.

- التسهيل لعلوم التنزيل، لأبي القاسم محمد أحمد بن جزي الكلبي الغرناطي، الدار العربية للكتاب.

- التصوير البياني دراسة تحليلية لمسائل البيان، د. محمد محمد أبو موسى - مكتبة وهبة - القاهرة - الطبعة الثانية سنة ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

- التصوير الساخر في القرآن الكريم، د. عبد الحليم حفي، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٢م.

- التصوير الفني في القرآن الكريم، سيد قطب، طبعة دار المعارف - الطبعة ١١.

- تفسير ابن كثير، للإمام الحافظ إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي - ط دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت - لبنان - ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

- تفسير البغوي المسمى بـ (معالم التنزيل) تحقيق: خالد عبد الرحيم - طبعة دار المعرفة - بيروت - الطبعة الأولى سنة ١٤٠٦هـ.

- التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم، د. عبد العظيم المطعني - الناشر: مكتبة وهبة الطبعة الأولى - ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

- تفسير البيضاوي المسمى بأنوار التنزيل وأسرار التأويل، لعبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي - طبعة دار المعرفة - بيروت.

- تفسير الشعراوي، للشيخ محمد متولي الشعراوي - طبعة أخبار اليوم بمصر - بدون تاريخ.

- تفسير المنار، للسيد محمد رشيد رضا - ط المنار - ثلاثة - ١٣٦٧هـ.

- تفسير النسفي المسمى: (مدارك التنزيل وحقائق التأويل) للإمام أبي البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي - طبعة دار إحياء الكتب العربية - عيسى البابي الحلبي، ونسخة أخرى: دار الكتاب العربي - بيروت - لبنان - دون تاريخ.

- التعبير القرآني، د. فاضل صالح السامرائي، ط دار عمار - عمان - الأردن - الطبعة الأولى ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.

- التعريفات، للشريف علي بن محمد الجرجاني، دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الأولى سنة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

- التعريف بالقرآن والحديث، للدكتور محمد الزفزاف، ط سنة ٢ ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان.
- التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية، د. أحمد سعد محمد، طبعة مكتبة الآداب - الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م.
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، مؤسسة مكة للطباعة والإعلام ١٣٩٨ هـ.
- جامع البيان، للطبري، دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت - لبنان - الطبعة الرابعة سنة ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م.
- الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ط دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - سنة ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م.
- الجامع لشعب الإيوان، للبيهقي، تحقيق: د. عبد العلي عبد الحميد حامد - نشر الدار السلفية - بومباي - الهند.
- حاشية الإمام أحمد بن المنير السكندري على الكشاف، بهامش الكشاف، طبعة دار المعرفة - بيروت - لبنان (بدون تاريخ).
- حاشية الشهاب الخفاجي على البيضاوي، المسماة: عناية القاضي وكفاية الرازي، طبعة دار صادر - بيروت.
- الحجة في علل القراءات السبع لأبي علي الفارسي - تحقيق: علي الجندي ناصف وآخرين، الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م.
- خصائص التراكيب، د. محمد محمد أبو موسى - ط مكتبة وهبة - الطبعة الثانية - ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م.
- خصائص النظم القرآني في قصة إبراهيم عليه السلام، د. الشحات محمد أبو ستيت، مطبعة الأمانة - ط ١ - ١٤١٢ هـ - ١٩٩١ م.
- دراسات جديدة في إعجاز القرآن، د. عبد العظيم المطعني، ط. مكتبة وهبة بالقاهرة - الطبعة الأولى ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م.

- دراسة بلاغية في السجع والفاصلة القرآنية، د. عبد الجواد طبق، طبعة دار الأرقم بالزقازيق - الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م.
- درة التنزيل وغرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز، لمحمد بن عبد الله الخطيب الإسكافي، طبعة المكتبة التوفيقية - القاهرة - بدون تاريخ.
- دلائل الإعجاز، للشيخ عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني، تعليق الشيخ محمود محمد شاكر - الناشر: مكتبة الخانجي بالقاهرة.
- دلالات التراكيب، د. محمد محمد أبو موسى، طبعة مكتبة وهبة - الطبعة الثانية سنة ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، للآلوسي، ط دار الفكر ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م.
- زبدة التفسير، للدكتور محمد سليمان عبد الله الأشقر، دار النفائس - ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م.
- زهرة التفاسير، للإمام محمد أبو زهرة، طبعة دار الفكر العربي، مصر.
- السيرة النبوية، لابن هشام، تحقيق: مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شليبي، طبعة دار المعرفة - بيروت - لبنان.
- شرح الأشموني بحاشية الصبان، طبعة دار إحياء الكتب العربية، بدون تاريخ.
- شرح العقيدة الطحاوية، المكتبة الإسلامية، الطبعة الثامنة.
- شروح التلخيص، ابن يعقوب المغربي، ١٩٣٧ م، القاهرة.
- صحيح مسلم، للإمام مسلم، المكتبة الإسلامية الطبعة الأولى ١٣٧٤ هـ - ١٩٥٥ م - تركيا.
- صورة الأمر والنهي في الذكر الحكيم، د. محمود توفيق، مطبعة الأمانة، الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م.
- فتح الباري، لابن حجر العسقلاني، طبعة دار الريان، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦ م.
- فتح القدير، للشوكاني، الطبعة الأولى ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م، دار ابن كثير - دمشق وبيروت - دار الكلم الطيب - دمشق - بيروت.
- الفتوحات الإلهية، للشيخ سليمان الجمل، طبعة عيسى الحلبي بمصر.

- الفروق اللغوية، لأبي هلال العسكري، تحقيق حسام الدين القدسي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان - بدون تاريخ.
- في ظلال القرآن، الأستاذ سيد قطب، دار الشروق، الطبعة التاسعة، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.
- القاموس المحيط، لمجد الدين الفيروزآبادي، الطبعة الأولى - شركة فن الطباعة - مصر.
- كاد ومواقعها في الذكر الحكيم، د. عبد الباري طه سعيد، مطبعة الإخوة الأشقاء بالقاهرة سنة ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.
- الكشف، للزخشري، طبعة دار المعرفة - بيروت - لبنان.
- الكشف، للزخشري، طبعة دار الكتب العلمية بيروت - لبنان - ط ٤ - ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.
- الكليات، لأبي البقاء الكفوي، تحقيق: د. عدنان درويش ومحمد المصري، الناشر دار الكتاب الإسلامي - القاهرة - الطبعة الثانية ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.
- اللباب في علوم الكتاب، لعمر بن علي بن أبي عادل الدمشقي، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، طبعة دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان.
- لسان العرب، لابن منظور - طبعة دار المعارف - تحقيق: عبد الله علي الكبير وآخرين.
- لمسات بيانية في نصوص من التتزيل، د. فاضل صالح السامرائي - طبعة دار عمار - عمان - الأردن - الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
- مباحث في علوم القرآن، د. صبحي الصالح - دار العلم للملايين ط ١٩٧٩م - بيروت.
- محاسن التأويل، لمحمد جمال الدين القاسمي، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي - دار إحياء التراث العربي - بيروت - لبنان.
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي محمد عبد الحق بن عطية، تحقيق: أحمد صادق الملاح - طبعة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية - مطبعة مؤسسة دار العلوم - الدوحة - الطبعة الأولى ١٤٠١هـ - ١٩٨١م - ونسخة أخرى: تحقيق الرحالي الفاروق - عبد الله بن إبراهيم - السيد عبد العال السيد - محمد الشافعي صادق - سنة ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.
- مسائل الرازي وأجوبتها، محمد أبو بكر الرازي، تحقيق: إبراهيم عطوة - مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - طبعة ١٩٨٥م - ١٤٠٦هـ.

- مشتببه النظم في القرآن الكريم، د. عبد العزيز حسن خضر، رسالة دكتوراه مخطوطة في كلية اللغة العربية بالقاهرة، ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م.
- مع الأنبياء في القرآن الكريم، تأليف: عفيف عبد الفتاح طباره، ط ١٠، دار العلم للملايين، بيروت - لبنان.
- المعاني في ضوء أساليب القرآن، د. عبد الفتاح لاشين - دار المعارف، ط ٣، ١٩٧٨.
- معاني القرآن، أبو زكريا الفراء، الجزء الأول، تحقيق: أحمد يوسف نجاتي - الجزء الثاني - محمد علي النجار - الدار المصرية للتأليف والترجمة - مطابع سجل العرب - الجزء الثالث، تحقيق: عبد الفتاح شلبي وعلي النجدي ناصف - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٢ م.
- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، وضعه: محمد فؤاد عبد الباقي، ط دار الحديث - القاهرة - الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م - الطبعة الثانية ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.
- معجم مقاييس اللغة، لأحمد بن فارس، تحقيق: د. عبد السلام محمد هارون - طبعة مصطفى الحلبي - الطبعة الثانية - ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م.
- المعجم الوسيط - وضع لجنة من أعضاء مجمع اللغة العربية بالقاهرة.
- مغني اللبيب عن كتب الأغاريب، لجمال الدين بن هشام، ط: دار إحياء الكتب العربية - عيسى البابي الحلبي - بدون تاريخ.
- مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)، للفخر الرازي، طبعة: دار الغد العربي.
- وطبعة: دار الكتب العلمية - طهران - الطبعة الثانية ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م.
- مفتاح العلوم، للسكاكي، طبعة مصطفى الحلبي - الطبعة الأولى ١٩٣٧ م.
- المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، تحقيق: نديم مرعشلي، طبعة دار الفكر للطباعة - بيروت - لبنان.
- ملاك التأويل، لأحمد بن الزبير الغرناطي، تحقيق: د. محمود كامل أحمد، دار النهضة العربية للطباعة والنشر - بيروت - ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م.
- من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم، د. محمد الأمين الخضري، طبعة مكتبة وهبة - الطبعة الأولى سنة ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م.

- من أسرار حروف العطف في الذكر الحكيم، د. محمد الأمين الخضري - ط مكتبة وهبة - الطبعة الأولى ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.
- من أسرار المغايرة في نسق الفاصلة القرآنية، د. محمد الأمين الخضري، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.
- منار الهدى في بيان الوقف والابتداء، أحمد بن محمد بن عبد الكريم الأشموني، الطبعة الثانية - ١٩٩٣هـ - ١٩٧٣م، مكتبة مصطفى الحلبي بمصر.
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، للإمام برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، الناشر - مكتبة ابن تيمية - الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.
- طبعة دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - الطبعة الأولى - ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.
- وجوه الخطاب في القرآن الكريم ومواقعها البلاغية، رسالة دكتوراه، لمحمد علي أبو زيد - مخطوطة في كلية اللغة العربية.
- الوقف الاختياري، لجمال بن إبراهيم القرشي - دار ابن الجوزي - الرياض، السعودية.



تعريف موجز بالمصطلحات البلاغية الواردة في الكتاب

١- الازدواج:

له عدة تعريفات أهمها:

هو تجانس اللفظين المتجاورين مثل: مَنْ جَدَّ وَجَدَ ومن لَجَّ وَلَجَّ، فالازدواج بين لفظي (جَدَّ) و(وَجَدَ) و(لَجَّ) و(وَلَجَّ) والازدواج بهذا التعريف من المحسنات اللفظية.

٢- الاستعارة:

هي اللفظ المستعمل في غير ما وضع له لعلاقة المشابهة مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي (الحقيقي) للفظ، وشرط الاستعارة: ألا يذكر وجه الشبه ولا أداة التشبيه لفظاً ولا تقديرأ بحيث تختفي كل أركان التشبيه ما عدا أحد الطرفين المشبه أو المشبه به؛ لذا قيل في تعريفها أيضاً: إنها تشبيه حُذِفَ أحد طرفيه: فهي تبنى على المشابهة وهي من المجاز اللغوي. وقد يجمع بين الطرفين المشبه والمشبه به على وجه لا ينبئ عن التشبيه.

أقسام الاستعارة:

للاستعارة تقسيمات كثيرة، فباعتبار ما يذكر من الطرفين تنقسم إلى تصريحية أو ممكنة، وتنقسم باعتبار اللفظ المستعار إلى أصلية وتبعية، وتنقسم باعتبار الجامع إلى عامة وخاصة، وتنقسم باعتبار الملائمات إلى مرشحة ومجردة ومطلقة.

أ- الاستعارة الأصلية:

تنقسم الاستعارة باعتبار اللفظ المستعار إلى تصريحية وتبعية.

وهي ما كان اللفظ المستعار فيها اسم جنس حقيقةً أو تأويلاً، والمراد باسم الجنس هنا ما دلَّ على ذات تصلح لأن تصدق على كثير من غير اعتبار وصف من الأوصاف في الدلالة.

ب- الاستعارة التبعية:

هي التي ما لم يكن اللفظ المستعار فيها اسم جنس كالأفعال والمشتقات والحروف. وإنما سُميت الاستعارة تبعية؛ لأنها تابعة لاستعارة أخرى في معاني مصادر الأفعال والمشتقات، ولتعلقات معاني الحروف بالنسبة للحروف؛ لما تقرره من أن الاستعارة تقتضي كون المستعار منه (معنى المشبه به) موصوفاً بوجه الشبه، والذي يصلح للموصوفية الحقائق الثابتة، وهي كما قلنا معاني المصادر بالنسبة للأفعال والمشتقات، ومتعلقات معاني الحروف بالنسبة للحروف دون الأفعال والمشتقات والحروف أنفسها؛ لأنها ليست حقائق ثابتة تصلح للموصوفية.

ج- الاستعارة التمثيلية:

هي تشبيه إحدى صورتين متزعتين من أمرين أو أمور بالأخرى ثم تدخل الصورة المشبهة في جنس المشبهة بها مبالغة في التشبيه فتذكر بلفظها من غير تغيير بوجه من الوجوه.

أو هي: تركيب استعمل في غير ما وضع له لعلاقة المشابهة مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الوضعي.

ويكثر ورودها في الأمثال السائرة مثل: (أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى) شبه

صورة تردده في المبايعة بصورة تردد من قام ليذهب في أمر، فتارة يريد الذهاب فيقدم رجلاً وتارة لا يريد فيؤخر أخرى.

د- الاستعارة المكنية:

هي ما حذف منها المشبه به، واكتفى بذكر شيء من لوازمه دليلاً عليه مع ذكر المشبه.

هـ- الاستعارة التهكمية (التمليحية):

وهي استعمال الألفاظ الدالة على المدح في نقائصها من الذم والإهانة، نحو قوله تعالى: ﴿فَأَثْبَكُمْ عَمَّا يَغْمِرُ﴾ [آل عمران: ١٥٣].

٣- الاستفهام:

هو طلب العلم بشيء لم يكن معلوماً من قبل.

أدوات الاستفهام:

للاستفهام أدوات كثيرة وهي نوعان:

الأول: حرفان، وهما الهمزة وهل. وتستعمل الهمزة لطلب التصديق: وهو إدراك النسبة أي تعيينها. والجواب عنها يكون بنعم أو لا مثل أقام محمد؟ ويمتنع هنا ذكر المُعَادِل بعدها. وإن جاءت (أم) بعدها فهي بمعنى (بل) نحو: أيوم السبت الإجازة الأسبوعية أم يوم الجمعة؟

ويطلب بالهمزة أيضاً التصور، وهو إدراك المفرد أي تحديده مثل أقام محمد أم قعد؟ وتأتي الهمزة متلوة بالمسؤول عنه. ويذكر في الغالب مُعَادِل بعد (أم) وتسمى (أم) هنا (أم المتصلة).

أَمَّا (هل) فلا يطلب بها إلا التصديق، ويمتنع معها ذكر المُعَادِل، والجواب عنها يكون بـ (نعم) أو (لا)، مثل: هل عاد المسافر؟

النوع الثاني: من أدوات الاستفهام أسماء، ولا يطلب بها إلا التصور وهي:

ما - مَنْ - متى - أَيْآنَ - كيف - أين - كم - أي.

المعاني المجازية للاستفهام:

قد يخرج الاستفهام عن معناه الحقيقي وهو طلب العلم بشيء لم يكن معلوماً من قبل إلى معنى غير حقيقي أي الاستفهام عن الشيء مع العلم به، والأغراض المجازية غير الحقيقية للاستفهام كثيرة جداً، وهي تستنبط من السياق ومن هذه الأغراض: التقرير - النفي - التهكم والسخرية - الاستبطاء - الاستبعاد - الإنكار - الإيناس - التحضيض - الترغيب والتشويق - التسوية - التمني - التهديد - التهويل - العتاب - الدعاء - النهي - الأمر.

٤ - الإسناد الحقيقي:

يكون الإسناد حقيقياً فيما يأتي:

- أن يسند الفعل إلى من يقع منه حقيقة ويؤثر في وجوده، وهذا لا يكون إلا لفاعل واحد هو الله تعالى، وأفعاله خلق ورزق وأحيا وأمات وأوجد.. ونحو ذلك مما لا يقدر عليه سواه جل شأنه.

- أن يسند الفعل إلى من يقع منه حكماً كما في قولهم: قام زيد، وحضر عمرو، وآمن عليّ، وعصى خالد، ونحو ذلك مما يكون للفاعل فيه كَسْب واختيار.

- أن يسند الفعل إلى ما يتصف به مثل: مرض زيد، وبرد الماء، وأمطرت السماء.

٥- الإسناد الخبري:

هو ضم كلمة أو ما يجري مجراها إلى أخرى بحيث يفيد أن مفهوم أحدهما ثابت لمفهوم الأخرى أو منفي عنه. وصدقُه: مطابقتها للواقع، وكذبه: عدمها. وقيل: صدقه مطابقتها للاعتقاد وكذبه عدمها.

٦- الإسناد المجازي:

وفيا عدا ما سبق يكون الإسناد مجازياً حيث يسند الفعل إلى غير ما هو له.

٧- الإطناب:

هو التعبير عن المقصود بلفظ زائد عليه لفائدة تقصد منه، فإذا زاد عليه لغير فائدة كان تطويلاً أو حشواً.

فالتطويل: هو ما لا يتعين فيه الزائد في الكلام.

الحشو: هو الذي يتعين فيه الزائد في الكلام. وهو اللفظ الذي لا يضيف جمالاً أو معنى جديداً، وقد يتسبب هذا الحشو في فساد المعنى، وقد لا يفسد المعنى.

أنواع الإطناب:

للإطناب أنواع منها:

- الإيضاح بعد الإبهام - ذكر الخاص بعد العام - ذكر العام بعد الخاص - التكرير - التكميل أو الاحتراس - التوشيع - الإيغال.

٨- التذييل:

وهو تعقيب الجملة بجملة أخرى تشتمل على معناها لتوكيده بها. والمراد باشتهاها على معناها إفادتها لتوكيده بها. والمراد باشتهاها على معناها إفادتها بفحواها لما هو

مقصود منها، وبهذا يمتاز التذييل عن التكرير؛ لأن دلالة الثانية على معنى الأولى في التكرير بالمطابقة لا بالفحوى.

والتذييل ضربان:

ضرب يجري مجرى المثل، لاستقلاله عما قبله وعدم توقفه عليه.
والضرب الثاني من التذييل: ضرب لا يجري مجرى المثل لتوقفه على ما قبله.

٩- الالتفات:

واصطلاحاً: انتقال الكلام من أسلوب التكلم والخطاب والغية إلى أسلوب آخر غير ما يترقبه المخاطب.

أو هو: الانتقال بالأسلوب من صيغة المتكلم أو الخطاب أو الغية إلى صيغة أخرى من هذه الصيغ بشرط أن يعود الضمير الثاني على نفس الذي يعود عليه الضمير الأول.

أو هو: تحويل وجهة الحديث من جهة إلى أخرى كالتحويل من المتكلم إلى الخطاب أو الغية، ومن الخطاب إلى التكلم أو الغية، ومن الغية إلى الخطاب.

صور الالتفات: صور الالتفات المشهورة عند جمهور البلاغيين هي:

١- الالتفات من المتكلم إلى الخطاب.

٢- الالتفات من التكلم إلى الغية.

٣- الالتفات من الخطاب إلى التكلم.

٤- الالتفات من الغية إلى التكلم.

٥- الالتفات من الخطاب إلى الغية.

٦- الالتفات من الغية إلى الخطاب.

١٠- الأمر:

هو طلب الفعل على وجه الاستعلاء والإلزام، وللأمر أربع صيغ هي:

- فعل الأمر - المضارع المقترن بلام الأمر - اسم فعل الأمر - المصدر النائب عن فعل الأمر.

أغراضه البلاغية:

قد يخرج الأمر عن معناه الحقيقي إلى معاني وأغراض أخرى كثيرة تستنبط من السياق، ومن هذه الأغراض: الإباحة - النصيحة والإرشاد - الالتماس - الإهانة - التعجيز - التمني - الوعيد - الدعاء - التكوين - التكذيب - التفويض - التهديد - التسخير - التسوية - المشورة - الاعتبار - الإكرام - التأديب.

١١- الإنشاء:

كل كلام لا يحتمل الصدق ولا الكذب لذاته، أو هو الكلام الذي لا يصح أن يقال لقائله: إنه صادق فيه أو كاذب.

نوعا الإنشاء:

الإنشاء نوعان أو قسمان:

الأول: الإنشاء الطلبي: وهو ما يستدعي مطلوباً غير حاصل وقت الطلب، وهو خمسة أنواع: الأمر - والنهي - والاستفهام - والدعاء - والتمني، وله أساليب متعددة.

الثاني: الإنشاء غير الطلبي: وهو ما لا يستدعي مطلوباً، وله أساليب متعددة منها: صيغ المدح والذم - التعجب - القسم - الرجاء - صيغ العقود.

١٢- الإيجاز:

هو أن يكون اللفظ أقل من المعنى مع الوفاء به، وإلا كان إخلالاً يفسد الكلام. أو هو قلة عدد اللفظ مع كثرة المعاني. أو هو: التعبير عن المقصود بلفظ أقل منه بحيث لا يقصر عن تأديته، ولا يخل ببيانه.

أنواع الإيجاز: للإيجاز نوعان:

أ- إيجاز القصر.

ب- إيجاز الحذف.

أولاً: إيجاز القصر: وهو تقليل الألفاظ وتكثير المعاني.

ثانياً: إيجاز الحذف: وهو ما يكون بحذف حرف أو كلمة أو جملة أو أكثر مع قرينة تعين المحذوف.

أو هو ما يحذف منه المفرد والجملة لدلالة فحوى الكلام على المحذوف ولا يكون إلا فيما زاد معناه على لفظه.

من صور الإيجاز بالحذف:

حذف حرف - حذف جزء من جملة - حذف المضاف إليه - حذف الموصوف - حذف الصفة - حذف الفعل - حذف الفاعل - حذف المفعول به - حذف القسم أو جوابه - حذف الشرط - حذف جواب الشرط.

والنوع الثاني من الإيجاز بالحذف: حذف جملة أو أكثر.

١٣- البديع:

هو عِلْمٌ يُعْرَفُ به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ووضوح الدلالة.

من الجمال اللفظي والجمال المعنوي، ويطلق على هذه الألوان: المحسنات البديعية.
ويشمل البديع نوعين من المحسنات:

أ- المحسنات المعنوية:

ويقصد بها: تحسين المعنى أولاً وتعلقها به لذاته، ويكون تحسينها للفظ ثانوياً وبالعرض كما في المشاكلة، فإن القصد الأصلي منها هو تحسين المعنى بجانب اشتغالها على تحسين اللفظ.

علامة المحسنات المعنوية: علامتها أنه إذا تَغَيَّرَت اللفظة إلى ما يرادفها لم يذهب المحسن المعنوي.

أنواع المحسنات المعنوية:

المحسنات المعنوية تشمل أنواعاً كثيرة منها:

الطباق - المقابلة - مراعاة النظر - المشاكلة - المزوجة - التورية - اللف والنشر -
التجريد - المبالغة - تأكيد المدح بما يشبه الذم - تأكيد الذم بما يشبه المدح - الإدماج -
التقسيم.

ب- المحسنات اللفظية:

ويكون القصد منها أولاً إلى تحسين اللفظ بالذات، وإن تبع ذلك تحسين المعنى.

علامة المحسنات اللفظية:

وعلمة المحسن اللفظي أنه لو غُيِّرَ اللفظ بمرادفه لتغير المحسن، فلو قيل في
﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ لو قيل: ويوم تقوم القيامة،
لذهب الجناس بخلاف المعنوي فلو غُيِّرَ اللفظ بمرادفه يبقى المحسن، فلو قيل في
(الضحك والبكاء) السرور والحزن لبقى الطباق.

أقسام المحسن اللفظي:

- ١- الجناس.
- ٢- السجع.
- ٣- رد العجز على الصدر.
- ٤- لزوم ما لا يلزم.

١٤- البلاغة:

هي: تأدية المعنى المنشود واضحاً جلياً مؤثراً في سامعيه، ملائماً للموقف الذي يقال فيه، وهي بإيجاز: حسن البيان وقوة التأثير.

أو هي: كل ما تبلغ به قلب السامع فتمكنه في نفسه كتمكنه في نفسه مع صورة مقبولة ومعرض حسن. أو هي: مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته.

البلاغة بناء على التعريفين السابقين من صفة الكلام لا من صفة المتكلم؛ ولذلك لا يصح ولا يجوز أن يسمى الله سبحانه بليغاً، إذ لا يصح أن يوصف بصفة موضوعها الكلام.

وبلاغة ثلاثة أقسام: علم المعاني، وعلم البيان، وعلم البديع.

١٥- البيان:

في اصطلاح البلاغيين: هو علم يعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه.

١٦- التشبيه:

هو مشاركة أمر لأمر في معنى مشترك بإحدى أدوات التشبيه لفظاً أو تقديرًا؛ لغرض يقصده المتكلم.

وهذا التعريف أقرب التعريفات لبيان التشبيه وتوضيحه؛ لوفائه بأركان التشبيه الأربعة وأغراضه، ولخلوه من بعض المطاعن التي وُجِّهَت للتعريفات الأخرى.

١٧- التشبيه الاصطلاحي:

يجب أن تتوفر في التشبيه الاصطلاحي عدة شروط حتى يطلق عليه تشبيهاً منها:

١- ذكر طرفي التشبيه المشبه والمشبه به على وجه ينبئ عن قصد التشبيه، وقد يحذف المشبه لفظاً ولكنه يلحظ تقديرأ، وهذا جائز.

٢- ألا يكون التناسب أو الشبه بين طرفي التشبيه تناسباً كلياً؛ لأنه لو ناسبه مناسبة كلية لكان إياه، والشيء لا يُشبه بنفسه.

٣- يكون الشبه بين الطرفين في جهة أو صفة أو أمر واحد أو جهات أو صفات أو أمور متعددة.

١٨- التشبيه غير الاصطلاحي:

هو ما لا يكون التعبير فيه نصاً في التشبيه وإنما تبنى العبارة على شيء آخر، وتطوي التشبيه وراء صياغتها التي تبرز غرضاً آخر يستتر التشبيه تحته، وهذا النوع من التشبيه ليس لصوره حدود يمكن أن يوقف عندها؛ لأن تصرفات الشعراء والأدباء والكتاب فيه غير محصورة.

١٩- التقديم والتأخير:

يقصد به إجمالاً تقديم ما حقه التأخير، وتأخير ما حقه التقديم، كتقديم الخبر على المبتدأ، وتقديم المفعول به على الفاعل وتقديم الفاعل على الفعل أو المفعول به على الفعل والفاعل معاً، وكذلك كله يكون لغرض بلاغي يقتضيه السياق.

٢٠- التورية:

وهي أن يُطلق لفظ له معنيان قريب وبعيد ويراد به البعيد منها.

٢١- الجناس:

هو تشابه كلمتين أو أكثر في اللفظ دون المعنى.

٢٢- الجناس التام:

هو ما يتفق فيه اللفظان في أربعة أشياء هي: أنواع الحروف وأعدادها وهيئاتها وترتيبها.

٢٣- الجناس غير التام:

هو ما اختلفت فيه الكلمتان في واحد من الأمور الأربعة في الجناس التام، أي في عدد الحروف أو نوعها أو ضبطها (شكلها وهيئتها)، أو ترتيبها.

٢٤- الطباق:

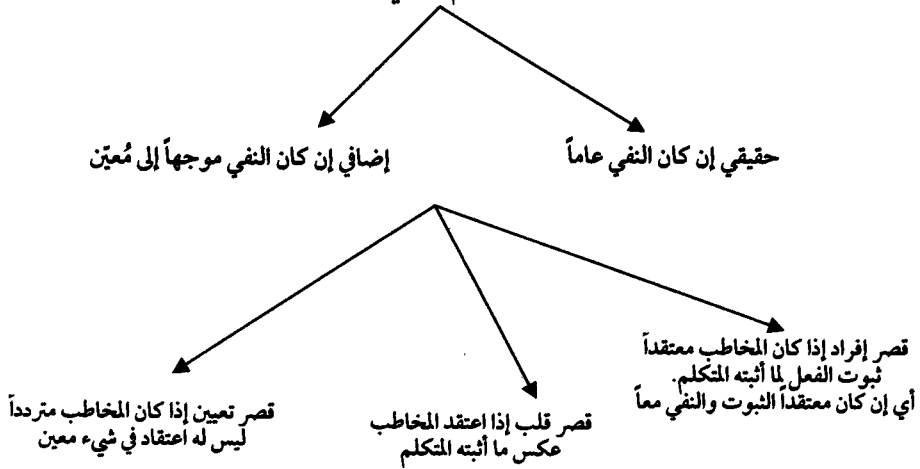
هو الجمع بين المعنيين المتقابلين، أو هو الجمع بين اللفظ وضده.

٢٥- القصر:

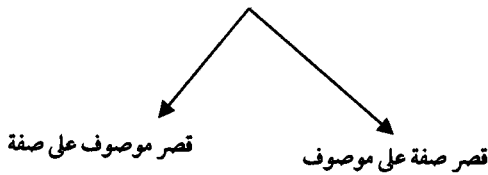
والقصر اصطلاحاً: هو تخصيص شيء بشيء بطريق مخصوص، والشيء الأول هو المقصور، والشيء الثاني هو المقصور عليه، وهما طَرَفَا القَصْرِ.

شجرة تقسيات القصر:

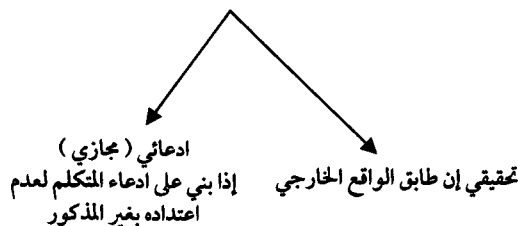
١- من جهة عموم النفي وخصوصه



٢- من حيث المقصور والمقصور عليه



٣- من حيث مطابقته للواقع أو بنائه على المبالغة



٢٦- الكناية:

لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادة معناه.

الفرق بين الكناية والمجاز: في الكناية يستقيم المعنى المباشر للفظ، أمّا في المجاز فلا يستقيم المدلول المباشر للعبارة إلّا على أساس من التجوز والتأويل.

أنواع الكناية:

تنقسم الكناية من حيث مدلولها إلى ثلاثة أنواع:

- كناية عن صفة - كناية عن موصوف - كناية عن نسبة.

٢٧- المجاز:

هو ما أفاد معنى غير مصطلح أو متعارف عليه في الوضع الذي وقع فيه التخاطب لعلاقة بين الأول والثاني، أو هو كل كلمة أريد بها غير ما وقعت له في وضع واضعها للملاحظة بين المعنى الأصلي والمعنى غير الأصلي.

٢٨- المجاز المُرسَل:

هو ما كانت العلاقة بين ما استعمل فيه اللفظ وما وضع له ملابسة - علاقة - غير التشبيه، كاليد إذا استعملت في النعمة.

ومن أشهر علاقات المجاز المُرسَل:

١- الجزئية: وهي تسمية الشيء باسم جزئه. أو أن يُطلق لفظ الجزء ويُقصد به الكل.

٢- الكُلية: أن يُطلق لفظ على الكل ويُراد به الجزء.

٣- السببية: هي أن يكون المعنى الحقيقي والمدلول الأصلي للفظ المذكور في التعبير سبباً في المعنى المجازي، فيطلق اسم السبب ويراد المسبب؛ لأن القرينة تصرف عن إرادة معناه الحقيقي.

٤- المُسَبِّبَةُ: هي أن يكون المعنى الأصلي للفظ مُسَبِّباً عن المعنى المقصود، فيطلق حينئذ اسم المسبب ويراد السبب؛ وهذا النوع من التعبير شائع في الاستعمال العربي.

٥- الحالية: وهي أن يُطلق اسم الحال ويراد المحل، فيكون المعنى الأصلي للفظ المذكور حالاً في المعنى المقصود

٦- المَحَلِّيَّة: وهي تسمية الحال باسم محله.

٧- الآلية: وهي أن يذكر اسم الآلة ويراد الأثر الناتج عنها.

٨- اعتبار ما كان: وهو أن يُسمَّى الشيء بالاسم الذي كان عليه أو الحالة التي كان عليها قبل وقت التكلم.

٩- اعتبار ما يكون: وهو تسمية الشيء باسم ما يؤول إليه مستقبلاً لغرض بلاغي يقصد إليه المتكلم بأسلوب المجاز.

١٠- المجاورة: وهي تسمية الشيء باسم ما يجاوره.

٢٩- المجاز العقلي:

هو إسناد الفعل أو ما في معناه إلى ملابس له غير ما هو له بتأويل.

أو هو الكلام المفاد به خلاف ما عند المتكلم من الحكم فيه لضرب من التأويل إفادة للخلاف لا بوساطة وضع.

أو هو المجاز الذي تستعمل فيه الألفاظ المفردة في موضوعها الأصلي، ويكون المجاز عن طريق الإسناد.

الفرق بين المجاز اللغوي والمجاز العقلي:

- ١- المجاز اللغوي يكون في الكلمة المفردة، والمجاز العقلي يكون في التركيب.
- ٢- الكلمة في المجاز اللغوي (التشبيه - الاستعارة) لا تُستعمل فيه الكلمة في موضوعها الأصلي، أمّا الكلمة في المجاز العقلي فالكلمة فيه تستعمل في موضوعها الأصلي.

علاقات المجاز العقلي:

- للمجاز العقلي علاقات (ملايسات) كثيرة منها:
- المفعولية: أي إسناد المبني للفاعل إلى مفعوله.
- الفاعلية: إسناد المبني للمفعول إلى فاعله.
- المصدرية: أي إسناد المبني للفاعل إلى المصدر.
- الزمانية: أي إسناد المبني للفاعل إلى الزمان.
- ويدل الإسناد إلى الزمان على المبالغة في وقوع الأفعال، وكأن الزمان يُشارك في صنعها وإحداثها.
- المكانية: أي إسناد المبني للفاعل إلى المكان.
- السببية: أي إسناد المبني للفاعل إلى السبب.
- الإسناد إلى الجنس، والفاعل على الحقيقة أحد أفراد.
- الإسناد إلى الجارحة.
- الإسناد إلى ماله مزيد اختصاص وقُرب بالفاعل الحقيقي.

٣٠- مراعاة النظر (التناسب):

هي من المحسنات المعنوية وتُسمى أيضاً: الائتلاف والتوفيق، وهي: أن يجمع في الكلام بين أمر وما يناسبه لا بالتضاد وقد قيد بذلك ليخرج الطباق؛ لأن المناسبة فيه بالتضاد.

٣١- المزوجة:

هي أن يُزَاجَ بين معنيين في الشرط والجزاء.

٣٢- المسند:

هو المحكوم به أو المُخْبَر به.

٣٣- المسند إليه:

هو المحكوم عليه أو المُخْبَر عنه.

٣٤- المشاكلة:

هي ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته تحقيقاً أو تقديرًا. وهي من المحسنات المعنوية.

٣٥- المقابلة:

أن يؤتى بمعنيين أو معان متوافقة ثم بما يقابلها على الترتيب.
أو أن يجمع بين شيئين متوافقين أو أكثر وضديهما، ثم إذا شرطت شرطاً شرطت هناك ضده.

٣٦- النهي:

هو طلب الكفّ عن الفعل على وجه الاستعلاء والإلزام، وهو أحد أقسام الإنشاء الطلبي.

صَيَغَ النهي: للنهي صيغة واحدة هي: المضارع المقترن بـ(لا) الناهية الجازمة.

معاني النهي المجازية: قد تخرج هذه الصيغة إلى معانٍ مجازية كثيرة منها:

الدعاء - الالتماس - التمني - النصح - التوبيخ - التحقير - التئيس.

٣٧- الحذف:

هو ضرب من الإيجاز، وهو ضربان: ضرب يظهر عند الإعراب كقولهم (أهلاً وسهلاً) فإن النصب يدل على ناصب محذوف، وضرب لا يظهر بالإعراب، وإنما يعلم مكانه تصفح المعنى وتوقفه عليه، كقولك (فلن يعطي ويمنع) أي كل أحد، وهذا إذا قصد من الحذف التعميم.

٣٨- الوصل والفصل:

الوصل: هو العطف بالواو لجملة على أخرى لا محل لها من الإعراب.

الفصل: هو ترك العطف بالواو لجملة على أخرى لا محل لها من الإعراب، فلا يأتيان في المفردات ولا في الجمل التي لها محل من الإعراب ولا في العطف بغير الواو من حروف العطف، وهو مذهب عبد القاهر وكثير من المتقدمين، ومذهب السكاكي وكثير من المتأخرين إلى أنهما يجريان في ذلك كله، والحق مذهب عبد القاهر ومن تبعه.

ويجب الفصل في خمسة مواضع هي:

١- كمال الاتصال:

الأول: أن يكون بين الجملتين اتحاد تام وهو «كمال الاتصال» وذلك أن تكون الجملة الثانية تأكيداً على الأولى، والمقتضي للتأكيد دفع وهم التجوز والغلط.

وهو قسبان:

أحدهما: أن تنزل الثانية من الأولى منزلة التأكيد المعنوي من متبوعه في اتحاد المعنى.

وثانيهما: أن تنزل الثانية من الأولى منزلة التأكيد اللفظي من متبوعه في اتحاد المعنى، أو أن تكون الجملة الثانية بدلاً من الأولى.

وهو ضربان:

أحدهما: أن تنزل الثانية من الأولى منزلة بدل البعض من متبوعه.

وثانيهما: أن تنزل الثانية من الأولى منزلة بدل الكل من متبوعه.

٢- كمال الانقطاع:

الثاني: أن يكون بين الجملتين كمال الانقطاع، وذلك أن تختلف الجملتان خبراً وإنشاءً لفظاً ومعنى لا لفظاً، أو أن لا يكون بين الجملتين جامع أو مناسبة بل تكون كل جملة مستقلة بنفسها.

٣- شبه كمال الاتصال:

الثالث: أن تكون الجملة الثانية جواباً عن سؤال يفهم من الجملة الأولى فتنزل منزلته، ويسمى هذا «شبه كمال اتصال» أو «الاستئناف». والاستئناف ثلاثة أضرب؛ لأن السؤال الذي تضمنته الجملة الأولى إما عن سبب الحكم فيها مطلقاً أو عن سبب خاص له أو عن غير هذين النوعين.

٤- شبه كمال الانقطاع:

الرابع: أن يكون بين الجملتين «شبه كمال الانقطاع» وذلك بأن تكون الجملة الثانية بمنزلة المنقطعة عن الأولى، وينبغي هنا الفصل؛ لأن عطفها عليها موهم لعطفها على غيرها، ويسمى هذا الفصل قطعاً.

٥- التوسط بين الكمالين:

الخامس: أن تكون الجملتان متوسطتين بين كمال الاتصال وكمال الانقطاع مع قيام المانع من الوصل كأن يكون للأولى حكم لم يقصد إعطاؤه للثانية.

ويجب الوصل في ثلاث حالات:

الأولى: أن يكون بين الجملتين كمال الانقطاع مع الإيهام، وذلك بأن تكون إحداها خبرية والأخرى إنشائية ولو فصلت لأوهم الفصل خلاف المقصود.

الثانية: أن تكون الجملتان متفقتين خبراً وإنشاءً لفظاً ومعنى، أو أن تكونا متفقتين خبراً وإنشاءً معنى لا لفظاً.

الثالثة: أن يكون للجملة الأولى محل من الإعراب وقصد إشرارك الجملة الثانية لها في الحكم الإعرابي، وهذا كعطف المفرد على المفرد؛ لأن الجملة لا يكون لها محل إعراب حتى تكون واقعة موقع المفرد.

٣٩- الاحتباك:

أحد أقسام الحذف، ومن أنواع البديع، وهو: أن يجتمع في الكلام متقابلان فيحذف من واحد منهما مقابله لدلالة الآخر عليه. أو هو: أن يحذف من الأول ما أثبت نظيره في الثاني، وفي الثاني ما أثبت نظيره في الأول.

٤٠- الاحتجاج النظري (المذهب الكلامي):

هو المحسنات المعنوية، وتعريفه عند المتأخرين هو: إيراد حجة للمطلوب على طريقة أهل الكلام، وذلك أن يكون بعد تسليم المقدمات مقدمة مستلزمة للمطلوب أو هو أن يورد المتكلم حجة لما يدعيه على طريقة أهل الكلام.

٤١- الإدماج:

هو أن يدمج المتكلم غرضاً له في ضمن معنى قد نحاه من جملة المعاني ليوهم السامع أنه لم يقصده، وإنما عرض في كلامه لتتمة معناه الذي قصد إليه.

٤٢- الأسلوب الحكيم:

هو تلقي المخاطب بغير ما يترقب بحمل كلامه على خلاف مراده تنبيهاً على أنه الأولى بالقصد، أو السائل بغير ما يتطلب بتنزيل سؤاله منزلة غيره تنبيهاً على أنه الأولى بحاله أو المهم له.

٤٣- تجاهل العارف:

هو إخراج ما يعرف صحته مخرج ما يشك فيه ليزيد بذلك تأكيداً. أو هو سوق المعلوم مساق غيره لغرض كالتوبيخ والمبالغة والتحقير والتعريض.

٤٤- الطي والنشر (اللف والنشر):

هو ذكر متعدد على جهة التفصيل أو الإجمال ثم ذكر ما لكل واحد من غير تعيين ثقة بأن السامع يردده إليه.

٤٥- الاستبعاد:

من المعاني المجازية لحرف التراخي (ثم)، ويعد الزمخشري أول من افتض عذرة معانيها المجازية، ومفهومه: هو التباعد بين أمرين يمتنع ترتب ثانيهما على أولهما، أي أن ما بعد (ثم) أمر مستبعد الوقوع بالنسبة لما قبله، أو بعبارة أخرى: إذا كان ما قبل (ثم) من الأحداث والأفعال مهياً لعدم حدوث ما بعدها.

٤٦- التراخي:

(ثم) حرف يدل على التراخي، وهو أن يكون بين المتعاطفين مهلة من الزمن.

٤٧- التراخي الرتبي:

هذا من المعاني المجازية لحرف التراخي (ثمَّ) ومعناه: التفاوت بين المتعاطفين في المنزلة فيجعل المعطوف أرفع رتبة من المعطوف عليه، وليس بينهما من التناقض ما في الاستبعاد، أي أن المراد أن الأمرين من جنس واحد، ولكن ما بعد (ثمَّ) أعلى مرتبة في هذا الجنس، وأبلغ مما قبلها، فليس بين الأمرين منافاة كما في الاستبعاد، وإنما بينهما تفاوت، وهما من جنس واحد.

٤٨- الإلهاب والتهيج:

هما مقولان على كل كلام دال على الحث على الفعل لمن لا يتصور منه تركه، وعلى ترك الفعل لمن لا يتصور منه فعله، ولكن يكون صدور الأمر والنهي ممن هذه حاله على جهة الإلهاب والتهيج له على الفعل أو الكف عنه إلى غيره.

٤٩- المثل:

أصله حكمة شاعت وانتشرت ودارت على الألسنة فصارت مثلاً لدورانها، وهو فن من الفنون الثرية التي عرفها العرب قبل الإسلام وبعده، وقد بقيت الأمثال بصورتها الأصلية بحكم إيجازها، وكثرة دورانها على ألسنة الناس. وهي سجل تاريخي لما تحمله من قصص وحكايات، تعكس صورة الماضي لأخذ العبر والاستفادة منها. والأمثال هي خلاصة وثمرات الناس وتجاربهم، بها تنطق ألسنتهم، فتصف أحوالهم الفكرية والاجتماعية والأدبية والثقافية والتاريخية والوطنية والأخلاقية، وتترجم واقعهم وآمالهم وآلامهم، في عبارات بليغة موجزة، تعبر في أبلغ بيان عن واقعهم وحياتهم. والأمثال حكايات لا تغير؛ لأن ذكرها على تقدير أن يقال في الواقعة المعينة: إنها بمنزلة

من قيل له هذا القول. ويجتمع في المثل ثلاث خصائص إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه. وأخيراً فالمثل يرتبط بالتشبيه والاستعارة.

٥٠- مقتضى الظاهر:

وهو أن يكون الكلام مطابقاً للواقع، أو أن تؤدي الجملة والعبارات المعنى الذي تحمله الألفاظ، أي ليس فيها تأويل وتوجيه غير ما تدل عليه الكلمات أو الكلام في الظاهر. وقد يخرج الكلام عن ذلك فيقال: إنه خرج على مقتضى الظاهر، ومن ذلك الالتفات والقلب والأسلوب الحكيم وغيرها.

٥١- مجازاة الخصم:

هو أن يسلم المتكلم لبعض مقدمات خصمه حيث يراد تبكيته وإلزامه.

٥٢- التغليب:

حقيقته: إعطاء الشيء حكم غيره، وقيل: ترجيح أحد المغلوبين على الآخر أو إطلاق لفظه عليهما إجراء للمختلفين مجرى المتفقين. ويكثر التغليب بالتشبيه، ومن ذلك: أبوان (من الأب والأم)، الخافقان (للمشرق والمغرب)، العمران (لأبي بكر وعمر).

وجميع باب التغليب من المجاز، لأن اللفظ لم يستعمل فيما وضع له.



فهرس الآيات القرآنية

رقم الآية	رقم الصفحة	الآيات
البقرة		
٤٩	٧٤	﴿وَإِذْ يَخْتَصِمَنَّكُمْ مِنْ آدَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ...﴾
٤٩-٥٠	٧٧	﴿وَإِذْ يَخْتَصِمَنَّكُمْ مِنْ آدَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ... وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾
٥١-٥٢	٧٥	﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً... لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾
٥٥-٥٧	٧٥	﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمْوِسُ... وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾
٦٠	٥٥	﴿فَقُلْنَا أَهْلِبِ أَيْمَانَكَ الْعَصَا فَانفَجَرَتْ﴾
٧١	١٢٧	﴿فَذَرْنَاهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾
١٢٤	٢١٦	﴿وَإِذْ أَنْشَأَ إِبْرَاهِيمَ رَفْعَهُ بِكَلِمَاتٍ طَائِفَهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا...﴾
١٢٦	٢٠٠، ١٩٩	﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ يَأْتِهِ وَاللَّهُ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ...﴾
٢١٤	٧٢	﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ...﴾
٢٣٨	٨٠	﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ﴾
٢٥٤	١٨٤	﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ﴾

رقم الآية	الآيات	رقم الصفحة
-----------	--------	------------

آل عمران

١٣٤، ١٣١	١١٧	﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ...﴾
٩٣	١١٩	﴿عَصُوا عَلَيْكُمْ الْأَنْبَاءَ مِنَ الْقَبْطِ قُلْ مُوتُوا يَعْنِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾
٢٧	١٢٨	﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾
٥٩	١٤٠	﴿وَذَلِكَ الْآيَاتُ نَدَاؤُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾
٦٢	١٥٩	﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَنْ تُكَلِّمَهُ﴾
٧٢	١٨٦	﴿تَتَّبَلُّوكَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ...﴾

النساء

١٥٣	٧٦	﴿إِنْ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾
٢٢	١٠٥	﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ بِالْحَقِّ لَتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾
١٠٢	١١٦	﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾
٢٢١	١٣٦	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾
١٠٢	١٤٧	﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾

المائدة

٤٩	٣١	﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِثُ سَوْءَ أَخِيهِ﴾
٢٢	٤٩	﴿وَأَنْ أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾

رقم الآية	رقم الصفحة	الآية
٤٩	٣٦	﴿وَالْمَوَدَّيْنِ مَعَهُمْ آتِهَا﴾
١١٤	٥٥	﴿وَالسَّيِّدِ سَبِيلَ الشَّرِّ مِنْ﴾
١٤٥	١٤٨	﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَفْرَكُوا لَوْلَا اللَّهُ مَا أَفْرَكْنَا وَلَا مَا بَاءَ لَنَا﴾
٣٥	٣٤	﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ...﴾
١١٠-١٣٩	٣٩-٣٨	﴿قَالَ أَتَدْعُونِي إِلَى أَسْمٍ مَدْعُوتٍ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنْ الْجِنِّ وَالإِنْسِ فِي الْأَنْدَادِ...﴾
١٤١		﴿فَدَعُوا الْمُذَلَّاتِ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾
١٤١	٥٠	﴿وَلَدَعَى الْفِتْنَةِ الْقَارِ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَفْعُسَاءَ عَلَى كَايَةِ الْمَوْتِ أَوْ يَتَنَا﴾
		﴿رَكَعَكُمْ اللَّهُ...﴾
١٣٢	٥٧	﴿وَقَوْمُ الْوَيْلِ يَرْجِلُ الْبَرَّحِ أَفْرَكًا يَتَكَبَّرُ بِدَعْوِهِمْ وَهُمْ فِي﴾
٩٢	٦٩	﴿وَأَذْهَبُوا إِلَى حِمْلِكُمْ خَلْفَهُ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ رُوحٍ وَذَكَرَكُمْ فِي الْخَلْقِ﴾
		﴿بَشَلَةٍ...﴾
١٢٤	٧٠	﴿وَأَيُّهَا بَرَاءُ مَا إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾
٩٢	٧٤	﴿وَأَذْهَبُوا إِلَى حِمْلِكُمْ خَلْفَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَاكِرٍ وَوَالِصْطَنِي الْأَرْضِ﴾
		﴿فَلْيَجِدُوا مِنْ شُهُولِهَا أَصْوَارًا وَتَجِدُوا الْجِبَالَ مِثْقَالَ﴾
١٢٣	٨٩	﴿وَرَبَّنَا أَفْرِغْ مِنَّا وَرَبَّنَا قَوْمًا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَسِيلِينَ﴾
٧٦	١٢٩	﴿قَالُوا أَلَمْ يَكُنْ مِنْ قَبْلِي أَنْ قُلْنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جَعَلْنَا...﴾
٥٩	١٣٠	﴿وَلَقَدْ لُمْنَا مَا لَمْ يَرْغَبُوا وَالسَّيِّئِينَ﴾
٥٩	١٣٨	﴿وَلَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ لَأَلَّيْنَاكُمْ كَمَا لَمْ يَلْمِ﴾

رقم الآية	رقم الصفحة	الآيات
١٤١	٧٤	﴿وَإِذْ أَخْبَرْنَاكَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكَ سُوءَ الْعَذَابِ...﴾
١٤٦	٣٨	﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾
١٥٨	٤٢	﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾
١٦٨	٧١	﴿وَبَلَّوْنَهُمْ بِالْمُسْتَسْنَتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾
		الأنفال
١٩	١٢٣	﴿إِنْ تَسْتَفِيدُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾
٢٤	١٣٨	﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾
٣٨	١٠٢	﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾
		التوبة
٧٠	٩١	﴿أَلَمْ يَأْتِيَهُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَةَ...﴾
١١٢	٦٥	﴿الشَّيْبُونَ الْمَكِيدُونَ الْخَائِدُونَ السَّاعِيُونَ...﴾
١١٤	٢١٨	﴿وَمَا كَانَتْ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ...﴾
		يونس
١٠	١٦٠	﴿وَنَجَّيْنَاهُمْ فِيهَا سَلَامًا﴾
		هود
٦٢: هود	٩٧	﴿قَالُوا يَنْصَلِحْ فَذَكَّرْنَا فِيمَا مَرَجُوا قَبْلَ هَذَا...﴾

رقم الآية	رقم الصفحة	الآيات
٧٢	٢١٢	﴿قَالَتْ يَنْتَقِمْ إِلَيَّ وَآنَا عَابِدُونَ وَهَذَا بَعْلٌ شَيْعًا﴾
٩٨	١٧٢	﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْدَحَهُمُ الشَّارَ﴾
١١٠	٩٦	﴿وَرَأَيْتُمْ لَيْلَىٰ شَاكٍ يَنْتَهُ مُرِيْبٌ﴾
		يوسف
٤٩	٦٠	﴿ثُمَّ بَأْسَىٰ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ﴾
١١٨	٣٨	﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي﴾
		الرعد
١	٢٠	﴿الْمَرْءُ يَلَاقِ الْكَثِيبَ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ﴾
١٦	٢٤	﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾
٢٣-٢٤	١٦٠	﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْهِمْ﴾
٢٧	٢٥	﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِم مِّنْ آفَافٍ﴾
٣٢	١٩	﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمَلْنَا لِلَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمْ أَخَذَتْهُمُ﴾
٤٣	١٩	﴿وَمَنْ عِنْدَ عَلَمٍ الْكِتَابِ﴾
٤٣	٢٠، ١٩	﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾
		يَبْقَىٰ وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَ عَلَمٍ الْكِتَابِ﴾
		إبراهيم
١	٢١، ٢٠، ١٧	﴿الرَّكَعَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَىٰ﴾
٣١، ٤٢، ١٩٧		النُّورِ﴾
٢-٣	٤١، ٣٤، ٣١	﴿اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ... أُولَئِكَ فِي سَلَاطٍ بَعِيدٍ﴾

رقم الآية	الآيات	رقم الصفحة
٤	﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ...﴾	٥٤، ٥٣، ٤٢ ٥٧، ٥٥
٦	﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ...﴾	٧٤
٦-٥	﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ... وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ ﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رَجُبُكُمْ لِمَنْ شَكَرْتُمْ لَا زَيْدٌ لَكُمْ... فَإِنَّ اللَّهَ	٦٢، ٥٧، ٥٦ ٧٢، ٦٦، ٦٣
٨-٧	لَعَنُ حَيْدٌ﴾ ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ...﴾	٨٦، ٨٥، ٨١
٩	﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَأطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾	٩٤، ٨٨، ١٩
١٠	﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ	١٠٠، ٩٨ ١٠٣، ١٠٢
١١	يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ...﴾ ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا تَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا... ذَٰلِكَ لِمَنْ	١٠٦، ١٠٥ ١١١، ١١٠
١٢-١٤	خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ ﴿وَلَنَسْكَنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ... وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ	١١٧، ١١٣ ١١٩
١٤-١٧	غَلِيظٌ﴾ ﴿مِثْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَلُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي	١٢٢، ١٢١ ١٢٥، ١٢٤
١٨-٢٠	يَوْمٍ عَاصِفٍ... وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ ﴿وَيَرْزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّمَعَتِيُّ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ	١٣٤، ١٢٩ ١٣٥
٢١	تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَوُونَ عَنَّْا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ...﴾	١٤٠، ١٣٦ ١٤١

رقم الآية	الآيات	رقم الصفحة
٢٢	﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ... ﴾	١٤٦
٢٦-٢٢	﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ... مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴾	١٥٩، ١٥٥ ١٦١، ١٦٠ ١٦٦، ١٦٥
٣٠-٢٧	﴿ يَتَّبِعُ اللَّهُ الْآيَةَ مَا سَأَلُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ... فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴾	١٦٨، ١٦٧ ١٩٧
٢٨	﴿ أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قُلُوبَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴾	١٩٧
٣٠	﴿ وَجَعَلُوا قُلُوبَهُمْ قَدَاحًا يُصَلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ ﴾	١٩٧
٣١	﴿ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَرُمْقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ... ﴾	١٧٩، ١٧٨
٣٣-٣٢	﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ ... وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾	١٨٦، ١٨٥
٣٧-٣٤	﴿ وَءَاتَيْنَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعْدُوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصَوْهَا ... وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾	١٩٢، ١٨٧ ٢٠٣
٣٩-٣٨	﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا تُخْفِي وَمَا تُخْلِي ... إِنَّ رَحْمَتَ رَبِّكَ أَوْسَعُ الْبُحْرِ ﴾	٢١٠، ٢٠٨ ٢١٢
٤٤-٤٠	﴿ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ... أَوْلَمْ تَكُونُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ ﴾	٢١٧، ٢١٥ ٢٣٠، ٢٢٠ ٢٣٨
٥٠-٤٩	﴿ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّبِينَ فِي الْأَصْفَادِ * سَرَابِلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَشْهَى وُجُوهُهُمْ النَّارَ ﴾	٢٣٦

رقم الآية	رقم الصفحة	الآيات
٥١	٢٣٨	﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾
٤٥-٥٢	٢٣١، ٢٢٨	﴿وَسَكَنْتُمْ فِي مَسْكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ ... وَلِيَذَّكَّرُوا لِلْأَنْبِيَاءِ﴾
٥٢	٢٣٨	﴿هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوا بِهِمْ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّ هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرُوا أُولُوا الْأَنْبِيَاءِ﴾
		الحجر
٦	٩٥	﴿وَقَالُوا يَأْتِيُنَا الَّذِي نُنْزِلُ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾
٩	٤٥	﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَنَافِعُونَ﴾
٢٢	١٣٢	﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾
٤٢	١٥٣	﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾
		النحل
١	١٤١	﴿أَنِّي أَمَرُ اللَّهَ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾
٢	٢٢	﴿يُنْزِلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾
١٨	١٩٧، ١٩٤	﴿وَلَا تَعْدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُخْصَوْهَا﴾
٣٥	١٤٥	﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَنَحْنُ وَلَا آبَاءُؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾
٣٦	٤٩	﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾
٤٤	٢٢	﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾

رقم الآية	رقم الصفحة	الآيات
٨٩	٤٩	﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾
١٢٠-١٢١	٦٤	﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِنًا يَتَّبِعُ حَنِيفًا ... وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾
١٢٥	١١٤	﴿ أَذْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالنَّوْعِطَةِ الْحَسَنَةِ ... ﴾
		الإسراء
١٨	١٩٣	﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ﴾
٦٩	١٣١	﴿ أَمْ أَمْسَتْ أَنْ يَبْيَعِدَكُمْ فِيهِ نَارُ آخَرَىٰ فَأَرْسِلْ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيَمْحَقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ﴾
		الكهف
١	٢٢	﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ ﴾
٢٩	١٢٨	﴿ وَلِكِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ﴾
٢٩	١٣٨	﴿ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُزِمْنِ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ ﴾
٧٩	١٢٥	﴿ وَكَانَ وَرَاءَهُ مُمْلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ مَفِيضٍ عَصَبًا ﴾
		مريم
٤٨	٢١٧	﴿ وَاعْتَرَلَكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾
٩٧	٥٣	﴿ فَإِنَّمَا يَسْتَرْثِي بِلِسَانِكَ ﴾
		طه
٢٧-٢٨	٥٢	﴿ وَأَخْلَلْ عَقْدَةً مِنْ لِسَانِي بِقَهْقَرَاهُ أَقُولُ ﴾
٤٣-٤٤	٦١، ٥٨	﴿ أَذْهَبًا إِلَىٰ مَرْغُوبٍ إِنَّهُ طَلِقٌ • فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْسَ أَعْلَمُ بِتَذَكُّرٍ أَوْ نَعْيٍ ﴾
		الأنبياء
٣٥	٦٦	﴿ وَتَبْلُوكُمْ بِالنَّارِ وَالْخَبَرِ فَشَنَّةٌ ﴾

الآيات رقم الآية رقم الصفحة

الحج

٢٩	٢٣	﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ... وَلِيَأْسُئَهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾
١٦٦، ٢٩، ٢٧	٢٤	﴿ وَهْدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهْدُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾
١٣٢	٣١	﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ... ﴾
٥١	٥٢	﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى ﴾
٣٨	٦٠	﴿ ثُمَّ يُغِي عَلَيْهِ لِيَنْصُرَّهُ اللَّهُ ﴾

النور

١٢٧	٤٠	﴿ إِذَا أَخْرَجَ بِكَدِّهِ لَوَ كَدِيرٌ بِهَا ﴾
-----	----	---

الفرقان

١٠٨	٧	﴿ وَقَالُوا مَا لَ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ﴾
١٣٤	٢٣	﴿ وَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ أَخْرَجَهُمْ مِنَ ظُلُمٍ إِلَى نُورٍ بِإِذْنِ اللَّهِ فَهُمْ سَابِقُونَ ﴾
٧٩	٦٩-٦٨	﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ * ﴾

الشعراء

٦٩	١٩-١٨	﴿ قَالَ أَلَمْ تُؤْتِكُمْ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ... ﴾
٥٣	٨٤	﴿ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴾
١٢٤	١٨٧	﴿ فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾
٢٢	١٩٤-١٩٣	﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ ﴾

رقم الآية	رقم الصفحة	الآيات
١٩٥	٥٣	﴿يَلَسَانِ عَرِيقَيْنِ﴾
٢١٣	٢٢١	﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾
النمل		
٦٣	١٣٢	﴿وَمِنْ رُسُلِ الرَّبِّ نَحْنُ بِرَبِّكَ بِدْعَى رَحْمَةٍ﴾
القصص		
٨	١٧٥	﴿وَالْقَلْبُ مَاءٌ أَلْزَمَكَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوٌّ وَخَزَنَةٌ﴾
١٠	٢٢٦	﴿وَأَصْبَحَ قَوْمٌ أَرْمُومٌ فَوَقَا﴾
٣٤	٥٢	﴿وَأَخِي هَمْرُوتُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسًا فَأَرْسَلَهُ مِنِّي رَدًّا يَصْلِي فَوْقَ﴾
٥٦	٢٧، ٢٤	﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾
٧٤	١٨٦	﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْلُغُوا مِنْ قَضَائِهِ﴾
وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ		
٧٦	٣٨	﴿إِنْ قُلْتُمْ كَذَٰبٌ مِنْ قَوْمٍ مُؤْمِنٍ فَبَقِيَ عَلَيْهِمْ﴾
٧٨-٧٦	٨٥	﴿إِنْ قُلْتُمْ كَذَٰبٌ مِنْ قَوْمٍ مُؤْمِنٍ فَبَقِيَ عَلَيْهِمْ... وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمْ﴾
الْمُجْرِمُونَ		
٨٧	٢٢١	﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمَشْرِكِينَ﴾
العنكبوت		
٣-١	٧٢	﴿إِنَّ أَحْسَبَ النَّاسِ أَنْ يُنْزَلُوا أَنْ يَقُولُوا إِنَّا نَكْفُرُ... وَلَيَعْلَمَنَّ﴾
الْكَلْبِيِّينَ		
٥٣	١٢٢	﴿وَيَسْتَعْمِلُونَكَ بِالْعَدَابِ﴾

رقم الآية	الآيات	رقم الصفحة
الروم		
٢٢	﴿وَإِخْلَافُ إِلَيْنِكُمْ وَالْوَيْكَرُ﴾	٥٣
٤٦	﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾	١٣٢
٥١	﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾	١٣٢
لقمان		
٢٥	﴿وَلَقَدْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾	٢٢٠، ١٨٨
٣١	﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ﴾	١٩١
السجدة		
١٣	﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى﴾	٢٧
الأحزاب		
٩	﴿إِذْ جَاءَ نَكْمٌ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾	١٣٢
٣٦	﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ...﴾	١٣٩
٤٣	﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾	٢٤
٦٦	﴿يَوْمَ تَقُفُّ أَرْجُلُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَّا اطعنا الله﴾	١٤٠
٦٧-٦٨	﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ * رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ دُحَانًا﴾	١٣٩، ١٤٠
٧٠-٧١	﴿ضَعُفَيْنَ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَتُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾	١٤٢
٧١-٧٠	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾	١٠٠

رقم الآية	رقم الصفحة	الآيات
بـ		
٦	٢٧	﴿وَبَرَى الَّذِينَ أَوْثَرُوا الْعِلْمَ الَّذِينَ أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَيُّ﴾
١٣	٦٤	﴿وَقِيلَ لِمَنْ عِبَادِي الشُّكُورُ﴾
٢٨	٤٨، ٤٤، ٤٢	﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِنَاسٍ نَشِيرًا وَكَذِيبًا﴾
٣٣-٣١	١٣٩	﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ... هَلْ يُخْشَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾
٣٤	٤٨	﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قُرْآنٍ مِنْ تَنْذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَذِبُونَ﴾
٥٤	٩٦	﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ﴾
فاطر		
٩	١٣٢	﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُبِيرُ سَحَابًا﴾
١٣	١٨٦	﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْعَزُ لِحَالٍ مُتَمَرٍّ﴾
١٩-٢٢	٢٤	﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ... وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾
يس		
٣٩	١١٨	﴿حَتَّىٰ عَادَ الْعَصْرُ إِنَّ الْفُلَيْدِيَّ﴾
٥٨	١٦٠	﴿مَسَلَّمَ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾
ص		
٦	٥٨	﴿وَأَنطَلَقَ السَّلَاسِلُ مِنْهُمْ أَنْ أَمْسُوا﴾

رقم الآية	الآيات	رقم الصفحة
-----------	--------	------------

الزمر

٢٢	٢	﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾
٣٩	٢٨	﴿قُرْءَانًا غَرِيْبًا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾
٢٢	٤١	﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ﴾

غافر

٤٩	٢٣	﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾
٦٨	٤٦-٤٥	﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ... أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾
١٤٠، ١٣٩	٤٨-٤٧	﴿وَإِذْ يَتَحَفَّظُ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا... إِنَّكَ اللَّهُ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾

فصلت

٤٣	٤٤	﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا فَجَعَلْنَا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾
----	----	--

الشورى

٩٦	١٤	﴿وَلِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَنْ يَشْكِيَ مِنْهُ مَرْبٍ﴾
١٣٢	٣٣	﴿إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلِلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ﴾
٣٨	٤٢	﴿إِنَّمَا السَّيْلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ﴾
٢٧	٤٨	﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾

الزخرف

٤٨	٢٣	﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ﴾
١٨٣	٦٧	﴿الْأَخْلَاءَ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾

رقم الآية	رقم الصفحة	الآيات
الأحقاف		
٢٤	١٣٢	﴿بَلْ هُمْ مَا اسْتَمَعْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾
٣١	١٠٠	﴿يَقُومُوا لِيُسْأَلُوا عَنْ اللَّهِ وَرَأْسُكُمْ يُدْخِلُكُمْ فِيهِ فَمِنْ دُونِكُمْ﴾
محمد		
٤	٧٢	﴿وَلَوْ فَتَنَّا أُمَّةَ لَانفَرْنَا مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِنَبْلُو أَتَعْتَمِدُ عَلَى بِرِّهِمْ﴾
١٥	١٢٨	﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْلَاءَهُمْ﴾
الفتح		
٨	٤٨	﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾
الحجرات		
٩	٣٨	﴿إِن يَنْفَتِ إِحْدَهُمَا عَلَى الْآخَرِ فَقِيلُوا أَتَيْنَا النَّبِيَّ﴾
١١	٥٣	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ...﴾
قي		
٩	١٤٨	﴿وَحَبَّ الْمُسِيدِ﴾
القمر		
٨	٢٢٣	﴿سَهْلَ طِينٍ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ خَيْرٌ﴾
الواقعة		
٨٢	١٧١	﴿وَيَحْمِلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تَكَذِّبُونَ﴾
الحديد		
١٠	١٠١	﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُقِيمُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَقَدْ بَرَأْنَا النَّبَاتِ وَالْأَرْضَ...﴾

رقم الآية	رقم الصفحة	الآيات
الصف		
٣٩	٩-٨	﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَقْوَامِهِمْ وَاللَّهُ مُبِينٌ نُورِهِ... وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾
١٠١	١٢-١٠	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَذْكَرُ عَلَيْكُمْ فَجْرَةً شَجِيحًا مِنْ عَذَابِ الْإِيمِ... يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾
الجمعة		
٤٩	٢	﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾
١٨٤	١١	﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْجَةً أَوَّلَوْا بِهَا وَنَكَرُوا بِهَا...﴾
الطلاق		
١٨٨	١٢	﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾
الملك		
٢١٠	١٤	﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾
نوح		
٤٨	١	﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾
١٠٠	٤	﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾
البلد		
١٥٢	١٠	﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾
الشمس		
١٢٤	١٠	﴿وَقَدْ خَابَ مِنْ دَسَّهَا﴾

فهرس الأحاديث

الصفحة	الحديث
٣٥	١ - عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة، فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليغرسها».
٥٠	٢ - حديث ابن عباس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «عرضت علي الأمم - فرأيت النبي ومعه الرهيط، والنبي ومعه الرجل والرجلان. والنبي ليس معه أحد، إذ رفع لي سواد عظيم، فظننت أنهم أمتي، فقليل لي: هذا موسى - عليه السلام - وقومه، ولكن انظر إلى الأفق، فنظرت، فإذا سواد عظيم. فقليل لي: انظر إلى الأفق الآخر فإذا سواد عظيم، فقليل لي: هذه أمتك ومعهم سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب».
٨٧	٣ - قال تعالى في الحديث القدسي: «يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل واحد مسأله ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر».
٩٦	٤ - عن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «دع ما يربيك إلى ما لا يربيك».
١٢٧-١٢٨	٥ - حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ مِنْ قَائِهِمْ سَبِيلَهُ﴾ قال: يقرب إلى فيه فيكرهه، فإذا أدنى منه شوى وجهه

الصفحة

الحديث

ووقعت فروة رأسه، فإذا شربه قطع أمعاءه حتى تخرج من دبره. يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَ هَٰؤُلَاءِ﴾ ويقول: ﴿وَلَنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾.

٦ - عن ابن عمر أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَةً لَا يَسْقُطُ وَرَقُهَا، وَإِنَّمَا مِثْلُ الْمُؤْمِنِ، فَحَدِّثُونِي مَا هِيَ؟» قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: «فَوَقَعَ النَّاسُ فِي شَجَرِ الْبَوَادِي، وَوَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا النَّخْلَةُ، فَاسْتَحْيَيْتُ، ثُمَّ قَالُوا: حَدِّثْنَا مَا هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: هِيَ النَّخْلَةُ».

١٦٤

٢١٧

٧ - قول النبي ﷺ: «الدعاء مُنْجُ الْعِبَادَةِ».

٨ - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لَنْ يَدْخُلَ أَحَدُكُمْ الْجَنَّةَ بِعَمَلِهِ» قِيلَ: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ» حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَنْ يَدْخُلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الْجَنَّةَ». قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «لَا، وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ».

٢١٨



فهرس القراءات

الصفحة	القراءة
٣١، ٣٠	١ - ﴿اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر برفع اسم الجلالة «الله»، وقرأ الباقون إلا «رويساً» «الله» بالجر على البذل أو عطفت اليان من قوله تعالى: ﴿الْعَزِيزُ الْحَمِيدُ﴾.
٣٢-٣١	٢ - الوقف على قوله تعالى - في نهاية الآية الأولى - ﴿الرَّكَتُوبُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾، فالوقف تام لمن قرأ اسم الجلالة «الله» بالرفع. أي تقف على قوله تعالى «الحميد».
٣٦	ثم تبدأ بقوله «الله»، والوقف التام هو الوقف على كلام يحسن الوقف عليه والابتداء بها بعده. ولا وقف على قوله «الحميد» لمن قرأ لفظ الجلالة «الله» بالجر لتعلقه بها قبله.
٣٦	٣ - قرأ الحسن البصري «ويُصِدُّون» (بضم الياء وكسر الصاد).
٦٩	٤ - قرأ الجمهور «يَذِبحُون» بالتشديد، وقرأ ابن محيصن «يذبحون» بالتحفيف.
١٧٣	٥ - ﴿الَّذِينَ تَرَى إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا يَحْسَبُوا أَنَّ اللَّهَ كَفَرًا﴾ و﴿وَأَعْلَوْا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا وَيَقْسِرُونَ الْقَرَارُ * وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾. [إبراهيم: ٢٨-٣٠]. فالوقف على (كفرا) حسن، وعلى قوله (دار البوار) تام عند نافع وذلك إن أعربت (جهنم) منصوبة بفعل مضمر، ويكون من باب اشتغال الفعل عن المفعول بضميره، أما إن أعربت (جهنم) بدلاً من قوله (دار البوار) فلا وقف؛ لأنه لا يفصل بين البذل والمبدل منه. وإن أعرب «يصلونها» حالاً، فالوقف كاف عند أبي حاتم؛ لأنه جعل جهنم بدلاً من دار البوار.

القراءة

الصفحة

- ٦ - في قوله تعالى: ﴿لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ قراءة ثان: أولاهما بفتح الياء «ليضلوا» وهي قراءة ابن كثير وأبي عمرو، والثانية بضم الياء «ليضلوا» وهي قراءة الجمهور. ١٧٤
- ٧ - قرأ ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وابن محيصن «واستفتحوا» بكسر التاء، والباقون بفتحها في قوله تعالى ﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٥]. ١٢٣
- ٨ - ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ [إبراهيم: ٣٢-٣٣].
- يحسن الوقف في الآيتين الكريميتين على قوله سبحانه: «رزقا لكم»، و«بأمره» و«الأنهار» و«دائبين»، و«النهار».
- ٩ - قرأ ابن عباس والضحاك ويعقوب وغيرهم (من كل) بالتونين في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ثَمَّ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْغُلَّةَ ثَبَاطُثَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [إبراهيم: ٣٤]. ١٩٤
- ١٠ - قرأ ابن مسعود وغيره «ولولدي» يعني إسماعيل وإسحاق ويقوي هذه القراءة سبق ذكرهما في الدعاء، ولا إشكال على هذه القراءة.
- وقرأ ابن جبير «ولوالدي» بإسكان الياء على الأفراد في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [إبراهيم: ٤١]. ٢١٩
- ١١ - وقرأ ابن محيصن وابن جريح والكسائي «لتزول» في قوله تعالى: ﴿وَلِإِنْ كَانَتْ مَكْرُهُمْ لِيَرْزُؤُنَا مِنْهُ أَلْجِبَالُ﴾ [إبراهيم: ٤٦] بفتح اللام الداخلة على الفعل (تزول) على أنها لام الابتداء، ورفع الفعل، واعتبار (إن) مخففة من الثقيلة في قوله: ﴿وَلِإِنْ كَانَتْ مَكْرُهُمْ﴾. وقرأ الجمهور «لتزول» بكسر اللام الأولى على أنها لام الجحود، وفتح اللام الثانية على اعتبار نصب الفعل و(إن) في قوله: ﴿وَلِإِنْ كَانَتْ مَكْرُهُمْ﴾ باعتبار هذه القراءة نافية بمعنى (ما).

فهرس الأشعار

البيت	الصفحة
ولست أدري ولا أخال لا أدري	٥٤
حلقت فلم أترك لنفسك رية	١٢٥
كنا إذا ما أتنا صارخ فزع	١٥٤
ومن ورائك يوم أنت بالغه	١٢٥
ولا تجزعوا إني لكم غير مُصرخ	١٥٤
فلم أر مثلهم أبطل حرب	١٧٢
رآني على ما بي عملية فاشتكى	٣٠
غلام رماء الله بالخير مقبلاً	٣٠
تهوي الى مكة تبغي الهدى	٢٠٥
أليس ورائي إن تراخت منشي	١٢٥
وخيل قد دلفت لها خيل	١٥٠
إني على ما ترين من كبري	٢١٤
حتى إذا ما هوت كف الوليد لها	٢٠٥
على طريق كظهير الأيم مطرد	٢٠٥
وإذا العناية لاحظتك عبورها	٦٩
فأبوا بالنهب وبالسيابا	٢٣٦
وأغض طرفي ما بدت لي جاري	٢٢٤
أقوم آل حصن أم نسله	٥٤
وليس وراء الله للمرء مذهب	١٢٥
كان الصراخ له قرع الظنايب	١٥٤
لا حاضر معجز عنه ولا بادي	١٢٥
وليس لكم عندي غناء ولا نعثر	١٥٤
غداة الحرب إذ خيف البوار	١٧٢
إلى ماله حالي أمر كما جهز	٣٠
له سعياء لا تشق على البصر	٣٠
ما مؤمن الحسن كأنجاسها	٢٠٥
لزوم العصا تحنى عليها الأصابع	١٢٥
تحية بينهم ضرب وجيع	١٥٠
أعرف من أين تؤكل الكتف	٢١٤
طاروت وفي كف من ريشها بشك	٢٠٥
يبوى إلى قنة في منهل عال	٢٠٥
ثم فالمخاوف كلهن أمان	٦٩
وأبنايا الملوك مصفدين	٢٣٦
حتى يسواري جارتني مأواها	٢٢٤

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
الافتتاحية	٧
تقديم	٩
المقدمة	١٣
تسمية السورة	١٧
العلاقة بين اسم السورة ومضمونها	١٧
ترتيب السورة	١٩
العلاقة بين خاتمة سورة «الرعد» وفاتحة سورة «إبراهيم»	٢٠
الحروف المقطعة	٢٠
الكتاب العظيم	٢١
إعراب قوله سبحانه: ﴿الرَّكَتَبُ﴾	٢١
الداعي والهادي	٢٣
الظلمات والنور	٢٣
إرادة مطلقة	٢٥
﴿الْعَزِيزُ الْحَمِيدُ﴾	٢٥
من مشتببه النظم	٢٧

الموضوع	الصفحة
صفة العزة	٢٨
منهج الوسطية	٢٩
السلطان المطلق	٣٠
القراءات في اسم الجلالة	٣٠
كلام عبد القاهر الجرجاني رحمه الله عن الحذف	٣١
المهابة الإلهية	٣١
دلالة صلة الموصول	٣٢
تهديد صريح	٣٣
من صفات الكفار	٣٤
قراءة الحسن البصري	٣٦
من أشد أنواع الصد عن سبيل الله	٣٧
﴿وَيَقُولُوا عِوَاجًا﴾	٣٧
هؤلاء يشوهون صورة الإسلام	٣٩
الرسوخ في الكفر	٣٩
أشرف اللغات	٤٢
دور الترجمة	٤٣
هجر عجيب	٤٦
نداء من القلب	٤٧
الإرسال والبعث	٤٨
الرسول والنبي	٥٠
منهج القرآن الكريم في استخدام كلمة (اللسان)	٥٢
الإضلال والهداية	٥٤

الصفحة

الموضوع

٥٦	الصبار الشكور
٥٧	قوم موسى
٥٩	أيام الله
٦١	الموعظة الحسنة
٦٢	عالمية الإسلام
٦٣	أنواع الصابرين على بلاء الله تعالى
٦٤	التعبير بصيغتي المبالغة «فَعَّالٌ وفَعُولٌ»
٦٥	سر ترادف الصفتين ﴿صَبَّارٌ شَكُورٌ﴾ من غير الواو
٦٦	ابتلاء عظيم
٦٧	جزاء الأعوان
٦٨	تعذيب جسدي ونفسي
٧٠	استحضار الماضي
٧٠	دلالة اسم الإشارة للبعيد
٧١	كيف تنسب أفعال آل فرعون الفظيعة إلى الله تعالى؟
٧١	ابتلاء المؤمنين
٧٤	موازنة بين آيات متشابهات
٧٩	كمال الاتصال
٧٩	ذكر الخاص بعد العام
٨٠	إشارات
٨١	الغني الحميد
٨٢	دلالة (تأذن)
٨٢	سر حذف مفعولا ﴿شَكَرْتُمْ﴾ و﴿لَا زَيْدٌ لَكُمْ﴾

الموضوع	الصفحة
كيفية شكر النعمة	٨٣
الكفر بالنعمة وصور جحودها	٨٤
التصريح بالوعد والتعريض بالوعد	٨٥
المقابلة البديعة	٨٦
ارتباط خاتمة الآية الكريمة بصدرها	٨٧
من نبأ الأمم السابقة	٨٨
خبر عظيم الفائدة	٩٠
الإتيان والمجيء	٩١
قوم نوح وعاد وثمود	٩٢
اللف والنشر غير المرتب	٩٣
دلالة الفاء في قوله تعالى: ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾	٩٣
مناقشة رأي الطاهر بن عاشور	٩٤
تأكيد الكفر	٩٥
الانغماس في الشك	٩٥
سر الفصل بين الموصوف «شك» وصفته «مريب»	٩٦
استفهام إنكاري	٩٨
أدب المرسلين	٩٩
تميز بين خطابين	١٠١
ترجيح (من) البيانية في قوله: ﴿لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾	١٠١
الإمعان في الكفر	١٠٢
تواصل الباطل	١٠٤
التعبير بالآباء من باب التغليب	١٠٥

الموضوع	الصفحة
دَحَضْ شَبَهَاتِ الْمَشْرُكِينَ	١٠٦
الثقة بالله	١٠٧
بشرية الرسل	١٠٩
القول بالموجب	١٠٩
التمييز بين الحق والباطل	١١١
سر التعبير بالكون في قولهم: ﴿وَمَا كُنَّا لَنَا﴾	١١٢
الوعد الرباني	١١٣
الكناية أبلغ من التصريح	١١٣
الصبر على الأذى	١١٥
سر التعبير بالماضي ﴿مَآذِيْهُمْوْنَا﴾	١١٥
تكرير الأمر بالتوكل مرتين	١١٦
عجز فكري ونفسي	١١٧
حرف الظرفية أبلغ في الدلالة على الاستقرار والتمكن	١١٨
الفاء في قوله تعالى ﴿فَأَوْحَى﴾ تشعر بمعية الله تعالى	١١٩
تمكين المؤمنين	١١٩
التعبير باسم الفاعل ﴿الْفَظْلِيِّينَ﴾	١٢٠
عذاب غليظ	١٢١
لا يوجد حرف في كتاب الله مقحم	١٢١
معاني «الاستفتاح»	١٢٢
عاقبة المتجبرين	١٢٤
التنكير في «ماء» للنوعية	١٢٦
سر التعبير بالفعل المبني للمجهول «يسقى»	١٢٦

الموضوع	الصفحة
مشهد فظيع	١٢٧
أعمال باطلة	١٢٩
ريح العذاب	١٣٠
سر إثثار الرماد (المشبه به) على التراب	١٣٠
استعمال الريح والرياح في البيان القرآني	١٣١
صورة محسوسة	١٣٣
الضلال البعيد	١٣٤
الضعفاء والمستكبرون	١٣٦
الضعفاء الحقيقيون	١٣٧
موازنة بين مواضع التخاطب والتجادل والمراجعة	١٤٠
التعبير بالمستقبل عن الماضي لتحقيق الوقوع	١٤١
السين والتاء للمبالغة في الكبر في قوله تعالى: ﴿أَسْتَكْبَرُوا﴾	١٤٢
جزع المستكبرين	١٤٤
سر تقديم الجزع على الصبر	١٤٥
«من» ودلالة استغراق النفي وشموله	١٤٦
إبليس خطيئاً!!	١٤٦
الوعد الحق	١٤٨
ترجيح الاستثناء المنقطع في قوله تعالى: ﴿لَا أَن دَعَوْتُكُمْ﴾	١٥٠
الفاء وسرعة الاستجابة إلى وسوسة إبليس	١٥١
حرية الاختيار قضية عقدية	١٥١
لا منقذ من العذاب	١٥٤
علة التعبير بالجملة الاسمية في ﴿وَمَا أَنتُمْ بِمُعْزِجِينَ﴾	١٥٥

الموضوع	الصفحة
الطاعة المهلكة	١٥٦
وعود باطلة	١٥٨
الإيمان والعمل الصالح	١٥٩
الأنس الروحي	١٦٠
مثلان للكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة	١٦١
إيثار «كيف» في المثل	١٦١
فروق لغوية	١٦٢
مثلان متقابلان	١٦٥
الاستفهام في ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ للتشويق والتعجب	١٦٩
جحود النعمة	١٧٠
دار البوار	١٧١
الوقف والوصل	١٧٣
النَّد والمَثَل	١٧٤
قراءتا الفتح والضم في قوله: ﴿لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾	١٧٤
أفعال مخالفة للعقل	١٧٥
التعبير بالأمر للمبالغة في التهديد والوعيد	١٧٦
تعقيب	١٧٨
علة الفصل بين الأمرين بسقوط العاطف	١٧٨
سر إيثار المضارع على الأمر	١٨٠
دلالة التبعض على التخفيف	١٨١
دلالة الجار على قصر مدة الأعمال	١٨٣
جواب على استشكال	١٨٣

الصفحة

الموضوع

١٨٤ علة اختصاص موضعين متشابهين بما ورد فيهما
١٨٥ نعم جليلة
١٨٨ جمع السماوات وإفراد الأرض
١٩١ دعوة لربط العلم بالإيمان
١٩٢ سر ترتيب النعم في الآية
١٩٢ إن الإنسان لظلم كفار
١٩٣ الإيجاز بالحذف
١٩٤ سر إفراء النعمة
١٩٦ سوء استخدام النعمة
١٩٧ ختامان مختلفان لموضعين متطابقين
١٩٩ الأمن والسكينة
١٩٩ رجاء الشكر
٢٠١ سر العدول عن حرف الظرفية إلى حرف الإلصاق
٢٠٤ نوع «من» في قوله: ﴿مَنْ أَلْتَأَسَّ﴾
٢٠٥ القول بالتضمن لا يكشف السر البلاغي
٢٠٦ تعبير مصور رائع
٢٠٧ سر تعدية الفعل المتعدي منزلة اللازم
٢٠٩ وجه تقديم (ما نخفي) على (ما نعلن)
٢١٠ تكرار النفي والجار مع المعطوف عليه
٢١١ تقديم الأرض على السماء
٢١٣ الفرق بين الشكر والحمد
٢١٤ هل «على» بمعنى «مع» في قوله ﴿عَلَى الْكَبِيرِ﴾؟

الموضوع	الصفحة
طلب المغفرة	٢١٧
يوم الحساب	٢١٩
مآل الظالمين	٢٢٠
سؤال وجيه	٢٢٠
أحوال الظالمين يوم القيامة	٢٢٣
إيثار المفرد على الجمع في قوله تعالى: ﴿لَا يَزِيدُ الْيَاسِمَ ظَرْفُهُمْ﴾	٢٢٤
حرف الاختصاص	٢٢٥
الغرض من تقديم الجار والمجرور على الفاعل	٢٢٦
غياب الوعي	٢٢٧
العدول عن الإضمار إلى الإظهار	٢٢٩
تلون الأسلوب من الحكاية إلى الخطاب	٢٢٩
سر تعدية الفعل (سكن) في الآية بحرف الظرفية	٢٣١
(كيف) تستعمل في سياق المبالغة والتعجيب	٢٣١
المكر المحمود والمكر المذموم	٢٣٢
إن الله لا يخلف الميعاد	٢٣٣
سر تقديم المفعول الأول (وعده) على المفعول الثاني (رسله)	٢٣٣
لماذا عبر عن الجزاء بالانتقام؟	٢٣٤
صورة مفزعة	٢٣٦
الفهارس	٢٤١
المصادر والمراجع	٢٤٣
تعريف موجز بالمصطلحات البلاغية الواردة في الكتاب	٢٥٣
فهرس الآيات القرآنية	٢٧٧

الموضوع	الصفحة
فهرس الأحاديث	٢٩٣
فهرس القراءات	٢٩٥
فهرس الأشعار	٢٩٧
فهرس المحتويات	٢٩٩



السيرة الذاتية

الاسم: د. عادل أحمد صابر الرويني.

تاريخ الميلاد: ١٩٦٤ / ٦ / ٢٤ م.

مكان الميلاد: جمهورية مصر العربية - محافظة الغربية - القرشية.

البريد الإلكتروني: d_reweny@hotmail.com.

المؤهلات العلمية: دكتوراه في اللغة العربية (قسم البلاغة والنقد) بتقدير (مرتبة

الشرف الأولي) من كلية اللغة العربية جامعة الأزهر الشريف، عام ٢٠٠٣ م.

بحوث مطبوعة:

١- البلاغة القرآنية في الحديث عن الرسول ﷺ.

٢- من مشته النظم القرآني.

٣- معجم التعريفات البلاغية والأدبية والنقدية والعروضية في كتب المرحلتين الثانوية والجامعية.

٤- نظرات بلاغية في آيات قرآنية.

٥- تأملات في سورة مريم - تفسير بلاغي تطبيقي.

كتب تحت الطبع:

١- من حصاد القلم - مقالات في الدين والحياة -.

٢- تشبيهات المرأة في شعر هذيل.

٣- تأملات في سورة يوسف - عليه السلام -.

خبرات أخرى:

- العمل في مجال الصحافة محرراً في جريدتي (الأحرار والحياة) المصريتين.
- الخطابة في بعض مساجد وزارة الأوقاف بمصر، وبعض المساجد الأهلية.
- الكتابة في صحف (الخليج والبيان وأخبار العرب) الإماراتية، ومجلات الفتح والمعلم والعربية الإماراتية.
- المشاركة في بعض البرامج الإذاعية والتلفزيونية بدولة الإمارات العربية إعداداً وتقديماً.
- الترشيح لجائزة تريم عمران للمقال الصحفي الدورة الثانية ٢٠٠٤م والدورة الثامنة عام ٢٠٠٨م.
- عضوية جمعية حماية اللغة العربية الشارقة.
- الاشتراك في المؤتمرات الدولية السنوية لمركز الخليج للدراسات بالشارقة.
- مقالة أسبوعية في (جريدة الخليج) الإماراتية ملحق - الدين للحياة -.



هذا الكتاب

تحليل لغوي بلاغي لسورة إبراهيم، يكشف عما يُكنّته الأسلوب القرآني من قيم تعبيرية ولمحات فنية وسمات أسلوبية، معتمداً على المنهج التحليلي التطبيقي الذي يقوم على تحليل المفردات والتراكيب لغوياً وبلاغياً، فَيُبين دقّة نظم الكلمة في التركيب الذي يضمّها، مراعيّاً دلالتها من حيث مادّتها وصيغتها وترتيبها في النظم، ويظهر المعاني والأسرار البلاغية الكامنة في التراكيب وعلاقات الجمل وارتباط بعضها ببعض. وفيه تعرّض للآيات المتشابهة ما بين هذه السورة وسور أخرى، مع بيان أوجه الاتفاق والاختلاف بينها والسّرّ في ذلك، بما يدحض شبهة الطاعنين في أسلوب القرآن الكريم. ولم يُغفل الكتاب أسباب النزول، واختلاف القراءات القرآنية وتوجيهها بلاغياً، وربط التفسير البلاغي بالواقع المعاصر المتصل بالقضايا الإنسانية والاجتماعية في حياتنا.